

الْجُمْهُورِيَّةُ الْجَزَائِرِيَّةُ الدِّيمُقْرَاطِيَّةُ الشَّعْبِيَّةُ

وَزَارَةُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي وَالْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ

جَامِعَةُ الْجَزَائِر - 2 - "أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدِ اللَّهِ"

كُلِّيَّةُ الْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ

قِسْمُ التَّارِيخِ

أَطْرُوحَةُ مُقَدَّمَةٍ لِنَيْلِ شَهَادَةِ دُكْتَوْرَاهُ (عُلُومِ) فِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ وَالْمُعَاصِرِ

الصَّرَاعُ الْعُثْمَانِيُّ الْبَرْتَغَالِيُّ فِي شَرْقِ إِفْرِيقِيَا

(922 - 973هـ / 1517 - 1566م)

The Ottoman-Portuguese conflict in East Africa

(922- 973AH/ 1517- 1566 AD)

إِشْرَافُ الْأُسْتَاذِ الدَّكْتُورِ :

مُحَمَّدُ دِرَّاج

إِعْدَادُ الطَّالِبِ :

مُحَمَّدُ تَرْكِيَّة

لَجْنَةُ الْمُنَاقَشَةِ

- أ. د. عَمَارُ بْنُ خُرُوفٍ..... أَسْتَاذُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ 2 "أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدِ اللَّهِ".... رَئِيساً
- أ. د. مُحَمَّدُ دِرَّاج أَسْتَاذُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ 2 "أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدِ اللَّهِ"..... مُقَرَّراً
- أ. د. إِبْرَاهِيمُ سَعِيدُ..... أَسْتَاذُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ 2 "أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدِ اللَّهِ"..... عَضُواً
- أ. د. عَبْدِ الْقَادِرِ فَكَائِرٍ.... أَسْتَاذُ التَّعْلِيمِ الْعَالِي بِجَامِعَةِ خَمِيسِ مِلْيَانَةِ "جِيلَالِي بُونَعَامَةِ".... عَضُواً
- د. وَهِيْبَةُ قَطُوش..... أَسْتَاذَةُ مُحَاضِرَةٍ - أ - بِجَامِعَةِ الْجَزَائِرِ 2 "أَبُو الْقَاسِمِ سَعْدِ اللَّهِ"..... عَضُواً
- د. يَاسِينَ بُودِرِيَّة..... أَسْتَاذُ مُحَاضِرَةٍ - أ - بِجَامِعَةِ الْبُويرَةِ "آكَلِي مُحَنَدُ أُولْحَاج"..... عَضُواً

السَّنَةُ الْجَامِعِيَّةُ: 2022 / 2023

Peoples Democratic Republic of Algeria
Ministry for Higher Education Scientific Research
University of Algiers -2- Abu el Qassim Saad Allah

Faculty of Humans scientists

Departement of History

*Thesis Submitted for obtaining a Doctorat of (Science) in Modern and
contemporary History*

***The Ottoman-Portuguese conflict in East Africa
(922- 973AH/ 1517- 1566 AD)***

Student preparation :
Mahmoud Teurkia

Supervition of :
Prof. Dr Mohamed darradj

Discussion Committes Membres

Prof. Dr. Amar ben khrof.....Professor higher education at the University
of Algiers -2- Abu el Qassim Saad Allah.....***Presedent***

Prof. Dr. Mohamed derradj..... Professor higher education at the University
of Algiers -2- Abu el Qassim Saad Allah.....***Rapporteur***

Prof. Dr. Ibbrahim saayoud.... Professor higher education at the University
of Algiers -2- Abu el Qassim Saad Allah.....***Member***

Prof. Dr. Abdel kader fkayer.... Professor higher education at the University
of khemis miliana" Djillali Bounaama"..... ***Member***

Dr. Wahiba Guettouche.....Lecturer professor "A" at the University
of Algiers -2- Abu el Qassim Saad Allah..... ***Member***

Dr. Yacine Boudrea..... Lecturer professor "A" at the University
of Bouira"Akli mohand el Hadj"..... ***Member***

Univerity schooling year: 2022 / 2023

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمات شكر وعرفان

بعد أن أنعم الله تعالى عليّ بإنجاز هذا العمل المتواضع، لا يسعني إلا أن أعرب عن خالص امتناني للأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور محمد درّاج، الذي لم ييخل عليّ يوماً بإبداء النصّح والتّوجيه والتّعليق وإبداء الملاحظات، كما أشكره على صبره معي طوال فترة إنجازه، والذي بفضل الله ثمّ انجازه على ما هو عليه، فله منّي أسمى عبارات الامتنان والتّقدير.

كما لا يفوتني أن أتقدّم بشكري وامتناني للأستاذ الدكتور نور الدّين شعباني من جامعة جيلالي بونعامة بخميس مليانة، الذي أفادني كثيراً في انجاز هذه الدّراسة خاصة فيما تعلّق بالجانب الإفريقي منها. كم أعرب عن امتناني لكلّ أساتذتي الأفاضل بقسم التاريخ بجامعة أبو القاسم سعد الله، وموظّفيه الذين تلقّيت منهم كلّ المودّة والاحترام وكذلك الى موظّفي المكتبة الجامعية بالجامعة نفسها والمكتبة الوطنية بالحامة، ومكتبة قصر الثقافة "مفدي زكريا".

تقديري العالي وامتناني العميق أقدمه للسّادة رئيس وأعضاء لجنة المناقشة الموقّرين، لما سيبدّلونه من جهد لقراءة هذه الأطروحة ووضع ملاحظاتهم القيّمة لتصويبها، والخروج بها على نحو أفضل، والله يجزي الجميع.

قَائِمَةُ الْمُخْتَصِرَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الدِّرَاسَةِ (Abréviations)

المُختصرات بالعربية

- تر: ترجمة.
- تق: تقديم
- تح: وتحقيق.
- ج: الجزء.
- د. م. ن: دون مكان نشر.
- د. ت. ش: دون تاريخ نشر.
- ط: الطبعة.
- ع: العدد.
- ج: الجزء.
- مج: مجلد.

قائمة المختصرات بالأجنبية. *Table des sigles et Abréviations étrangers*

- Édi: Éditions.
- Ibid: المصدر أو المرجع نفسه :
- IMAF: Institut des Monde Africain.
- N°: Numéro.
- Op.cit: opéro citat(مصدر أو مرجع سابق)
- P: Page
- p.p: page précédente.
- R.o.m.m.m: Revue du monde musulman et de la méditerranée
- S..D.L.E: Sans date et lieu d'édition.
- S.DT: Sans date.
- S: Saifa(صفحة باللغة التركية)
- T: Tome.
- Vol: Volume.

المقدّمة

المقدمة

تُمثّل بدايات القرن 10هـ/16م مُنعطفاً حاسماً في تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي المسيحي. فقد عرفت تلك الفترة تغييرات جذرية في موازين القوى السياسية والاقتصادية والحضارية، أدت إلى بناء ملامح العالم الحديث. وذلك بظهور تموقع جديد للقوى السياسية الكبرى في أوروبا التي ظهرت في تلك الفترة.

وتجلّى هذا في تلك التحولات العميقة والسريعة التي عرفها العالم الإسلامي، فبدايةً بسقوط الأندلس عام 897هـ/1492م، إلى تحوّل التوسعات العثمانية من أوروبا إلى المشرق العربي، والتي كان من نتائجها ضمّ العثمانيين لمصر منذ 1517، بالإضافة إلى ظهور الدولة الصفوية الشيعية في بلاد فارس، وظهور الدويلات المغولية في الهند، وقد دخلت هذه القوى الإسلامية صراعات فيما بينها.

بالمقابل شهدت أوروبا بدايات نهضتها الفكرية والأدبية، وبدايات ظهور الدّول الوطنية المتشعبة بالروح الصليبية والنّاقمة على الإسلام والمسلمين، ونخصّ بالذكر دولتي إسبانيا والبرتغال.

وفي هذا الإطار شهدت العلاقات بين العالمين الإسلاميّ ممثلاً في الدّولة العثمانية، والمسيحيّ ممثلاً في كلّ من إسبانيا والبرتغال مواجهات شرسة. وإن كان الصّراع قد عُرف بضراوته في المغرب العربيّ خاصّة بعد سقوط الأندلس بين القوى الإسلاميّة المحليّة مدعومة من طرف الدّولة العثمانية من جهة، وإسبانيا والبرتغال ومن ورائهما البابوية في روما من جهةٍ أخرى، فإنه لا يقلّ ضراوة عن ذلك الصّراع الذي درات أطواره بالبحار الشرقية وسواحل شرق إفريقيا بين القوى المسيحية المحلية المدعومة من البرتغال، والقوى الإسلامية المدعومة من طرف الدّولة العثمانية.

وكانت البحار الشرقية خلال هذه الفترة بما فيها سواحل شرق إفريقيا المطلة على المحيط الهندي والبحر الأحمر مناطق بحرية إسلامية خالصة تعبّرها السفن الإسلامية مُحمّلة بالبضائع وسفن الحجيج بكل حريّة.

لكن بعد تدخّل البرتغال كدولة استعمارية بحرية قويّة وتحالفها مع مملكة الحبشة المسيحية ومع الصّفويين، هدّدت الملاحة بهذه المناطق واحتكرت التجارة بها. هذا ما أدّى إلى إلحاق أضرار كبيرة بمصالح دولة المماليك التي كانت تعيش أيامها الأخيرة في مطلع القرن 16م. كما مسّت هذه الأضرار الدولة العثمانية بعد بسط نفوذها على مصر والشام والحجاز، وعرّض الممالك الإسلامية في شرق إفريقيا إلى مخاطر شديدة جعلها تستنجد بالدولة العثمانية.

هذا ما جعل المواجهة المباشرة بين الدولتين أمر حتمي، خاصة بعد تمركز البرتغاليين في شرق إفريقيا، ومن ثمة محاولتهم التغلغل في البحر الأحمر مستغلين فترة الفراغ التي أعقبت سقوط دولة المماليك، ممّا اضطرّ بالعثمانيين إلى الوقوف ضدّ هذه المحاولات بعد تمكنهم السيطرة على اليمن واتّخاذة قاعدة متقدّمة لهم وبالتالي إغلاق البحر الأحمر في وجه السفن البرتغالية، وكان هذا جزءاً من عملية إحكامهم للحزام الأمنيّ على شبه الجزيرة العربيّة.

فكان تدخل الدولة العثمانية في هذه المنطقة أمراً لا مفرّ منه. كما لم يكن الخطر البرتغالي هو الوحيد الذي يهدّد المنطقة، بل أضيف إليه ظهور الصّفويين في شرق الأناضول الذين تحالفوا مع البرتغاليين في خليج البصرة لمحاصرة الدولة العثمانية.

وسوف تتناول هذه الدّراسة تحليل ومناقشة الظروف والملابسات التي أحاطت بالصّراع العثمانيّ البرتغاليّ في شرق إفريقيا، وتحولّها إلى منطقة صراع إسلاميّ مسيحيّ، وما خلفه هذا الصّراع من آثار كبيرة على مستقبل شرق إفريقيا وجنوب شبه الجزيرة العربيّة.

وبما أنّ موضوع الصراع البرتغالي العثماني خلال الفترة المدروسة اقتصر على الحبشة والقرن الإفريقيّ، ولم يمتدّ إلى جنوب القرن الإفريقيّ إلّا بعد ثمانينيات القرن 16م، اقتصرّت الدّراسة على المناطق المذكورة دون سواها.

أهمية الموضوع

تظهر للباحث أهمية هذا الموضوع من خلال النظر إليه من عدة جوانب:

1. الأثر الكبير الذي تركته التحوّلات السياسيّة والاقتصاديّة التي عرفها العالم الإسلاميّ والمسيحيّ منذ مطلع القرن 10هـ/16م، وهذا بعد التقاف البرتغاليين حول إفريقيا ووصولهم إلى الهند، وتهديدهم للتجارة الدوليّة هناك، واحتلالهم لمعظم الإمارات الإسلاميّة في شرق إفريقيا بالتّريب وبالترهيب. وكذا محاولتهم اقتحام البحر الأحمر لتهديد الحرمين الشريفين. كلّ هذه المتغيّرات دفعت بالعثمانيين إلى التّدخل المباشر في المنطقة، بعد عجز المماليك عن أداء دورهم الأساسيّ الذي كان يتمثّل في حماية السواحل الإسلاميّة وطرق الحرمين الشريفين.

2. كما تكمن أهمية الموضوع في إبراز خطورة تواجد البرتغاليين في شرق إفريقيا. والذي تحقّق من خلال تحالفهم مع القوى المحليّة في المنطقة؛ وأيضاً مع الصّفويين ومملكة الحبشة المسيحيّة. الأمر الذي دفع الدولة العثمانيّة إلى التّدخل بالتحالف لمساندة الإمارات الإسلاميّة في شرق إفريقيا لردّ هذا الخطر الداهم.

3. بانتقال الخلافة إلى العثمانيين برزت الدولة العثمانيّة كدولة حامية للعالم الإسلاميّ السّنّي، وهذا ما جعل المسلمين السّنّة في مختلف أنحاء العالم يستجدون بالخليفة العثمانيّ. وفي هذا السياق لاحظنا أنّ زعماء المسلمين في شرق إفريقيا أرسلوا عدّة دعوات للتّدخل لحمايتهم من الاعتداءات البرتغاليّة. وهذه المسألة لا ريب أنّها تشكّل جانباً آخرّاً من جوانب أهمية الموضوع، تضاف إلى الجوانب التي سبقَت الإشارة إليها.

أسباب اختيار الموضوع

لقد ارتكز اهتمام معظم الباحثين في تاريخ الدولة العثمانيّة، على حدودها الغربيّة أكثر من تركيزهم على الحدود الجنوبيّة والشرقيّة. وهذا ما عكس قلة الدّراسات المتعلّقة بالوجود العثمانيّ في شرق إفريقيا مقارنة بالمناطق الأخرى.

المقدمة

وهناك سبب آخر دفعني إلى اختيار هذا الموضوع هو تركيز معظم الدراسات المتعلقة بتاريخ الدولة العثمانية على الأناضول والبلقان، والبحر الأبيض المتوسط والمغرب والمشرق الإسلاميين. وفي السنوات الأخيرة بدأت بعض الدراسات تهتمّ بالفضاء غير التقليديّ للدولة العثمانية، كالعلاقات العثمانية الروسية والعثمانية الإسكندنافية وغيرها. لهذا رجوتُ أنّ موضوع الدراسة التي سأتناولها يُشكّل إضافة مهمّة للدراسات العثمانية بشكل عام.

وثمة سبب آخر يُمكن اعتباره ذاتياً، ويتمثّل في تسليط الضوء على تاريخ منطقة هامّة من العالم الإسلاميّ، عاشت ظروفاً قاسيةً خلال القرن 16م وبعده. بحيث أراد الإستعمار الأوروبيّ سلخها من العالم الإسلاميّ. ولما عجز عن ذلك ها هو اليوم يسعى لتشويه تاريخها وإبعادها عن انتمائها الحضاريّ العربيّ الإسلاميّ رغم تمسّك شعوبها بهذا الانتماء واعتزازهم به. لهذا حاولت من خلال هذه الدراسة الوصول إلى أنّ الصراع العثمانيّ البرتغاليّ في شرق إفريقيا خلال القرن 16م وحتى اليوم هو جزء من الصراع الإسلاميّ المسيحيّ الذي بدأ منذ ظهور الإسلام ولا زال مستمراً إلى اليوم.

الإطار المكانيّ للدراسة

الجدير بالذكر أنّ التواجد العثمانيّ والبرتغاليّ في شرق إفريقيا يندرج ضمن صراع النفوذ بين الدولتين للسيطرة على البحار الشرقية. لهذا يلاحظ الباحث أنّه ثمة تداخل وتشابك للأحداث. وذلك لوجود جبهات متعدّدة للصراع، تتمثّل في السواحل الغربية والشرقية للبحر الأحمر، جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية، وخليج البصرة ومضيق هرمز، وسواحل الهند الغربية ومنطقة شرق إفريقيا الممتدّة من شرق مجرى نهر النيل والبحيرات إلى البحر الأحمر وسواحل المحيط الهنديّ. والذي يشمل بالمفهوم السياسيّ اليوم كلاً من أثيوبيا وأريتريا وجيبوتي والجهات الشرقية لكلّ من مصر والسودان والصّومال وكينيا وتنزانيا والجزر الواقعة في البحر الأحمر. وذلك على اعتبار أنّ الإطار

الزّمنيّ الذي شملته الدّراسة لم يكن العثمانيّون قد وصلوا فيه بعد للأجزاء الجنوبيّة من شرق إفريقيا، بسبب انشغالهم في جبهات أخرى، وأهمّها البحر الأحمر وخليج البصرة.

الإطار الزّمنيّ للدّراسة

سوف تُغطّي هذه الدّراسة الفترة الممتدّة من عام 922هـ/1517م، إلى نهاية فترة حكم السّلطان سليمان القانونيّ عام 973هـ/1566م. وذلك لعدّة اعتبارات أخذتها الدّراسة:

1. تعتبر هذه الفترة بمنزلة العصر الذهبيّ للدولة العثمانيّة، حيث أصبحت تتحكّم في مفاصل السياسة العالميّة، سواءً تعلق الأمر بالعالم الإسلاميّ أم المسيحيّ.

2. احتدام الصّراع بين العالمين الإسلاميّ بقيادة الدّولة العثمانيّة، والمسيحيّ بقيادة البابويّة في عدّة جبهات، والتي كانت البحار الشّرقية وشرق إفريقيا من أهمّها.

3. لقد تمّ تحديد نهاية فترة حكم السّلطان سليمان القانونيّ (1520-1566م) كنهاية لهذه الدّراسة، على أساس أنّ الصّراع العثمانيّ البرتغاليّ على منطقة شرق إفريقيا بعد هذه الفترة قد خفّت حدّته عن ذي قبل، خاصّة بعد هزيمة البرتغاليّين في معركة وادي المخازن عام 585هـ/1578م، وما تبعها من احتلال إسبانيّ للبرتغال عام 987هـ/1580م، فاسحة المجال لقوى بحريّة جديدة ظهرت في المنطقة، مثل: عُمان وهولندا وبريطانيا.

إشكاليّة الدّراسة

تهدف هذه الدّراسة إلى معالجة إشكاليّة الوجود العثمانيّ في شرق إفريقيا خلال القرن 10هـ/16م، في ظلّ التّغيّرات العميقة التي عرفها العالمان الإسلاميّ والمسيحيّ خلال هذه الفترة، خاصّة بعد ظهور الخطر البرتغاليّ في المنطقة. ومن الطّبيعيّ أن تتطرق هذه الدّراسة إلى الخلفيات السياسيّة والدينيّة والجغرافيّة التي ساهمت في تحويل المنطقة إلى جبهة جديدة للصّراع بين القوتين الإسلاميّة والمسيحيّة فيما بين (922-973هـ/1517-1566م).

وللإجابة عن كلّ هذا يجد الباحث نفسه مُضطراً لطرح مجموعة من التّساؤلات التي تُشكّل في مجملها الإجابة الشّاملة عنها، وهذه التّساؤلات تُشكّل في مجملها إشكاليّات فرعيّة يمكن إيرادها على النّحو التّالي:

■ ما هي المتغيّرات التي عرفها المشرق الإسلامي وممالك شرق إفريقيا عند وصول البرتغاليين الى المنطقة؟

■ ما هي الدّوافع التي جعلت البرتغاليين يجعلون من منطقة شرق إفريقيا مُرتكزاً لوجودهم في البحار الشّرقية؟ وما هي الإستراتيجية التي طبّقوها لبسط نفوذهم على المنطقة؟

■ ما هي الإستراتيجية التي اتّبعتها العثمانيون للحيلولة دون فرض البرتغاليين لنفوذهم على شرق إفريقيا؟

■ ما الذي ترتّب عن تدخل العثمانيين في صدّهم للتهديدات البرتغالية على شرق إفريقيا؟

منهجية البحث المُعتمدة

جنح الباحث في هذه الدّراسة إلى اختيار المنهج الوصفيّ التّحليليّ، في عرض ومناقشة تفاصيل وجزئيّات الموضوع قيد الدّراسة، وذلك من أجل فهم حيثيّات الأحداث التي صنعت الواقع السّياسي الجديد لشرق إفريقيا.

كما التزم الباحث بالتّعريف بالأعلام والأماكن والتّعليق على بعض الحوادث الجزئيّة لتوضيح بعض الأفكار الرّئيسة الواردة في مباحث الدّراسة.

وتمّت كتابة أسماء الأماكن والأعلام باللّغات الأجنبيّة إلى جانب العربيّة، مع توضيح ما يحتاج منها إلى شرح في هامش الدّراسة.

والتزم الباحث أيضاً بالتّاريخ للأحداث بالتّاريخين الهجريّ والميلاديّ.

خُطّة البحث

وبُغية الإجابة عن الإشكالية الرئيسة المطروحة والتعمق أكثر في الموضوع قسّمت هذا البحث إلى مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة.

■ الفصل الأوّل: نظرة عامّة عن الأوضاع السياسيّة في المشرق الإسلاميّ عند وصول البرتغاليين، والذي خصّصته لدراسة الوضع العامّ في المشرق الإسلاميّ والصّراع العثمانيّ الصّفويّ، والعثمانيّ المملوكيّ، خاصّة في ضوء ظهور الخطر البرتغاليّ في شرق إفريقيا وجنوب الجزيرة العربيّة.

■ الفصل الثّاني: الحملات البرتغاليّة للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا، تناولت فيه ظهور دولة البرتغال إلى الساحة الدوليّة، وخروجها إلى ميدان الكشوفات الجغرافيّة مع بدايات القرن 16م، خاصّة في شرق إفريقيا وتحول هذه العمليّة إلى حركة مدّ استعماريّ. كما تطرّقت الدّراسة إلى نتائج الاستعمار البرتغاليّ للإمارات الإسلاميّة في شرق إفريقيا.

■ الفصل الثالث: الصّراع بين مملكة الحبشة ممالك والزّيلع الإسلاميّة والتّدخل البرتغاليّ العثمانيّ، تناولت فيه جذور الصّراع بين ممالك الزّيلع الإسلاميّة ومملكة الحبشة النّصرانيّة. وركّزت على ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم التي كادت أن تضع حدّاً لها، لولا تدخّل البرتغاليين ومساندتهم للأحباش الأمر الذي دفع العثمانيّين إلى التّدخل لمساندة الإمام أحمد بن إبراهيم ثمّ تأسيس إيالة الحبشة.

■ الفصل الرّابع: الصّدام البرتغاليّ العثمانيّ في البحر الأحمر، وخصّصته للصّراع البحريّ بين الأساطيل البرتغاليّة والعثمانيّة في البحار الشّرقية وبالضّبط في البحر الأحمر وخليج عدن. واستمرّ هذا الصّراع حتى الهزيمة الساحقة التي تلقّاها البرتغاليّون في معركة وادي المخازن عام 980هـ/1578م، ممّا أفضى إلى تراجع نفوذهم في البحار الشرقية، وإفساح المجال لقوى أجنبيّة أخرى.

■ الخاتمة: اختتمت الدراسة بخاتمة ضمّنتها أهمّ النتائج التي تمّ الوصول إليها، بالإضافة إلى خلاصة عامّة للبحث، مذيّلة بعدّة ملاحق رأيتها ضروريّة لتوضيح بعض جوانب الدراسة، على اعتبار أنّها تكملها منهجياً وعلمياً.

دراسة ونقد مصادر ومراجع الدراسة

نظراً لأهمّيّة المنطقة موضوع الدراسة في الصّراع الدّوليّ سواءً خلال الفترة التي عالجتها الدراسة أو الفترات التّالية، من الطّبيعيّ أن يجد الباحث المصادر المتعلّقة بشرق إفريقيا متنوّعة من حيث اللّغات ومتفاوتة من حيث المضمون والأهمّيّة. ولكي يتمكّن الباحث من النّظر إلى الأحداث بموضوعيّة كان من اللازم عليه تنويع مصادره وهذا ما حاول القيام به. إذ وظّف العديد من المصادر والمراجع باللّغات العربيّة والإنجليزيّة والفرنسيّة والتركيّة، ومصادر أخرى بالبرتغاليّة مُترجمة إلى الإنجليزيّة.

وما لاحظته على الدّراسات التّاريخيّة الأوروبيّة حول شرق إفريقيا، أنّها حاولت طمس المعالم الإسلاميّة للمنطقة عامّة وللحبشة خاصّة، ويتجلّى هذا في محاولة السّلطات الرّسميّة المسيحيّة في إثيوبيا، ومن ورائها دول أوروبيّة متحالفة معها إلى إخفاء الصّورة الإسلاميّة للحبشة وإزالة المعالم الإسلاميّة والمخطوطات الأثريّة التي تبرز البعد التّاريخيّ والحضاريّ للمنطقة. ويدّعي المؤرّخون الأوروبيّون المهتمّون بدراسة المنطقة أنّه لم تكن هناك وثائق تاريخيّة تورّخ لفترة السّابقة لوجودهم. لهذا اعتمد الباحثون الأفارقة في تدوين تاريخهم على الروايات الشّفهيّة. لكنّ حقيقة الأمر أنّ الأوروبيّين بعد استعمارهم للمنطقة قاموا بإتلاف معظم الوثائق التي عثروا عليها، وادّعوا أنّها غير موجودة. وفي هذا الإطار نجد أنّ هؤلاء المؤرّخين ركّزوا على إبراز الوجه المسيحيّ للحبشة، وعمّلوا على تشويه التّاريخ الإسلاميّ بالمنطقة¹.

¹ لقاء تلفزيوني للأستاذ أحمد كواس بعنوان: العلاقات الإفريقية العثمانية على قناة T.R.T التركية (بالعربية)، بتاريخ السبت 19 أوت 2017.

ولإنجاز هذه الدراسة اعتمد الباحث على عدد كبير من المصادر العربية والأجنبية، منها:

1 . الوثائق الأرشيفية

أ. الوثائق العثمانية

تتمثل في مجموعة من الوثائق العثمانية المهمة نشرها محمد محمود خليلي كتاب بعنوان وثائق بحرية عن قابودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين، مأخوذة من الديوان الهمايوني مرقمة ومؤرخة ومترجمة إلى العربية. وتضمن الكتاب رسائل تبادلها السلطان العثماني سليمان القانوني مع حكام اليمن والحبشة ومصر، ومع ملوك البرتغال. وقمت بتوظيف بعضها خاصة في الفصلين الثالث والرابع. ففي الفصل الثالث حاولت أن أوظف بعض الوثائق التي تحتوي على رسائل بعث بها السلطان سليمان القانوني إلى حكام مصر واليمن، يطالبهم من خلالها بتقديم الدعم إلى مسلمي الحبشة في مواجهتهم للأحباش النصارى، المدعومين من طرف البرتغاليين. وأما في الفصل الرابع فقد استعنت ببعض الوثائق التي تضمنت رسائل متبادلة بين السلطان العثماني سليمان القانوني وملوك البرتغال. ونخص بالذكر الملكين دون إيمانويل - *Don Emmanuel* ودون سيبستيان *SebastianDon*، وكان هذا في إطار محاولات عقد الصلح بين العثمانيين والبرتغاليين.

ب. الوثائق البرتغالية

وهي عبارة عن مجموعة من الوثائق تضم 58 رسالة محفوظة في الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة *Torré do tombo*، ترجمها إلى اللغة العربية الفرنكو برتغالي *Fr. Jaoa de Sousa* في كتابه *Documentos Arabicos*، ومنها 27 رسالة خاصة بالمحيط الهندي وشرق إفريقيا، منها كذلك المترجمة إلى اللغة العربية والمحفوظة ومن ضمنها 58 رسالة بالعربية جمعها دي سوزا *Louis de sousa* عام 1790م في كتاب بعنوان: *Documentos Arabicos Parahistoria Portuquez*، وهو كتاب يحتوي على

مجموعة من الرسائل بين الحُكّام العرب والفرس والأمراء المحليين في شرق إفريقيا مع القادة العسكريين البرتغاليين في المحيط الهندي وملك البرتغال ونائبه بالهند خلال القرن 16م وحتى عام 1790.

وقد استعنت بها في الفصل الثاني، لإبراز طبيعة السيطرة البرتغالية على ممالك شرق إفريقيا، ومعاناة حُكّام وسُكّان تلك المناطق من تسلّط البرتغاليين.

2. المصادر العربية والمُعربة

أ. المصادر العربية

تكتسي المصادر العربية بالنسبة لهذا الموضوع أهميّة كبيرة، لأنّ المعلومات التي وردت في هذه المصنّفات والمؤلّفات أصلية ومهمّة.

ومن أهمّ هذه المصادر التي اعتمدت عليها في دراستي، كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس. وكان هذا الأخير قد عاصر انهيار دولة المماليك أمام العثمانيين، وعبور البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح، وبداية المواجهة ضدّهم في البحر الأحمر والمحيط الهندي. الأمر الذي مكّنه من تدوين الأحداث التي سبقت وعاصرت دخول العثمانيين إلى مصر. لهذا يُعتبر هذا المؤلّف مهمّاً جدّاً بالنسبة للموضوع قيد الدراسة على الرّغم من افتقاده التفاصيل التي تزيد الموضوع وضوحاً. وقد استفدت من هذا المصدر في الفصل الأوّل خاصّة ما تعلّق بمراحل تجهيز المماليك لحملاتهم الأولى لصدّ الهجمات البرتغالية على الهند. كما اشتمل على معلومات مهمّة تخصّ الصّدام المملوكي العثماني وضمّ مصر للدولة العثمانية.

ومن أهمّ المصادر العربية التي اعتمد عليها الدّارس كذلك كتاب فتوح الحبشة أو فتوح الزّمان لشهاب الدّين بن الشّيخ أحمد بن عبد القادر بن سالم الشّهير بعرب فقيه، والذي تعتبر هذه النسخة الجزء الأوّل فقط من الكتاب، أمّا الجزء الثاني فمن المؤسف أنّه لا زال مفقوداً.

وقد ترك لنا عرب فقيه في كتابه هذا وصفاً لكل التفاصيل الخاصة بجهاد الإمام أحمد بن إبراهيم، بداية من تعرّضه لجوانب من حياته ولتوحيده للقبائل الصومالية إلى فتوحاته في الحبشة، وذلك باعتبار أنّه عاصر وشارك في جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم، وكان بذلك شاهد عيان على فتوحاته في الحبشة منذ 935هـ/1528م.

ويعتبر هذا المصنّف من أهمّ المصادر التي اعتمدت عليها الدّراسة خاصّة في الفصلين الأول والثالث. وذلك فيما يتعلّق بحركة الجهاد التي قام بها الإمام أحمد ابن إبراهيم ضدّ مملكة الحبشة.

وثمة مصدر آخر لا يقل أهميّة عن سابقه، استقدت منه في إعداد هذه الدّراسة، هو كتاب البرق اليماني في الفتح العثماني لقطب الدّين محمّد بن أحمد النّهروالي المكيّ. وتكمن أهمّيّته في كون مؤلّفه عاصر عدّة أحداث هامّة ذات علاقة بالموضوع، خاصة فترة حكم السلطان سليمان القانوني، وقد استقبله هذا الأخير شخصياً. وعند الإنهاء من تأليفه أهداه للسلطان سليم الثاني (1574-1566). كما أنّه وبحكم إتقانه للغات الثلاث العربيّة والفارسيّة والعثمانيّة أصبح المؤرّخ الرّسمي للدولة العثمانيّة باللّغة العربيّة وناشراً لإنجازاتها وانتصاراتها ومُدافعاً عن مواقفها. وقد استقدت من هذا المصدر في مواضع مختلفة من الدّراسة.

ب. المصادر المُعرّبة

من أهمّ المصادر العثمانيّة المُعرّبة كتاب تحفة الكبار في أسفار البحار، لمؤلّفه كاتب جلبي المعروف بحاجي خليفة، تحقيق وترجمة محمّد حرب. وقد ألفه بعد الإخفاقات التي مني بها العثمانيّون بعد حملة كريت عام 1055هـ/1646م، وحاول من خلاله المؤلّف الرّفع من معنويّات العثمانيّين. وذلك بتناوله للبعض من أمجاد التّاريخ البحريّ العثمانيّ. وفي الجزء الأوّل من الكتاب ذكر المؤلّف الحملات البحريّة للدولة العثمانيّة

المقدمة

وبطولاتها وقادتها حتّى حملة كريت. وقد أفاد هذا المؤلّف الدّراسة في فصلها الرّابع الخاصّ بالحملات الّتي وجّهتها الدّولة العثمانية إلى الهند.

بالإضافة إلى مصدرٍ آخر عنوانه: **الرحلة إلى مصر والسودان والحبشة**، لمؤلّفه أوليا جلبي، والذي ترجمه إلى العربية حسين مجيب المصريّ، وقد تضمّن هذا المصدر وصفاً لأحوال الحبشة السّياسيّة والاقتصاديّة والممالك الإسلاميّة المحيطة بها، وبما أنّ أوليا جلبي هو رحّالة فقد غلب على مؤلّفه الطّابع الوصفيّ، استعان به الباحث في الفصل الأوّل والثّالث من الدّراسة.

3. المصادر الأجنبية

ومن المصادر الأجنبية الّتي تمّ توظيفها في إعداد هذه الدّراسة كتاب بعنوان:

Narrative of the embassy to portuguese Abbyssinia during the years

(1520-1527) لمؤلّفه الأب فرانسيسكو- *Father Fransisco Alvarez* الّذي كتبه باللغة

البرتغاليّة، وترجمه إلى الإنجليزيّة اللّورد ستانلي أوف أديرلاي. وكان الأب ألفريس قد

وصل إلى الحبشة عام 1520م على رأس بعثة دبلوماسية برتغاليّة مكثت هناك إلى غاية

عام 1526م، حيث التقى هناك بكوفلهام الّذي اشتغل كمستشار لإمبراطور الحبشة مدّة

33 سنة، وكان قد قصّ عليه أخبارها. كما اعتمد في تأليفه لكتابه على مشاهداته أثناء

تواجده بالحبشة وعلى ما سمعه من أشخاص موثوقين عنده. وقد استفدت منه في هذه

الدّراسة في الفصلين الأوّل والثّالث، خاصّة الفترة الّتي سبقت ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم.

بالإضافة إلى كتاب *J. Spincer Trimingham* بعنوان *Islam in Ithiopia*، الّذي

تناول فيه تاريخ الحبشة الدّيني والاقتصاديّ والسّياسيّ، وبداية الصّراع الحبشيّ الزّليعيّ مع

بدايات القرن 16م والتّدخل البرتغالي- العثماني في هذا الصّراع. وقد اعتمدت الدّراسة على

هذا المؤلّف في الفصلين الأوّل والثّالث خاصّة فيما تعلّق بثورة الإمام أحمد بن إبراهيم

وماسبقها من أحداث.

4. الرسائل الجامعية

تمكنت من الاطلاع على العديد من الرسائل الجامعية، سواء محلية أو أجنبية التي تناول أصحابها مواضيع مختلفة ذات علاقة بموضوع الدراسة واستفدت منها في جوانب مختلفة من رسالتي، ومن أهم الرسائل التي استفدت منها:

الدراسة التي أنجزها رياض محمد الأسطل بعنوان: الصراع الإسلامي البرتغالي وأثره في حركة التجارة الدولية (1500-1730م/906-1143هـ)، التي تمت مناقشتها عام 1991 بجامعة السند بباكستان، تناولت هذه الدراسة الصراع الإسلامي البرتغالي في شرق إفريقيا والخليج العربي والممالك الإسلامية بالهند خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وقد أفادت الموضوع قيد الدراسة في أنها أمدته بمعلومات حول سيطرة البرتغاليين على البحار الشرقية واحتكارهم للتجارة العالمية وانعكاسات ذلك على العالم الإسلامي خاصة في الفصلين الأول والثاني.

والدراسة الثانية التي وظفتها في دراستي هذه هي لأحمد بن خيرة بعنوان: الصراع الإسلامي الزييعي والمسيحي الحبشي، من قيام الأسرة السليمانية إلى التدخل البرتغالي، خلفياته، تجلياته، وأبعاده (966-669هـ/1270-1559م)، التي نوقشت عام 2018 بجامعة الجزائر2، تناولت الرسالة الصراع بين الممالك الإسلامية في بلاد الحبشة والمعروفة بممالك الزييع منذ العصور الوسطى وحتى بداية القرن 10هـ/16م، وقد استفدت منها فيما تعلق بجذور الصراع الإسلامي المسيحي هناك وطبيعته، وتحول المنطقة إلى حلبة للصراع بين القوى العالمية آنذاك (البرتغال والدولة العثمانية).

والدراسة الثالثة هي لفاطمة عبد الوهاب عبد الله عبد الصمد، الأثر الحضاري للإمارات الإسلامية في كينيا ودورها في حركة الجهاد الإسلامي ضد البرتغاليين (911-1143هـ/1505-1730م)، التي تمت مناقشتها بجامعة إفريقيا العالمية بالخرطوم بالسودان عام 2019، تناولت فيه أهم الهجرات العربية لشرق إفريقيا وأهم الدويلات

الإسلامية التي تمّ إنشاؤها هناك، وأوضاعها عند وصول البرتغاليين إليها في مستهلّ القرن 10هـ/16م، وقد وظّفتها في الفصلين الأوّل والثاني خاصّة ما تعلق بالوضع السياسيّ العامّ لشرق إفريقيا عند وصول البرتغاليين والحملات البرتغالية لغزو المنطقة.

كما استعان الباحث ببعض الرّسائل الجامعية باللّغات الأجنبية كان من أهمّها، رسالة دكتوراه دولة من جامعة بوردو بفرنسا لعام 2014 لصاحبها: *Stéphanie de jesus* بعنوان: *L'image de l'orient dans les récits des voyages portugais au 16^e siècle*. تناول صاحبها ظروف وصول البرتغاليين إلى البحار الشّرقية وبالضّبط إلى الهند، معتمداً على ما كتبه البرتغاليون، وقد أفادت هذه الأطروحة الدّراسة في الفصلين الأوّل والثاني. والدّراسة الثانية عبارة عن مذكرة ماستر لصاحبها *Mehmet Kuru* الموسومة بـ:

Relations between ottoman corsairs and the imperiale navy in the 16th century وهي عبارة عن مذكرة ماستر من جامعة صابانجي بتركيا عام 2009، حاول صاحبها دراسة كيفة تجنيد الدّولة العثمانية للقراصنة (corsaires) في أساطيل وكيفية استفادتها من خبراتهم في البحار الشّرقية، وقد أفادتي هذه الدّراسة خاصّة في الفصل الرابع.

5. المقالات

اعتمدت الدّراسة على العديد من المقالات العلميّة تخصّ الموضوع في الصّميم أو بعض الجوانب منه وبلغات مختلفة (العربية والفرنسية والإنجليزية والتركية) ومن أهمّها بالعربية مقالة لحسن صالح شهاب بعنوان "البحرية العثمانية ومهمّة التّصديّ للمخطّط البرتغاليّ في البحر الأحمر والخليج العربيّ"، وهو عبارة عن بحث من مجموع البحوث التي تمّ نشرها خلال ندوة رأس الخيمة التّاريخية الثانية (10-12 ربيع الثّاني 1409هـ/ 19-21 نوفمبر 1988)، بالإمارات العربيّة المتّحدة عام 2002، وقد تناول موضوع تصديّ البحريّة العثمانية للبرتغاليين في البحر الأحمر منذ سقوط دولة المماليك حتّى إلى حملة علي بك على شرق إفريقيا عام 1581م. وقد أفادت هذه الدّراسة الباحث خاصّة في الفصل الرابع وهذا بتتبّع مختلف الحملات التي أرسلتها الدّولة العثمانية من

أمرالية السّويس إلى الهند ونتائجها والتّهديدات البرتغالية للسّواحل الإسلامية في بلاد الهند والخليج العربيّ واليمن وشرق إفريقيا.

أما الأجنبيةّ منها فكان من أهمها مقال باللغة الفرنسيّة لـ: Robert ferry بعنوان:

Quelques hypothèses sur les origines des conquêtes musulmanes en Abyssinie au 16^e siècle, in: cahier d'études Africaines, n°25, vol2, 196, pp24-36.

تتبع صاحبه الصّراع بين القوى الإسلاميّة في الحبشة والمسلمين منذ القرن 15م وحتى القرن 16م وخاصة ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم، لكنّه يتناوله بنظرة استشراقية وهذا بترديده لعبارات تدلّ على ذلك كعبارة (le fanatisme musulman). لكنّه رغم ذلك أفاد الدّراسة في كيفية تعرّضه للصّراع الإسلاميّ الزيلعيّ في الحبشة بنظرة استشراقية معادية للإسلام والمسلمين، وهذا خاصّة في الفصل الثالث.

ومقالة أخرى لـ: Pascuale jean- paul. Baque Grammont et kroell موسومة بـ:

Mamlouks ottoman et portugais en mer rouge, l'affaire de Djedda en 1517. in: Revue du monde musulman et de la méditerranée 1990, n°55-56.

تناول المؤلّف في هذه الدّراسة موضوع العلاقات المملوكيّة البرتغاليّة والمملوكيّة العثمانيّة، ثمّ الصّراع بين العثمانيّين والمماليك. وقد أفادتني الدّراسة في الفصلين الأوّل والرّابع، وذلك بتتبع مراحل الصّراع بين المماليك والبرتغاليّين وبين المماليك والعثمانيّين ثمّ بين العثمانيّين والبرتغاليّين.

4. المراجع العربيّة والمُعربة

أ. المراجع العربيّة

من أهمّ المراجع العربيّة التي اعتمدتُ عليها كتاب وثائق ودراسات عن الغزو البرتغاليّ ونتائجها، لمؤلفه أحمد بوشرب الذي يُعتبر من أهمّ المؤرّخين المغاربة والعرب الذين اهتمّوا بالتّوسّع البرتغاليّ في المغرب الأقصى وشرق إفريقيا، وهذا اعتماداً على الوثائق البرتغاليّة وبالخصوص وثائق محاكم التّفتيش، ولو أنّ تركيزه كان على المملكة

المغربيّة أكثر من شرق إفريقيا. وقد أفادني هذا المؤلّف خاصّة في الفصل الأوّل والثاني من الدّراسة خاصّة الغزو البرتغاليّ لسواحل شرق إفريقيا وما ترتّب عليه.

بالإضافة إلى كتاب فالح حنظل بعنوان: العرب والبرتغال في التاريخ (93-1134هـ/711م-1720م) والذي اعتمد فيه على وثائق ومصادر برتغاليّة مترجمة إلى الإنجليزيّة. وقد تناول من خلال الصّراع بين البرتغاليّين والعرب، منذ تواجدهم بشبه الجزيرة الأيبيريّة أي منذ القرن 13م حتّى تأسيس دولة البرتغال ومطاردتها للعرب في سواحل المغرب الأقصى، وصولاً إلى حركة الكشوفات الجغرافيّة ووصول البرتغاليّين إلى سواحل شرق إفريقيا والحبشة والهند وموقف المماليك ثمّ العثمانيّين من ذلك، والصّراع بين القوى الإسلاميّة والبرتغال حتّى سقوط دولة البرتغال. وقد أفاد الدّراسة في مختلف مراحلها.

ب. المراجع المغربيّة

من أهمّها كتاب جانكارلو كازالي بعنوان رياس البحر الهنديّ - عصر الاستكشاف العثمانيّ-، ترجمة مصطفى قاسم. يقدّم هذا الكتاب صورة لامتداد العالميّ للدولة العثمانيّة خلال القرن 16م. وتتميّز الدّراسة بقدر كبير من الموضوعيّة. حيث أنّ المؤلّف أبرز الدور الذي أصبحت تؤدّيه الدولة العثمانيّة على الصّعيد العالميّ وتأثيرها في صناعة الأحداث. كما أبرز مدى تفوّق العثمانيّين على القوى الأوروبيّة ومنها التّفوّق على البرتغال في البحار الشّرقية. وقد أفاد هذا المؤلّف الدّراسة في كلّ مراحلها خاصّة في فصلها الرّابع التي تناولت الصّراع البحريّ البرتغاليّ العثمانيّ وخلفيّاته ونتائجها.

استفدت أيضاً من كتاب يلماز أوزوتونا الموسوم ب: تاريخ الدولة العثمانيّة، الذي ترجمه عدنان محمود سلمان. يُعتبر الكتاب من أهمّ الدّراسات التركيّة المعاصرة التي تعطي شرحاً شاملاً لتاريخ الدولة العثمانيّة. وفيما يخص موضوع الدّراسة فقد استفدت منه في الفصلين الثّالث والرّابع خاصّة قضية الصّراع الحبشيّ الزّيليّ وتأسيس إيالة الحبش والحمالات البحريّة العثمانيّة على الهند واليمن.

5. المراجع الأجنبية

من أهم المراجع الأجنبية التي اعتمدها الباحث في إنجاز هذه الأطروحة، كتاب ل: *History of the Ottoman empire and modern Turkey* بعنوان: Shaw Stand ford الذي استعنت به خاصة في الفصل الأول، فيما تعلق بعلاقات الدولة العثمانية الخارجية مع المماليك ومع الصفويين، ورغم أنه يتناول تاريخ تاريخ الدولة العثمانية من نهاية القرن 13م حتى بدايات القرن 19م نجده يتميز ببراء معلوماته وبدقتها. كما يُعتبر كتاب *Asia and western dominance* لمؤلفه k.m panikkar من أهم المراجع الأجنبية التي استعان بها الباحث في إنجاز أطروحته، والذي تناول التواجد البرتغالي في الممالك الإسلامية في الهند وفي سواحل المحيط الهندي، وقد استعنت به خاصة في الفصلين الأول والثاني.

الصعوبات

كان من أهم الصعوبات التي واجهتني أثناء إنجازي لهذا العمل صعوبة الوصول إلى بعض المصادر الهامة الأخرى المتعلقة بالموضوع على اعتبار أن معظمها المتواجدة بمكتبات خارج الوطن. وبما أنه لم يتسن لي ذلك، لم أتمكن من الاطلاع على روايات مختلفة للأحداث التاريخية، فقد كان بؤدي الانتقال إلى معهد العوالم الإفريقية بباريس Institut des (IMAF) Mondes Africaines، أو إلى بعض مراكز البحوث الخاصة بالتاريخ العثماني بإفريقيا باسطنبول للإطلاع أكثر على مراسلات سلاطين الدولة العثمانية مع حكام وزعماء منطقة شرق إفريقيا، وحتى فرامانات أصدرتها الدولة العثمانية تخص المنطقة قيد الدراسة.

كما وجدت صعوبة في التعامل مع بعض المصادر التاريخية المكتوبة باللغة البرتغالية وأخرى مكتوبة باللغة العثمانية القديمة.

المقدمة

إلا أنّ هذه الصّعوبات لم تُثبّط من عزيمة الباحث فبفضل الله تعالى أولاً والأستاذ المشرف ثانياً، وبالسّعي والمثابرة توصّلت إلى إنجاز العمل بهذه الصّيغة المقدّمة إليكم، وأرجو أن يكون دراسة مفيدة ومُهمّدة لدراسات أخرى في هذا المجال، فإن وُفّقنا فهذا من المولى عزّ وجلّ وإن أخفقنا فحسبنا أنّنا بذلنا ما في استطاعتنا، والله الموفّق للجميع.

التوصيات

بما أنّ الصّراع البرتغاليّ العثمانيّ خلال الفترة المدروسة اقتصر على الحبشة والقرن الإفريقيّ، ولم يمتدّ إلى جنوب القرن الإفريقيّ إلا بعد ثمانينيّات القرن 16م، اقتصر البحث على المناطق المذكورة دون سواها. وقد بدا لي أن أتوقّف عندهذه المرحلة وكُلّي أمل في أن أكون قد فسحت المجال للباحثين لتغطية الفترات اللاحقة من تاريخ المنطقة خاصّة دور العُثمانيّين في تحرير شرق إفريقيا من البرتغاليّين.

كما أنّ الموضوع قيد الدّراسة يحتاج لدراسة أعمق وهذا بالرجوع والاعتماد أكثر على الوثائق والمصادر المحليّة التي لم تسعفنا الظروف بالاطّلاع عليها، لأنّ في معظمها مؤلّفات غير منشورة لهذا نتمنّى للباحثين الذين يودّون الاشتغال على الموضوع أن يتّخذوها كمُنطلق لأبحاثهم ودراساتهم.

ويعتبر الموضوع كذلك مجال تتجاذبه مختلف المدارس التاريخية، خاصة الغربية منها، لهذا على الباحثين والدّارسين الاهتمام بتاريخ منطقة شرق إفريقيا باعتبارها جزء مهمّ من العالم الإسلاميّ، حاول الإستعمار الأوروبيّ طيلة عدّة قرون اجتثاثها من إطارها العربيّ الإسلاميّ، وهذا بجمع المخطوطات المكتوبة باللّغات المحليّة - التي تُعتبر مزيجاً من اللّغات الإفريقيّة المحليّة والعربيّة، والتي تمثّل جزءاً هاماً من التّراث العربيّ الإسلاميّ، ثم ترجمتها إلى اللّغة العربيّة وتوظيفها في إعادة دراسة تاريخ المنطقة.

الفصل الأول

نظرة عامة عن أوضاع المشرق الإسلامي في بدايات القرن 10هـ/16م

المبحث الأول: أوضاع دولة المماليك عند وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي

المبحث الثاني: أوضاع الدولة العثمانية في مطلع القرن 16

المبحث الثالث: نظرة عامة على الأوضاع في شرق إفريقيا عند وصول البرتغاليين

المبحث الرابع: أهم القوى الإسلامية المحلية في جنوب شبه الجزيرة العربية

تمهيد

تعتبر فترة نهاية القرن 9هـ/15م وبداية القرن 10هـ/16م بداية التحوّلات الجذريّة في العلاقات بين الغرب الأوروبيّ المسيحيّ والشرق الإسلاميّ، ففي الوقت الذي بدأت ترسم فيه ملامح النهضة والتطوّر في أوروبا من خلال النهضة الأوروبيّة الحديثة وحركة الكشوفات الجغرافيّة، كان العالم الإسلاميّ يتّجه نحو التّقهقر والانحيار وبالتالي الاندثار لولا ظهور الدّولة العثمانيّة التي استطاعت أن تبعث فيه الرّوح من جديد. وكان من أهمّ معالم هذه التّحوّلات أن تمكّن العثمانيّون في عام 1453م من فتح القسطنطينيّة وتحويلها إلى عاصمة لدولتهم وبالتالي أصبح لهم موضع قدم في شرق أوروبا، أمّا في غربها فقد تحالفت مملكتا آرغون وقشتالة المسيحيّتان وتمكّنتا من طرد المسلمين نهائيّاً من الأندلس بعد سقوط غرناطة في عام 1492م كأخر معقل لهم هناك.

وعلى إثر ذلك بدأت تحرّشات البرتغاليّين ومن بعدهم الإسبان على السّواحل الإسلاميّة، على المغرب العربيّ أولاً من قبل الإسبان، ثمّ على سواحل غرب إفريقيا من قبل البرتغاليّين التي كانت تحت غطاء الكشوفات الجغرافيّة كما أسلفنا الذّكر. وبعد وصولهم إلى رأس الرّجاء الصّالح واصل البرتغاليّون نشاطهم الاستكشافيّ في سواحل شرق إفريقيا المطلة على المحيط الهنديّ حيث كانت هناك إمارات إسلاميّة عامرة، بشهادة البرتغاليّين أنفسهم. وسرعان ما تحوّلت عمليّات الاكتشافات إلى عمليّات غزو ونهب تحت غطاء نشر المسيحيّة، قادها مغامرون برتغاليّون دمّروا كلّ معالم الحضارة العربيّة الإسلاميّة هناك.

المبحث الأول

أوضاع دولة المماليك في مصر مع مطلع القرن 10هـ/16م

في مُستهلّ القرن 10هـ/16م ومع وصول أولى طلائع الأساطيل البرتغاليّة إلى شرق إفريقيا والبحر الأحمر¹، كانت هناك ثلاث قوى إسلاميّة في المشرق الإسلاميّ بإمكانها التّصديّ لها هي: الدولة العثمانيّة والدّولة الصّفويّة ودولة المماليك، التي كانت هي المعنيّة الأولى بهذه المُهمّة، لكون كلّ من سواحل البحر الأحمر وسواحل شرق إفريقيا الإسلاميّة وجنوب الجزيرة العربيّة كانت داخلة ضمن مناطق نفوذها، فضلاً عن الأضرار البالغة التي أصابت اقتصادها. وسنحاول من خلال هذا المبحث تسليط الضّوء على الأوضاع الدّاخلية والإقليميّة التي كانت تعيشها دولة المماليك خلال هذه الفترة.

1. الأوضاع الدّاخلية

عند تناولنا بالدراسة لأوضاع مصر الدّاخلية في أواخر دولة المماليك، نبدأ برأس هرم السّلطة وهو السّلطان، إذ غلب على سلاطين مصر في هذه المرحلة جهلهم بمدخلات السّياسة ومخرجاتها وبالتّطوّرات السّياسية والاقتصادية التي كان يشهدها العالم آنذاك، كما كانوا قليلي الخبرة بالميدان العسكريّ، إضافة إلى من كان منهم ذا مستوى تعليميّ محدود، وكان شغلهم الشّاغل جمع المزيد من الأموال واللّهو والتّرف، والظّهور في

¹ بالرّغم من أنّ المصادر العربيّة التي تَوخّ لأحداث القرن الخامس عشر وما قبلها تطلق عليه اسم بحر القلزم، وقد سمّاه القائد العثمانيّ سلمان رايس طور دكيز أي بحر الطّور، وشاعت تسمية البحر الأحمر خلال القرن 16، وأوّل من أطلق عليه هذا الاسم القائد البرتغاليّ ألفنسو البوكيرك حينما لاحظ مرور تيّارات بحريّة ضخمة ذات لون أحمر تخرج عند المضيق إلى خليج عدن. انظر: محمّد حميد السّلمان، الغزو البرتغاليّ للجنوب العربيّ في الفترة الممتدّة بين 1507 و1535، مركز زايد للثّراث والتّاريخ، العين، الإمارات العربيّة المتّحدة 1420هـ/2000م، ص249؛ روجيه جوانيت داجنت، تاريخ البحر الأحمر من موسى عليه السّلام حتى بونابارت، تر: حسن نصر الدّين، الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميريّة، القاهرة 2013، ص242

المناسبات الرسمية والأعياد بمظاهر الهيبة والعظمة¹.

هذا ما ساعد على ظهور حالة من عدم الاستقرار السياسي وإلى ظهور أجنحة سياسية متصارعة فيما بينها، والتي أدت بدورها إلى كثرة الثورات ضد السلاطين². وليس أدلّ على ذلك من أن تداول أربعة سلاطين على عرش السلطة في ظرف أربع سنوات (من 903هـ إلى 907هـ/1498 إلى 1501م)، أي: منذ وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي حتى تولّى السلطان قانصوه الغوري³ العرش، الأمر الذي أدى بالمماليك إلى تركيز معظم مجهوداتهم على إخماد هذه الفتن⁴.

هذه الظروف سمحت بانتشار الفساد بشكل كبير في دوايب السلطة، فقد عمّت الرشوة في مؤسسات الدولة، وأصبحت ظاهرة شراء المناصب من الأمور العادية، حتى إن السلطان نفسه كان لا يقبل بالتعيين في المناصب العليا إلا بعد تلقيه لهدايا ثمينة⁵.

وتشير بعض المصادر التاريخية أنه رغم الأعباء الثقيلة التي كانت تعانيها الرعية من جرّاء المظالم الاجتماعية وثقل الضرائب استمرّ المماليك - سلاطين وأمراء وجندًا - في بذخهم وإسرافهم، هذا ما أدى بالرعية في مصر والشام إلى النفور منهم⁶.

¹ أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ج 7، ص 813، 841

² نفسه، ج 14، ص 235

³ قانصوه الغوري: هو الأشرف أبو النصر الغوري (850هـ-922هـ/1446م-1516م) آخر سلاطين المماليك. تولّى الحكم سنة 906هـ/1500م، قُتل في معركة مرج دابق شمالي حلب، عام 1516، والتي كان من أبرز نتائجها القضاء على دولة المماليك. انظر: عبد العزيز محمود عبد الدايم، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة 1996م، ص 164-178

⁴ ابن تغري بردي، ج 3، ص 332، 463

⁵ سيّد محمد سيّد، مصر في العصر العثماني في ق 16م، مكتبة مدبولي، القاهرة 1418هـ/1997م، ص 37-38

⁶ للمزيد انظر: محمد بن أحمد ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تح: مصطفى محمد، الهيئة المصرية للكتاب، ط 3، القاهرة 1404هـ/1984م، ج 3، ص 252، 329، 331، 400، 474

ومما زاد الأمور سوءاً عبث المماليك الجلبان¹ واعتداءاتهم المتكررة على الرعية ونهب أموالهم وممتلكاتهم، فلم يسلم منهم حتى الأمراء بل حتى السلطان نفسه، وقد لوحظ أنه على مدى السنوات الخمسين الأخيرة من عمر دولة المماليك، لم تمر سنة واحدة دون حدوث ثورة تسبب فيها هؤلاء².

كما عرفت البلاد انعدام الأمن في المناطق البعيدة، خاصة في أقاصي جنوب البلاد بالصعيد، وهذا جزاء اعتداءات قطاع الطرق من العربان، وعجز الدولة عن مواجهتهم مما أثر سلباً على الإنتاج الفلاحي وعلى النشاط التجاري³.

بالإضافة إلى كل هذا تأثرت البلاد بالكوارث الطبيعية والأوبئة، إذ يذكر ابن إياس أن الطاعون الذي حل بمصر عام 897هـ/1491م خلف ما يقارب مائتي ألف قتيل⁴

2. العلاقات الخارجية للدولة المملوكية

بحكم موقع مصر الهام إقليمياً وعالمياً، ودورها الاقتصادي الهام المتمثل في وساطتها التجارية بين الهند وأوروبا، كان للمماليك علاقات مع العديد من الدول، الإسلامية والأوروبية ومن أهمها:

أ. العلاقات المملوكية البرتغالية

بعد اجتياز البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح عام 903هـ/1498م ووصولهم إلى كالكوت⁵ على ساحل الميلبار بالهند، لم يُبدوا أية سياسة عدوانية اتجاه القوى المحلية في

¹ المماليك الجلبان: يُسمون كذلك الأجلاب وهم من المماليك الذين اشتراهم السلاطين المماليك كباراً وتجاوزوا سن البلوغ، وبالتالي كان يصعب تعليمهم آداب السلوك لذلك فقدوا روح الانضباط والطاعة ومالوا إلى العصيان والتمرّد، رغم هذا كانوا من المقرّبين إلى السلاطين على حساب المماليك الآخرين، مما سبّب المنافسة بينهم وبين بقية المماليك. للمزيد انظر: فاروق عثمان أباضة، أثر تحوّل التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، دار المعارف، القاهرة، د خ ش، ص 49-50

² ابن إياس، ج 3، ص 69

³ نفسه، ج 3، ص 252، 400، 474

⁴ لكن يبدو لي أنّ هذا العدد مُبالغ فيه بالنظر إلى عدد سكان مصر في تلك الحقبة، رغم هذا يعطي لنا انطباعاً أنّ هذا الوباء خلف أعداداً هائلة من الضحايا. انظر: نفسه، ص 286-287

⁵ كالكوت: هي مدينة تقع جنوب الهند على ساحل الميلبار وعاصمتها، وتعتبر من أهم الموانئ الهندية التي ارتبطت =

المنطقة أو ضدّ الممالك، بل على العكس انتهجوا أسلوب المسالمة، واقتصر نشاطهم على إنشاء المراكز التجاريّة هناك، ولم يتعرّضوا أبداً للسفن الإسلاميّة، كما أنّهم لم يُظهروا أطماعهم التوسعيّة، وحاولوا أن يتظاهروا أنّهم مسالمون وأنّهم جاؤوا للتجارة فقط، لأنّه كانت لديهم تعليمات صارمة من سلطات بلادهم تُلزمهم بذلك، وهذا حتّى يتمكّنوا من تثبيت وجودهم هناك، هذا ما ساعدهم على إخفاء نواياهم الحقيقيّة وفي زيادة عدد سفنهم الحربيّة لتثبيت وجودهم بالمنطقة، من جهة أخرى كان الممالك في مصر منشغلين بمشاكلهم الداخليّة، ولم يَكونوا على علم بما اقترفه البرتغاليّون من جرائم في السواحل الغربيّة لإفريقيا، ولا حتّى عن كيفيّة اجتيازهم لرأس الرّجاء الصّالح، وهذا في نظري ما أّخر المواجهات بين الدّولتين¹.

استغلّ البرتغاليّون ذلك وتوغّلوا أكثر في المحيط الهنديّ واستولوا على معظم المراسي التّابعة للإمارات والممالك الإسلاميّة في الهند، هذا ما مكّنهم من السيطرة على خطوط المِلاحة البحريّة في المحيط الهنديّ، الأمر الذي ألحق أضراراً بالغة بالممالك وبالتّجارة عبر البحر الأبيض المتوسّط².

لهذا بدأ سلاطين الهند بمراسلة السّلطان الغوريّ منذ عام 906هـ/1501م من أجل التّدخّل ونُصرتهم على البرتغاليّين وإنقاذ التّجارة الهنديّة من أيديهم، وعليه حاول هذا

=علاقات تجاريّة مع جنوب شبه الجزيرة العربيّة وشرق إفريقيا. يُطلق على حاكمها السّاميّ أو الزّامورين. انظر: أحمد زين الدّين الميلياريّ، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليّين، تح: محمّد سعيد الطّريحيّ، مؤسّسة الوفاء بيروت 1405هـ/1985م، ص160؛ عبد المنعم النّمر، تاريخ الإسلام في الهند، المؤسّسة الجامعيّة للنّشر والتّوزيع، بيروت، 1401هـ/1981م، ص 42؛ نبيل عبد الحيّ رضوان، جهود العثمانيّين في الحدّ من التّهديد البرتغاليّ للنّشاط التجاريّ في الخليج العربيّ من خلال الوثائق العثمانيّة (1538-1559)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة أمّ القرى بمكة المكرمة، د. ت. ش، ص24

¹ محمّد غسان عليّ الرّمال، صراع المسلمين مع البرتغاليّين في البحر الأحمر خلال القرن 16م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كليّة الشّريعة والدراسات الإسلاميّة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة 1400-1401هـ/1980-1981م، ص112؛ سونيا هاو، في طلب التّوابل، تر: محمّد عزيز رفعت، مراجعة محمود النّحاس، القاهرة 1957، ص202-203

² المشهدانيّ، ص 32

الأخير الضَّغط على البابا بيوس الثاني في روما وعلى الملوك المسيحيين في أوروبا - أنهم لم يتوقفوا عن اعتداءاتهم على المسلمين، فسوف يلجؤون إلى اضطهاد المسيحيين المقيمين على الأراضي المملوكية تجَّاراً كانوا أم دبلوماسيين، ما لم يتوقف البرتغاليون عن اعتداءاتهم على المسلمين في البحار الشرقية، كما سيلجأ إلى غلق كنيسة القيامة بفلسطين - لكن هذه التهديدات لم تُجدِ نفعاً واستمرَّ البرتغاليون في اعتداءاتهم، لهذا قرَّر السلطان المصري التَّوجَّه نحو الخيار العسكري، مستعيناً في ذلك بملوك الهند ليكونوا سنداً له في محاربتهم¹.

استغلَّ البرتغاليون الظروف الصَّعبة التي كانت تمرُّ بها دولة المماليك وضيَّقوا الخناق على تجارتهم في المحيط الهندي، وهذا بسعيهم لإغلاق البحر الأحمر في وجه السفن التجارية الإسلامية، فتحوَّلت بذلك الطُّرق التجارية العالمية من البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط إلى رأس الرِّجاء الصَّالح والمحيط الأطلسي، وأمام غياب أية قوَّة إسلامية بحرية رادعة تَمَادَى البرتغاليون في أعمال القرصنة على السفن التجارية الإسلامية في المحيط الهندي، وبذلك فقدت مصر دورها الاقتصادي كوسيط تجاري يتحكَّم في التجارة في الشَّرق²، وفقدت معه مصدر قوَّتها وراثتها، الأمر الذي ساهم في فقدانها لدورها المؤثِّر في التجارة العالمية³، وبهذا انهار الاقتصاد المصري بشكلٍ كبير⁴.

¹ عبد الذام، ص 166

² كانت مصر قبل وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي، بمثابة منطقة عبور للتجارة بين الشرق والغرب (ترانزيت)، وكان تجَّارها من الكرامية يجنون أرباحاً طائلة من هذه العملية. للمزيد انظر: حسام عبد المعطي، "الكارمية في مصر خلال العهد العثماني (1040-913هـ/1517-1630م)"، مجلة أسطور، ع:2، جويلية 2011، ص 88-118، ص 98؛ وانظر أيضاً: Diffie Bailey and Wlniusgeorge, *The formation of the portugûs colonial: empire*, London 1920, p115

³ السَّلمان، ص 286

⁴ محمَّد عبد العال أحمد، أضواء جديدة على ملامح فاسكو دي جاما، مجلة الدِّراسات الإفريقية، ع:5، معهد البحوث والدِّراسات الإفريقية القاهرة 1976، ص 159؛ آمال إبراهيم محمَّد، الصراع الدولي حول البحر الأحمر في النِّصف الثاني من القرن التاسع عشر، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993م، ص 32؛ أباضة، ص 48

بعد فشل المماليك في مواجهة هذه التحديات بالطرق الدبلوماسية، شرعوا في الاستعداد عسكرياً، بمساعدة البندقية التي قدّمت لهم مساعدات تتمثّل في كمّيات من الأخشاب وبعض الفنّيين لبناء أسطول قويّ، كما اقترحت عليهم شقّ قناة تربط بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر¹. لكنها خشيت من أن يكون موقفها هذا معادياً للمسيحيين لهذا تراجعت، خاصّة بعدما أصدرت البابوية قرار الحرمان في حقّ مصر².

كما تلقوا دعماً كبيراً من العثمانيين ومن الممالك الإسلامية في الهند، التي تضرّرت بدورها كثيراً من وصول البرتغاليين إلى المحيط الهندي³. فقد حاول العثمانيون مساعدتهم لكنهم وجدوا صعوبة في كيفة توصيل الإمدادات لها، وهذا بسبب تهديدات القراصنة الأوروبيين ونخصّ بالذكر فرسان القديس يوحنا بجزيرة رودس، ولعدم وجود منفذ بحريّ يصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر⁴.

وهكذا عجز المماليك عن مواجهة البرتغاليين الذين وصلوا إلى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وسواحل البحر الأحمر وأصبحوا يهدّدون التجارة به بل ويهدّدون باحتلال الحرمين الشريفين⁵، كما عجزوا من قبل عن نجدة الأندلسيين حتّى سقط آخر معقل للمسلمين بالأندلس عام 897هـ/1492م⁶، وعن تلبية استغاثة مسلمي الهند في إمارة

¹ عثمان صالح سبي، الصراع في حوض البحر الأحمر عبر التاريخ، دار الفجر الجديد للطباعة والنشر، د ت ش، اريتريا ص22؛ السلمان، ص67

² أحمد درّاج، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، دار الفكر العربي، القاهرة 1961م، ص 134

³ السلمان، ص 64-67

⁴ يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمد الأنصاري، ج1، مؤسسة فيصل للتّمول، إسطنبول 1988، ص325

⁵ مع بداية القرن 16م كانت المنطقة الممتدة من عمان وباب المندب بما فيها عدن تحت سيطرة شيوخ قبائل محليّين. انظر: Diffie Bailey, op.cit., p16

⁶ عندما زحف الإسبان لاحتلال غرناطة، طلب سكّانها المساعدة من السّطان المملوكي قاتباي، لكنّ موقفه كان سلبياً وسقطت بذلك غرناطة عام 1492. للمزيد انظر: محمد درّاج، الدّخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512م-1543م)، شركة الأصالة للنّشر والتّوزيع 1433هـ/2012م، ص54؛ أحمد درّاج، ص 110-113

كوجرات¹، وحُكَّام السَّواحل الجنوبيَّة لشبه الجزيرة العربيَّة ونخَصَّ بالذكر حُكَّام اليمن من تهديدات البرتغاليِّين، ومسلمي الحبشة من تحرَّشات مملكة الحبشة المسيحيَّة².

وبالنَّظر إلى الأوضاع الإقليمِيَّة المُحيطة بدولة الممالك نجد أنَّ البرتغاليِّين المتواجدين في المحيط الهندي قد أقاموا عدَّة قواعد بحريَّة منذ 907هـ/1502م، وهذا قصد ملاحقة الأسطول المملوكي وإيقاف التَّجارة الهنديَّة مع مصر وبلاد الشَّام³.

ومع ازدياد خطر البرتغاليِّين في المحيط الهنديِّ حاول الممالك التَّصدِّي لهم، مستعينين في ذلك بالممالك الإسلاميَّة في الهند كما أسلفنا الذِّكر، وجَهَّزوا لذلك في عام 911هـ/1505م أسطولاً بحريّاً كبيراً أسندت قيادته لحسن الكردي⁴، وهذا بعد اتِّفاقهم مع كلِّ من سلطان كجرات "السلطان محمود" وسلطان كاليكوت "السَّامري"، للتَّعاون القضاء على الوجود البرتغاليِّ في البحار الشَّرقيَّة وتدمير قاعدتهم في ديو⁵.

¹ كوجرات: مملكة إسلاميَّة تأسَّست غرب الهند، تمتلك العديد من الموانئ من أهمَّها ديو الذي كان محلَّ صراع بين العرب والبرتغاليِّين. سقطت على أيدي المغول عام 965هـ/1572م. انظر: قطب الدِّين بن أحمد النَّهروالي، البرق اليمني في الفتح العثماني (990-917هـ)، تج: محمَّد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنَّشر 1387هـ/1967م، ص11

² كانت اليمن عند وصول البرتغاليِّين تحت حكم الطَّاهريِّين، الذين أنهكتهم الصِّراعات الداخليَّة بحيث عجزوا عن تأسيس دولة مركزيَّة وبالتالي عجزوا عن التَّصدِّي للتهديدات البرتغاليَّة. انظر: ابن إياس، ج3، ص111، 82؛ عبَّاس حمداني، ردَّ العثمانيِّين على اكتشاف أمريكا والطَّريق الجديد إلى الهند، تر: عبد الرَّحمن كيلاني، مجلَّة الجمعيَّة الاستشراقيَّة الأمريكيَّة، 1981، مج:3، ص4؛ السَّلمان، ص68؛ حسن أحمد محمود: التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب، المؤرَّخ العربي، ع: 12، مطبعة الإرشاد، بغداد 198، ص212-230

³Diffie, op.cit., P14

⁴حسن الكردي: هو من قادة الأسطول المصريِّ في عهد السلطان المملوكي قانصوه الغوري، أرسله هذا الأخير على رأس حملة بحريَّة إلى اليمن واتَّخذ من مدينة جدَّة قاعدة له، ثمَّ توجَّه إلى الهند لمواجهة البرتغاليِّين هناك. وبعد سقوط دولة الممالك في 1517م وبأمر من السلطان العثمانيِّ سليم الأوَّل تمَّ إعدامه من طرف شريف مكَّة. انظر: أمين زكي، مشاهير الكرد وكردستان، ترجمة كريمته، مطبعة النقيض الأهليَّة، بغداد 1364هـ/1945م، ج1، ص183

⁵ للمزيد انظر: ابن إياس، ص166-167؛ النَّهرواني، ص19؛ إينالجيك، ص461-462. وانظر أيضاً:

Shaw Stand ford, *History of the Ottoman empire and Turkey modern*, vol1(1280- 1808), Cambridge University, reprinted and band bound by Vaile- Ballou, Press Inc, Binghamton, New York, press 1976, pp 98,100

بعد وصول الأسطول إلى مدينة جدّة، أقام المماليك حولها تحصينات منيعة لحمايتها، ثمّ توجه الأسطول إلى جزيرة سواكن التي استولى عليها المماليك، ثمّ توجه صوب الهند مروراً بعدن¹ وعند وصوله إلى هناك، استقبله أميرها مرجان الظافريّ الذي أكرم البحّارة وزوّدهم بما يحتاجونه من مؤونة ومياه لمواصلة إبحارهم، وفي هذا يقول ابن بديع في كتابه قرّة العيون:

«... وصل الأمير حسين المصريّ من جدّة إلى الجهات

اليمنية، ولم يعلم أحد مقصوده حين مرّ بباب المنذب فلما

اقترب من عدن قصدوا واليها مرجان الظافريّ، واستأذنه

في الدّخول إليها والتزوّد بما يحتاجون من الماء والحطب

ثمّ توجه مع عساكره إلى ديو لقتال الإفرنج...»².

ومع أواخر شهر رجب 913هـ/جانفي 1507م وصل هذا الأسطول إلى سواحل الهند الغربية وألحق بنظيره البرتغاليّ هزيمة ساحقة في معركة تشاول *Chaoul*³.

إلا أنّ المماليك لم يحسنوا استغلال هذا الانتصار وهذا بالقضاء نهائياً على الوجود البرتغاليّ بالمنطقة رغم قدرتهم على ذلك، ممّا أعطى الفرصة للبرتغاليّين كي يتلقوا تعزيزات، مكّنتهم من استجماع قواهم ومباغطة الأسطول المملوكي وهزيمته هزيمة ساحقة على السواحل الغربية للهند في معركة ديو Dieu في 12 شوال 914/ 3 فيفري 1509م⁴.

¹ ياسر عبد الجواد المشهداني، النفوذ البرتغاليّ وأثره على الهند الإسلاميّة (929-904هـ/1498-1514م)، مجلّة التّربية والعلم، ع: 2، جامعة الموصل 2007، مج: 14، ص 25-37

² ابن البديع عبد الرحمن بن عليّ، قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تح وتعر: محمد بن عليّ الأكوع، سلسلة من تراثا، ع: 10، المكتبة الحوالية، صنعاء اليمن 1988، ص 454

³ تمكّن الأسطول المملوكي في هذه المعركة من تدمير معظم قطع الأسطول البرتغاليّ، ومقتل قائده لورانزودا ألميدا ابن نائب ملك البرتغال في الهند فرانسيسكو دا ألميدا. للمزيد انظر: السلمان، ص 71-72

⁴ يرى بعض المؤرخين أنّه من أسباب هزيمة الأسطول المملوكي في هذه المعركة تعود إلى عدم جاهزيته، وإلى قوّة الأسطول البرتغاليّ الذي منع وصول أيّ إمدادات لنظيره المملوكي، وتأمّر حاكم إمارة ديو الإسلاميّة بالهند مع البرتغاليّين. للمزيد انظر: المشهداني، ص 34؛ حسام عبد المعطي، ص 92-93؛ عبد الدّائم، ص 168

كرّست هذه الهزيمة التي تلقّاها الأسطول المملوكي السيطرة البرتغالية على المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج البصرة¹ وفتحت المجال لتحويل الطرق التجارية من البحر الأحمر إلى رأس الرجاء الصالح، وأحكم بذلك البرتغاليون سيطرتهم على تجارة الشرق².

بعد هذه الهزيمة عمل السلطان الغوري على محاولة إعادة بناء الأسطول البحري، مُستعيناً في ذلك بما تلقّاه من مساعدات من نظيره العثمانيّ بايزيد الثاني³، لكن رغم ذلك عجز المماليك عن مواجهة البرتغاليين الذين واصلوا اعتداءاتهم على السواحل الإسلامية، وتمكّنوا بعد 919هـ/1513م من الولوج إلى البحر الأحمر بعد تحالفهم مع مملكة الحبشة⁴.

وتشير بعض الدراسات التاريخية إلى أنّ بعض القوى الأوروبية ومنها البندقية قد تضرّرت كثيراً من احتكار البرتغاليين لتجارة التوابل، لهذا عرضت على المماليك المساعدة⁵، لكنّها لمّا رأت استحالة تصدّي المماليك لنفوذ البرتغال تحالفت مع الصفويين⁶، وعرضت عليهم إعادة إحياء الطريق التجاري العابر الخليج البصرة مروراً ببلاد فارس والعراق ثم عبر بلاد الشام ومنه إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط، لكن بعد

¹ فضّلت استعمال مصطلح خليج البصرة، لأنّ هذه التسمية وردت في المصادر العثمانية خلال القرن 10هـ/16م، لأنّ تسمية الخليج العربيّ أو الخليج الفارسيّ ظهرت حديثاً.

² الميلباري، ص ص 168-169

³ السلطان بايزيد الثاني (886-918هـ/1481-1512م): هو ثامن سلاطين الدولة العثمانية، في عام 1512م أرغمه ابنه الأمير سليم على التنازل له عن العرش. توفّي في 26 ماي 1512م. انظر: عزتلو أضاف، ص ص 53، 55

⁴ أحمد سالم، استراتيجية الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2012م، ص ص 148-149

⁵ صبي، ص 67

⁶ يعود نسب الصفويّون إلى الشّيخ صفّي الدين الأردبيلي (650-735هـ/1252-1334م) الذي كان شيخاً للطريقة الصفوية والتي تحوّلت خلال القرن 15م إلى مذهب شيعي رافضي معادٍ لأهل السنة. وتمكّن حفيده إسماعيل الصفوي في عام 1502 من تأسيس الدولة الصفوية في بلاد فارس وعاصمتها تبريز، واتّخذ من الصفوية مذهباً رسمياً للبلاد وسعى لنشره بالقوة في المناطق التي استولى عليها، وهذا ما أدّى بالسلطان العثمانيّ سليم الأول إلى محاربتة، توفّي في عام 930هـ/1534م. انظر: بديع جمعة، تاريخ الصفويين وحضارتهم، دار الزائد العربي، القاهرة 1976، ص ص 18، 28، 48؛ عبد الحفيظ دحدح، العلاقات العثمانية الصفوية خلال القرن 16م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، 2015،

جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله 2015، ص ص 55، 62

وُصول البرتغاليين الى المنطقة واحتلالهم لأهم المراكز هناك ونخص بالذكر، جزيرة سوقطرى¹ قضى على هذا المشروع².

ومما زاد في إضعاف موقف المماليك ظهور الدولة الصفوية التي أبانت على استعدادها للتّحالف مع البرتغاليين وهذا لتحقيق أهدافها التوسعية والمذهبية في المنطقة³.

فالدّراسات التي تحدّثت عن هذه المرحلة أشارت إلى أنّ الشّاه إسماعيل الصفويّ عرض على البرتغاليين اقتسام دولة المماليك، بحيث يساعد البرتغاليون الصفويين في الإستيلاء على مصر وما جاورها بينما يستولي البرتغاليون على فلسطين⁴. هذا ما أثار مخاوف العثمانيين، الذين اضطروا إلى توقيف نشاطاتهم التوسعية في أوروبا وتركيز جهودهم العسكرية على حماية العالم الإسلامي من الخطر البرتغالي الصفويّ، والبرتغالي الحشّي⁵. خاصّة بعد ورود معلومات تؤكّد اتّصال الصفويين بالبرتغاليين في هرمز واستعدادهم للتّحالف معهم من جديد ضدّ العثمانيين⁶.

وفي هذا الإطار وافق نائب ملك البرتغال على الهند أفونسو دي البوكيرك *Afonso de Albuquerque*⁷ على إمداد الصفويين بما يحتاجونه من أسلحة نارية وغيرها، إذا ما

¹ سوقطرى: هي جزيرة يمنية، تقع عند مدخل خليج عدن في منتصف المسافة بين هرمز باب المندب. كان بها ميناء تتوقّف به السفن التجاريّة المتوجّهة إلى عدن. انظر: شوقي عبد القويّ عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلاميّة (904-41هـ/661-1498م)، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978، ص120

² أحمد درّاج، ص146

³ نفسه، ص128

⁴ تمكّن جواسيس المماليك في عام 916هـ/1505م من اكتشاف الجواسيس صفويين وبحوزتهم رسائل بعث بها إسماعيل الصفويّ للقناصل الأوروبيّون تتضمّن مطالبته من هذه الدّول بمهاجمة الدّولة العثمانيّة ودولة المماليك في مصر بحرّاً بينما يهاجمها هو برّاً. انظر: ابن إياس، ج4، ص205

⁵ الأسطى، ص338

⁶ انظر: الرسالة التي بعث بها حاكم هرمز إلى الملك دون إيماول عام 1511م في الملحق رقم 5، ص231

⁷ أفونسو البوكيرك (1453-1515): هو قائد الأسطول البرتغاليّ في المحيط الهنديّ، ونائب لملك البرتغال في الهند (1509-1515م)، عُرف عنه حقه على المسلمين هناك ويظهر هذا من خلال ما اقترفه من جرائم في حقهم هناك. وخلال فترة تواجده بالهند أقام عدّة قلاع وحصون بالمحيط الهندي، وهذا لتثبيت الوجود البرتغالي هناك. . للمزيد انظر:

الشّيبانيّ الزّبيديّ، ص453؛ حنظل، ص212-213؛ السّلمان، ص144

أرادوا مهاجمة الممالك الإسلامية في الهند أو أي منطقة في خليج البصرة أوحثى مكة المكرمة والمدينة المنورة¹

وفي عام 921هـ/1515م جهّز البرتغاليون حملة لغزو اليمن ومنها غزو جدة والأماكن المقدسة، ثم الوصول إلى السويس وتدمير الأسطول المصري هناك، إلا أن مساعيهم باءت بالفشل بسبب تصدّي المماليك لهم بتوجيه حملة بحرية بقيادة كل من حسن الكردي وسلمان ريس *Selmen reis*²، إذ سبق حسن الكردي بأسطوله البرتغاليين إلى جدة التي قام بتحسينها، ثم توجه إلى الهند، وفي طريقه انتزع اليمن من الطاهريين وترك نائباً له في مدينة زبيد، وعند عودته توقف بجدة، وفي أثناء ذلك بلغه نبأ سقوط دولة المماليك واستيلاء العثمانيين على مصر³.

ب. علاقات المماليك مع مملكة الحبشة

تميّزت العلاقات التي كانت تربط المماليك بسواحل شرق إفريقيا عامة ومملكة الحبشة⁴ خاصة بالتأرجح بين الصداقة تارة والخلاف والعداوة تارة أخرى، فرغم تعصب ملوك الحبشة الديني، كانوا يستمدّون شرعيّتهم سلطتهم الروحية من البلاد الإسلامية، وهذا

¹ انظر: عباس اسماعيل صباغ، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1432هـ/2011م، صص 134، 118

² سلمان ريس: تُسمّيه المصادر اليمنية بسلمان الرومي، وهو من قباطنة البحر الأتراك العاملين في خدمة المماليك، ثم العثمانيين. اقترح على الصدر الأعظم إبراهيم باشا القيام بحملة لضم اليمن والساحل السواحي وغزو الحبشة وطرد البرتغاليين من هرمز. كما ساعد الممالك الإسلامية في هرمز والهند في حروبها ضد البرتغاليين. انظر: فيصل عبد الله أحمد الكندري، تقرير سلمان ريس، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج:12، ع:48، جامعة الكويت، الكويت 1994، من صص 116 إلى صص 145؛ جانكارلو كازالي، رياح البحر الهندي - عصر الاستكشاف العثماني، تر: مصطفى قاسم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2018، ص 85

³ ابن العماد شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، بيروت، 1414هـ/1993م، ج:10، صص 161-162؛ صبي، صص 22-23؛ حنظل، صص 255، 266

⁴ تُفضّل شريحة واسعة من الأحباش المسيحيين تسمية إثيوبيا على الحبشة، تبرّكاً بورود الاسم الأول في التوراة، كما أن التسمية الأولى تبرز أن للأحباش قواسم مشتركة مع العرب وهذا كان ما يرفضه هؤلاء ويُفضّلون بذلك ارتباطهم بأوروبا المسيحية. انظر: فتحي غيث، الإسلام والحبشة عبر التاريخ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2001، صص 36

بحكم تتبعية الكنيسة اليعقوبية¹ لنظيرتها القبطية في الإسكندرية². ولأجل ذلك كان عليهم أن يسعون لكسب وُدّ المماليك في مصر³.

ومن جهة أخرى سعى البرتغاليون إلى الوصول إلى الحبشة والتّحالف مع ملكها القديس يوحنا⁴ *preste Jhon* لمحاربة ومحاصرة المسلمين من الشرق، وذلك بعدما حاصروهم من الغرب، كما ينصّ الإتّفاق على مهاجمة البرتغاليين لمصر بحراً من الشمال بينما يهاجمها الأحباش برّاً من الجنوب⁵، وهناك من المصادر العربية ما يشير إلى أنّ ملوك الحبشة وبتحريضٍ من ملوك أوروبا هددوا أكثر من مرّة بتحويل مجرى نهر النيل في بلادهم وهذا لتجويد مصر⁶.

ولهذا الغرض تمّت عدّة مراسلات بين الطرفين إلّا أنّ الدور الذي أدّته الدبلوماسية المصرية، ومحاولة الكنيسة الكاثوليكية البرتغالية إحتواء نظيرتها اليعقوبية الحبشية حال

¹ اليعقوبية: هي فرع من الكنيسة الأرثوذكسية، تُنسب إلى يعقوب البرذغاني الذي كان راهباً على القسطنطينية، تأسست بين عامي 330 و340م، وكانت تابعة لكنيسة الإسكندرية، وقد تأثرت كثيراً بالمعتقدات اليهودية. يدّعي أصحابها أنّ المسيح عليه السلام هو الله. انظر: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/1992م، ص253؛ عبد الرحمن حسن محمود، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا من القرن 18 إلى القرن 20، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2011، ج3، ص157؛ وانظر أيضاً:

Gregoire Louis, *Dictionnaire encyclopédique d'histoire de biographie et de geographie*, éditeurs Garnier freres , paris, pp 1515- 1516

² مؤلف مجهول، الزهنة الحبشية، نشأتها، تطورها، تأثيرها، قديسوها، مركز الدلتا للطباعة، مصر 1998، ص31

³ أحمد الحنفي، الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، المطبعة الأميرية الكبرى، مصر، د ت ش 1321هـ، ص9

⁴ انتشرت في أوروبا منذ نهاية الحروب الصليبية، أسطورة تقول بوجود ملك نصراني يحكم إمبراطورية مسيحية كبيرة في الشرق الأقصى تضم الهند والصين والحبشة، وكانت الأدبيات الأوروبية آنذاك تقول بأنّ الحبشة هي جزء من الهند، لكن منذ القرن 15م تأكد الأوروبيون بأنّ ملك الحبشة هو نفسه القديس يوحنا، الذي سعى البرتغاليون منذ القرن 16م

للوصول إليه والتّحالف معه ضدّ المسلمين. انظر: صونيا هاو، ص64؛ Stéphanie de jesus .op.cit., p132

J. Spencer Trimingham, *Islam in Ethiopia*, oxford université press Amen house, London 1952, p8; Camille Rouxpetel, *La figure du prêtre jean: Les mutations d'une prophétie*, in: questes, université de Sorbonne, Paris 4, 15juin2014, pp 99- 120, 12

⁵ تقي الدين علي بن عبد القادر المقرئ، الإمام لأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، تح وتعل: عبد النعيم ضيفي عثمان عبد النعيم، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2006، ص235؛ ابن ترغي بردي، ج6، ص637-640

⁶ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الثبر المسبوك في ذيل الملوك، تح: نجوى مصطفى كامل لبيبة،

إبراهيم مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 1423هـ/2002م، ج1، ص67

دون ذلك¹. لكن بعد وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا والهند، وبعد النصر الذي حققه على المماليك في معركة ديو عام 914هـ/1509م، تحسّنت العلاقات بين الطرفين حتّى أنّ ملكة الحبشة هيلينا Illeni²، عرضت على ملك البرتغال دون مانويل Don Emmanuel³ عقد تحالف بينهما ضدّ المماليك، وشجّعته على التوغّل في البحر الأحمر والوصول إلى الأماكن المقدّسة في مكّة والمدينة المنورة⁴.

ج. علاقات المماليك مع الدولة العثمانية

بدأت العلاقات العثمانية المملوكية في التوتّر منذ عصر محمّد الفاتح، واستمرّت حتّى بلغت درجة المواجهة العسكرية بينهما عام 897هـ/1492م، لتُعقد بينهما في السنة نفسها مُعاهدة أدنا Adana⁵، حيث عرفت العلاقات بينهما هدوءاً نسبياً، قبل أن تتوتّر من جديد بينهما بسبب استقبال المماليك ودعمهم للأمير جم⁶.

¹ زاهر رياض، استعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1384هـ/1965م، ص ص 15-16

² الملكة هيلينا: تسمّيها المصادر العربية رومانة، وهي ابنة حاكم إمارة هدية أهداها لملك الحبشة زرع يعقوب، واتّخذها فيما بعد زوجة له، وبعد وفاته أصبحت وصيّة على عرش ابنها الملك لبنا دنجل الطّفل (1508-1540). توقّيت عام 1525. انظر: Trimingham, op.cit., p83؛ شهاب الدّين أحمد بن سالم بن عثمان عرب فقيه، فتوح الحبشة، لندن 1894، ص 27؛ عطية مخزوم الفيتوري، دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، 1998، ص 173

³ دون إمانويل (1465 - 1521م)، وهو من أعظم ملوك البرتغال تولى العرش عام 1495م وعمره لا يتجاوز 26 سنة، لعب دوراً كبيراً في تشجيع حركة الكشوفات الجغرافية، اكتشف فاسكو ديغاما في عهده رأس الرّجاء الصّالح عام 1498م. للمزيد انظر: M.demarlès, *Histoire de portugal d'apres la grandehistoirede schaffer*, éditeur parent- débarrasse ,saint germain Paris1840,p209, 2010; Luis Caetano de lima, *Tablette chronologique et historique des rois de Portugal jusqu'a l'année 1716*, a la hay, chez Adrian moet jeans marchand libraire, paris s d, pp 25- 26- 27

⁴ شوقي الجمل وآخرون، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2، دار الزّهراء، الرياض 1422هـ/2002م، ص 27

⁵ معاهدة أدنا: أبرمت هذه المعاهدة بين العثمانيين والمماليك. انظر: H.A.R. Gibb Kramers et autres, *Encyclopedie de l'Islande*, T1, edition maisonneuve –laroses s. a. Paris 1975, p189

⁶ بعد رفض السلطان العثماني بايزيد الثاني عرض الأمير جم على تقسيم البلاد بينهما، دخلت في حرب أهليّة، أجبتها أطراف أجنبية. للمزيد انظر: ابن إياس، ج3، ص 98. انظر: عزتو أضاف يوسف، تاريخ سلاطين بني عثمان منذ نشأتهم حتّى الآن، تح: محمّد زينهم، محمّد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة 1995م، ص 4 ص 42

وعند تولّي السلطان سليم الأوّل ¹yavuz الحكم في الدولة العثمانية عام 917هـ/1512م، وجّه اهتمامات دولته نحو العالم الإسلامي، وهذا بسبب المخاطر التي كانت تهدّده (الصفويون والبرتغاليون)، وأصبح العثمانيون يسعون إلى بسط نفوذهم على الأماكن المقدّسة، والتّطلّع إلى قيادة العالم الإسلامي، خاصّة بعد ظهور البرتغاليين في البحار الشرقية، وتهديدهم للعالم الإسلامي وعجز المماليك عن مواجهتهم خصوصاً بعد تهديدهم باحتلال الحرمين الشريفين².

ولتحقيق ذلك ركّز العثمانيون على ضرورة القضاء على الصفويين الذين كانوا يشكّلون تهديداً حقيقياً ليس للدولة العثمانية فقط وإنّما للعالم الإسلامي ككل، وتمكّنوا من هزيمتهم هزيمة ساحقة في أول مواجهة بينهما في معركة تشالديران *çaldirane* في 3 رجب 920هـ/23 أوت 1514م³.

¹ السلطان سليم الأوّل: هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية، اشتهر بالقوّة والقسوة لهذا أطلق عليه ياوز. وعند تولّيه السلطة أقدم على قتل أخويه أحمد وقرقود *korkut* وجميع أبنائهما، وهذا استناداً لقانون قتل الإخوة الذي شرّعه السلطان محمد الفاتح الذي يسمح للسلطان الجديد بقتل جميع إخوته، وكان هذا بناءً على فتوى أصدرها علماء الدولة. وبعد عام 1517م حمل لقب خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين. انظر: علي بن محمد اللّحمي الشّيلي، الدّر المصان في سيرة المظفّر سليم خان، تح: هانس آرنست، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1962م، ص8؛

J.Hammer, Histoire de l'empire ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours, traduit de l'Allemand par J.J.Helert, de imprimerie Renridupuy, Paris s.d,T4, pp, 135- 136 – 137, 154

² كان البرتغاليون يعتقدون أنّ قبر النّبي صلّى الله عليه وسلّم مليء بالجواهر والكنوز، لهذا أراد القائد البرتغالي البوكيرك الدّخول إلى البحر الأحمر واحتلال جدّة ومكّة والمدينة المنورة، والاستيلاء على رفاته الطّاهرة صلّى الله عليه وسلّم ومساومة المسلمين عليها للتّخلّي عن الأماكن المقدّسة في فلسطين. انظر: محمود شاكر، الكشف الجغرافية، دوافعها الحقيقية، ط2المكتب الإسلامي، بيروت 1988م/1408هـ، ص28

³ تشالديران: عبارة عن سهل يقع في شمال غرب مدينة تبريز عاصمة الصفويين، وقعت عليه المعركة الكبيرة التي هزم فيها العثمانيون الصفويين عام 1514. للاطلاع أكثر عن هذه المعركة. انظر: توفيق حسن فوزي، رؤية الوثائق والمصادر التركية للصراع العثماني الصفوي في عهدي بايزيد الثاني وسليم الأوّل، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، القاهرة 1986، ص119-136؛ محمد عبد اللّطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن

أوروبا، دار الصحوة للنشر والتوزيع 1408هـ/1987م، ص51-53؛ 3 ; *Hammer, op .ci.t*, T4, p18 ; *Shaw, op.cit*, p8

وقد كان لموقف المماليك المتردد من الصراع القائم بين القوتين الإسلاميتين الفتيتين، أن تأزمت العلاقات بينهم وبين العثمانيين من جديد، وأفضت إلى اندلاع المواجهة العسكرية بينهما وإلى اشتباك جيشي الدولتين في معركة مرج دابق في 15 رجب 922هـ/24 أوت 1516م ببلاد الشام، حيث هزم الجيش العثماني بقيادة السلطان سليم الأول نظيره المملوكي بقيادة السلطان قانصوه الغوري الذي قُتل في المعركة، واستولى بعدها العثمانيون على حلب حيث نُودي به خادماً للحرمين الشريفين، كم استولى على لبنان ثم فلسطين، ومنها اجتاز صحراء سيناء وأصبح الجيش العثماني على مشارف مصر¹.

وحين وصلت أخبار الهزيمة إلى العاصمة القاهرة، بايع الأمراء المماليك طومان باي سلطاناً عليهم، الذي بدأ يستعد لملاقاة العثمانيين ثانية، لكنه هُزم هو الآخر في معركة الريدانية بتاريخ 29 ذي الحجة 922هـ/23 جانفي 1517م، واستولى العثمانيون على القاهرة التي دخلها السلطان سليم الأول في 3 محرم 923هـ/26 جانفي 1517م².

وبعد أن استتب الأمر للعثمانيين بمصر، مكث السلطان سليم الأول بالقاهرة أكثر من ستة أشهر، عمل خلالها على استتباب الأمن بالعاصمة والمدن الكبرى المصرية، وحتى في المناطق النائية، كما أعاد ترتيب الأمور الإدارية والقضائية، والإقتصادية، وهذا بإعادة توزيع الأراضي على الفلاحين بعد مصادرتها من عند الملاك الكبار من المماليك، وأعاد تنظيم الضرائب على الرعية والتي تقلصت بشكل كبير، وسهر كما تمت محاربة كل مظاهر الرقص المجون والخمر، هذا ما جعلهم يلعنون العهد السابق ويرحبون

¹ للتوسع أكثر انظر: ابن إياس، ج5، ص28-29؛ محمد بن محمود الحلبي، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، دارالفكر للطباعة، دمشق والنشر 1406هـ/1986م، ص248-251؛ شمس الدين بن محمد، بن علي بن أحمد بن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ/1998م، ص338؛ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، التحفة البهية في آل عثمان الديار المصرية، تح: عبد الرحيم عبد الرحيم، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2005، ص11

² للمزيد انظر: ابن زنبيل الزمال، آخرة المماليك، تح: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية للكتاب 1998، ص210-214؛ ابن إياس، ص153-157؛ البكري الصديقي، ص16؛ ابن إياس، ص341-351؛ الحلبي، ص2

بالعثمانيين، ويرون فيهم كمخلصين لهم من الأوضاع المزرية والصعبة التي عاشوها أثناء فترة حكم المماليك¹.

وكمكافأة له على -وفائه- عين السلطان العثماني وخاير بك² والياً على مصر، هذا الأخير بدوره قام بتولية الأمير حسين الرّومي أميراً على جدّة، وتعيين سلمان رايس قائداً لأسطول البحر الأحمر³.

ويكون بذلك العثمانيون قد وضعوا نهاية للدولة المملوكية، التي تحولت ممتلكاتها للدولة العثمانية⁴. لكن رغم ذلك لم يتمكنوا من القضاء على المماليك إلا كنظام وشعار دولة، فبعد عام 1517 بقيت الأنظمة المملوكية في مختلف القطاعات الاقتصادية والإدارية وغيرها قائمة في مصر والشام قائمة تقريباً طيلة التواجد العثماني بها.

أمام هذه التطوّرات لم يتأخّر شريف مكّة في إعلان ولائه للدولة العثمانية، فقد أرسل في 21 جمادى الأولى 923هـ/17 جوان 1517م مفاتيح الحرمين الشريفين للسلطان سليم الأول مُعلنًا خضوع مكّة والمدينة المنورة وسائر بلد الحجاز للدولة العثمانية، بعدما خضعت لها كلّ من بلاد الشام ومصر من قبل⁵.

¹ نيكولاي إيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516م-1574م)، تر: يوسف عطا الله، ط2، دار الفرابي، بيروت 2004، ص ص 89-90-91

² خاير بك: كان أول والٍ عينه السلطان سليم الأول على حكم مصر برتبة باشا وهو أحد أكبر رجالات قانصو الغوري، والذي حارب إلى جانبه في مرج دابق في 1516 بحلب ثم خانه، لهذا لم يأمن جانبه السلطان سليم الأول. أدار شؤونها بنفس النظم الموروثة عن المماليك وتمكن من حفظ الأمن والاستقرار بها. توفي عام 926هـ/1529م. انظر: جرجي زيدان، مصر العثمانية، تح: محمد حرب، دار الهلال، الإسكندرية 1994، ص 109؛ فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، تر: جمال فاروق، أحمد كمال، دارالنيل للطباعة والنشر، القاهرة 1435هـ/2014م، ص 66

³ للمزيد انظر: ابن إياس، ج 5، ص 16-177؛ عمر الإسكندري وسفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، المرجع السابق، ص ص 10-11؛ عمر الإسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1416هـ/1996م، ص ص 270-271

⁴ للمزيد انظر: ابن إياس، ص 153-157؛ ابن زنبيل، ص 210-214؛ الحلبي، ص 282

⁵ للمزيد انظر: ابن طولون، ص 388؛ البكري الصديقي، ص 95

وفي أثناء عودته إلى إسطنبول اصطحب معه السلطان العثماني الخليفة العباسي المتوكل على الله (آخر الخلفاء العباسيين)، حيث تنازل له رسمياً عن الخلافة، بعد أن سلّمه الآثار النبوية (الرّاية - السيف والبردة)، ومنذ ذلك الحين صار السلطان العثماني هو خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين¹.

وكان لسقوط دولة المماليك وضمّ العثمانيين لمصر آثار عميقة على كامل المنطقة العربية التي كانت خاضعة لنفوذهم، لأنّه شمل بالإضافة إلى مصر بلاد الشام واليمن والحجاز والحبشة وشرق السودان وجميع السواحل المطلّة على البحر الأحمر، وانفتح لها بذلك الطريق أمام العثمانيين إلى المحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر ودخلت بذلك في مرحلة جديدة من تاريخها، واعتُبر سلاطينها حُماةً للعالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، وهذا المفهوم سينعكس على سياسة الدولة العثمانية الخارجية في المراحل اللاحقة.

وبناءً على ما ذكرناه يُمكن استخلاص نتائج ضمّ العثمانيين لمصر فيما يلي:

انتقال تبعية البلاد العربية التي كانت تحت نفوذ المماليك إلى الدولة العثمانية، وأصبح بذلك العثمانيون يتزعمون العالم الإسلامي، ويسيطرون على إمكانياته الاقتصادية، وهذا بعد احكام قبضتها على طريق تجارة الحرير (تبريز-حلب-بورصة)، وعلى طرق التجارة الدولية الأخرى، خاصّة طريق تجارة الهند الذي كان يمرّ عبر البحر الأحمر إلى مصر ومنها إلى أوروبا، بالإضافة إلى دعم مصر لخزينة الدولة العثمانية بموارد مالية كبيرة²، فقد كانت تدفع سنوياً لإسطنبول بإرسالية تسمّى إرسالية الخزينة *Irsaliye-i-hazine* هذا ما كان يساعد في تمويل نفقات الحملات العسكرية التي كان يقودها السلطان سليمان القانوني

¹ إينالجيك، ص55

² خصّصت الدولة العثمانية في عام 1527 أكثر من 35% من مداخيل مصر لتمويل بناء أسطول السويس. للمزيد انظر: جين هاثواي، سياسة الزّمر الحاكمة في مصر العثمانية، تر: عبد الرحمن عبد الله الشّيوخ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2003، ص38؛ نبيل عبد الحي رضوان، جهود العثمانيين للحدّ من التّهديد البرتغالي للنشاط التجاري في الخليج العربي من خلال الوثائق العثمانية (945/967هـ - 1538/1559م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة أمّ القرى بمكّة المكرمة، د. ت. ش، ص5

*Süleyman Kanuni sultan*¹ بنفسه في الكثير من الأحيان².

أ. بعد أن فرض العثمانيون سيطرتهم على البحر الأحمر أغلقوه في وجه البرتغاليين، وتمكّنوا بذلك من حماية الحدود الجنوبية للعالم الإسلامي واستعادة الطرق التجارية، وهذابعد بسط سيطرتهم على الحجاز واليمن وهرر ومصوع وسواكن³.

ج. بدخول العثمانيين إلى مصر شعرت الشعوب الإسلامية والعربية بقوة العثمانيين، وطالبت الحماية من السلطان العثماني وهذا لدفع الخطر الإسباني والبرتغالي، فبدأت وفودهم تصل إليه منذ أن كان في مصر، ثمّ تتابعت في إستانبول عارضةً انضمامها للدولة العثمانية أو طالبة حمايتها ممّا تتعرّض له من تهديدات⁴، وكان من أهمّ هذه الوفود وفد شريف مكّة أبي البركات الذي أرسل بواسطة ابنه إلى السلطان سليم مفاتيح الكعبة والأمانات المقدّسة مُعلنًا ولاءه للدولة العثمانية⁵، ولا يمكن تفسير تصرف الشريف -أبي البركات بهذا الشكل على أنّه خيانة للمماليك وإنّما كان حرصاً منه على مصلحة -بلادته المُهدّدة بالخطر البرتغالي والتي كانت بحاجة لعون العثمانيين المادي والمعنوي⁶.

¹ السلطان سليمان القانوني: هو عاشر سلاطين الدولة العثمانية حكمها من عام 1520 إلى 1566، وسُمّي بالقانوني لحرصه على تطبيق القوانين ونشره للعدل. كما تُعتبر فترة حكمه بإجماع المؤرخين العصر الذهبي بالنسبة لها، بحيث بلغت قمة درجات القوة والتوسع. انظر: فردون أمجان، ص13

² فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007، ص401-402؛ محمّد درّاج، ص ص20-21

³ كولين ماكلي، أطلس التاريخ الإفريقي، تر: مختار السوّيفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987، ص125؛ عبد الحي رضوان، ص5؛ البيّات، ص402

⁴ بعد ضمّ الدولة العثمانية لمصر، وانتقال الخلافة الى العثمانيين وصلت إلى إستانبول وفود كل من مكّة، الهند، العراق، الحبشة، الأندلس، طرابلس الغرب، والجزائر وغيرها، تطلب حماية السلطان، أو تعرّض تبعيةها للدولة العثمانية، لوقف الاعتداءات النُصرانية على بلادهم. للمزيد: انظر: ابن إياس، ج5، ص189؛ إيفانوف، ص ص161-163

⁵ محمّد درّاج، ص21

⁶ نتيجة لهذا الموقف ولمكانة الحجاز بالنسبة للدولة العثمانية حظي بامتيازات كبيرة، فقد تمّ إعفاؤه كلّية من الضرائب، بل على العكس كان يتلقّى سنوياً اعتمادات مالية ضخمة يُطلق عليها الصّرة، بالإضافة إلى الأوقاف الموقوفة على الحرمين الشريفين. للمزيد انظر: عمر سالم بابكور، حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أمّ القرى، مكّة المكرمة، 1407هـ/1987م، ص ص154، 160

د. ومن الآثار الدينية والسياسية الهامة الأخرى التي انعكست على مستقبل الدولة العثمانية والعالم الإسلامي ككل نتيجة لفتح مصر، اصطحاب السلطان العثماني للخليفة العباسي المتوكل معه إلى إسطنبول، وما تبع ذلك من انتقال الخلافة إلى العثمانيين، إذ صار المسلمون ينظرون منذ ذلك التاريخ إلى السلطان العثماني على أنه خليفة المسلمين وحامي الحرمين الشريفين¹. ولو أن مسألة انتقال الخلافة من العباسيين إلى العثمانيين تناولتها عدة روايات تاريخية، فقد أوردت إحداها أوردت تفصيلاً آخر عن انتقال الخلافة، ذكرت فيه أن عملية التنازل تمت في مصر عام 1517م بجامع الملك المؤيد بالقاهرة حيث سلم له رموز الخلافة التي حملها السلطان معه عند عودته إلى إسطنبول². وتأكد هذا التنازل بإرسال شريف مكة مفاتيح الحرمين الشريفين إلى السلطان العثماني سليم الأول، وبهذا أصبح الحرمين الشريفان والقدس في حماية الخليفة العثماني الجديد³.

هـ. بعد أن أصبح السلطان العثماني خليفة للمسلمين وخادم للحرمين الشريفين، كان عليه حماية العالم الإسلامي خاصة بعد وصول البرتغاليين إلى البحار الشرقية، فبعد وصولهم إلى السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، هددوا باحتلال الحرمين الشريفين، وعبثوا بالتجارة العربية هناك، وتمكنوا من تحويل طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب إلى رأس الرجاء الصالح، وتم منع السفن التجارية الإسلامية من الإبحار عبر المحيط الهندي والوصول إلى منابع تجارة التوابل في الهند، وتمكنوا من عزل موانئ البحر الأحمر وإغلاقه وهذا بعد أن احتلوا سوق طرى منذ عام 912هـ/1506م⁴.

¹ ابن إياس، ج5، ص185

² للمزيد عن انتقال الخلافة من عند العباسيين إلى العثمانيين: انظر: محمد أنيس، الدولة العثمانية والمشرق العربي (1514-1914)، دار الجيل للطباعة، فجالة، مصر، ص114-117

³ عبد الفتاح حسن أبو علي، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، دار المريخ للنشر، الرياض 1429هـ/2008م، ص168؛ فريد بك، ص94

⁴ آمال إبراهيم محمد، الصراع الدولي حول البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993م، ص32؛ فاروق أباضه، ص47؛ محمد عوض، ص18

كما تمكنوا في عام 913هـ/1507م من بسط سيطرتهم على هرمز¹، ومنها فرضوا حصاراً مُحكماً على خليج البصرة، ومما زاد في خطورة الأوضاع الهزيمة الساحقة التي مُني بها الأسطول المملوكي أمام نظيره البرتغالي في معركة ديو في عام 915هـ/1509م².

وأمام هذه التحدّيات الخطيرة التي أصبحت تهدّد العالم الإسلامي عموماً والأماكن المقدّسة في الحجاز، وجدت الدولة العثمانية أنّه من الواجب عليها أن تؤدّي الدور المنوط بها ومواجهة هذا الخطر بإقامة حزام أمن للدّفاع عنها، لهذا سارت في اتّجاهين:

كان الاتّجاه الأوّل عبر البحر الأحمر، وهذا بالعمل على تأمينه، وهذا بإنشاء قاعدة بحرية في السويس ومنها مُطاردة الأساطيل البرتغالية، وبعدها يتم إغلاقه في وجه الأساطيل البرتغالية، ومما ساعدهم على ذلك، سيطرتهم على عدن واتّخاذها كقاعدة متقدمة لهم لضرب المراكز البرتغالية في المنطقة³.

أمّا الاتّجاه الثاني فكان عبر خليج البصرة، إذ اتّجه العثمانيون بعد معركة تشالدران صوب العراق، فاحتلّوا بغداد عام 940هـ/1534م ثمّ البصرة عام 944هـ/1538م التي اتّخذوها قاعدة بحريّة لهم على خليج البصرة، ومنها التّوجه إلى المحيط الهندي، وحتى يتفادى العثمانيون خطر الصفويين كانوا يفضلون قاعدة السويس على قاعدة البصرة⁴.

وبذلك تمكّن العثمانيون فكّ الحصار الذي ضربه البرتغاليون على خليج البصرة وعلى البحر الأحمر، الذي قرّروا إغلاقه في وجه السفن البرتغالية وغيرها من السفن الأوروبية، على اعتبار أنّ الأماكن المقدّسة تقع في الحجاز وتطلّ على سواحلها، وبالتالي يجب أن تقتصر الملاحة فيه على السفن الإسلامية دون غيرها⁵.

¹ عبد القادر بن الشّيخ عبد الله الحسيني الخزرمي اليمني الهندي العيدروسي، النور السّافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو، محمود الأرناؤوط، أكرم البوشي، دار صادر، بيروت 2001م، ص 101

² بابكور، ص 143

³ إيفانوف، ص 157

⁴ حمداني، ص 4

⁵ بابكور، ص ص 22، 199

ومنه نستنتج أنّ التّواجد البرتغالي في سواحل شرق إفريقيا، تزامن مع تغيّرات جيوسياسية جذرية عرفها العالم الإسلامي، فبعد ظهور الصفويين واستعدادهم للتعاون مع البرتغاليين، تمكن العثمانيون من كبح جماحهم وهزيمتهم في معركة تشالدران عام 1514، ومن جهة أخرى وبعد الضعف الكبير الذي آلت دولة المماليك في مصر وعجزها عن مواجهة البرتغاليين تدخل العثمانيون وقاموا أولاً بضم مصر والشام لدولتهم وتنازل لهم بنو العباس عن الخلافة وبهذا تمكنوا من ترّعم العالم الإسلامي وحمايته من الأخطار الخارجية.

المبحث الثاني

الأوضاع في الدولة العثمانية

بعد ظهور الصفويين وتماديهم في اعتدائهم على المسلمين السنة وتحالفهم مع البرتغاليين، كان على الدولة العثمانية أن توقف أنشطتها في أوروبا وتتوجه شرقاً لحماية العالم الإسلامي من هذا الخطر.

1. سياسة الدولة العثمانية تجاه القوى الإسلامية المحلية

تمكنت الدولة العثمانية مع مطلع القرن 10هـ/16م من إخضاع كامل المناطق الشمالية المحاذية البحر الأسود بما فيها شبه جزيرة القرم على البحر الأسود، كما سيطرت من قبل على أوروبا الشرقية والبلقان، وسعت إلى أن تمتد نفوذها إلى أوروبا الوسطى، لكن بعد تولي السلطان سليم الأول السلطة في عام 918هـ/1512م، توقفت التوسعات العثمانية في أوروبا وتوجّهت اهتمامات السلطان الجديد صوب العالم الإسلامي¹، مُحدثاً بذلك تغييراً جذرياً في السياسة الخارجية للدولة العثمانية، ولأول مرة في تاريخها تعطي الدولة العثمانية الأولوية في توسعاتها لآسيا وإفريقيا بدلاً من أوروبا².

ويُرجع بعض المؤرخين الدواعي التي دفعت بالسلطان سليم الأول إلى التوقف عن الاستمرار في الفتح في أوروبا والتوجه إلى الشرق والجنوب، إلى عدم وجود خطر يهدد الوجود العثماني في الروملي ولا في البلقان وأصبح هذا الوجود دفاعياً أكثر منه هجوماً أو بالأحرى تشبّع العثمانيين في مجال الفتوحات أوروبياً، لكن عودة العثمانيين في عهد

¹ كان السلطان سليم الأول يطمح إلى توحيد العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه تحت قيادة واحدة. انظر: محمد دراج، ص 13.

² سيار الجميل، تكوين العرب الحديث، دار الشروق، عمان 1997، ص 63؛ إدريس الناصر رئيسي، العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن 16م، دار الهادي، بيروت 2007، ص 36؛ 15؛ Shaw, op.cit., p79; Hammer, op.cit.,

السلطان سليمان القانوني إلى ميدان الفتوحات في أوروبا يُبطل هذا الرأي¹. وهناك من المؤرخين من يُرجع ذلك إلى إدراك العثمانيين في عهد سليم الأول، إلى مدى الخطر المُحدق بالعالم الإسلامي، بعد وصول البرتغاليين إلى الهند وسيطرتهم على البحار الشرقية وتهديدهم باحتلال الأماكن المقدسة، خاصة بعد سيطرتهم على بعض الجيوب في جنوب شبه الجزيرة العربية، ويرجعه البعض الآخر إلى ظهور الصفويين واستئصال خطرهم على الحدود الشرقية للدولة العثمانية ومحاولة تحالفهم مع البرتغاليين، وهناك رأي آخر يبرر به توجه السلطان سليم إلى التوسع شرقاً على حساب البلاد العربية والإسلامية، وهذا حتى يتسنى له تأسيس خلافة إسلامية سنية بمقدورها مواجهة القوى الأوروبية المسيحية والدولة الصفوية الشيعية، بعدما عجز المماليك عن ذلك².

وبهذا تشتتت مجهودات الدولة العثمانية بين مجابهة الصفويين والعمل على القضاء عليهم من جهة³، والتطلع لضمّ المشرق العربي والقضاء على دولة المماليك، وحماية الأماكن المقدسة من الخطر البرتغالي، الأمر الذي يمنحها شرعية لتزعّم العالم الإسلامي⁴. ومن جهةٍ ثالثة التصدي للأساطيل البرتغالية في المحيط الهندي والبحر الأحمر، والأساطيل الإسبانية في البحر الأبيض المتوسط⁵.

¹ لمعرفة المزيد عن أسباب اهتمام السلطان سليم الأول بالعالم الإسلامي أكثر من أوروبا: انظر: محمد أدنيس، ص 102-103

² الصباغ، ص 65

³ لمعرفة المزيد عن التآمر الصفوي المسيحي ضد الدولة العثمانية. انظر: هريدي، ص 45

⁴ كانت الدولة الصفوية تقف كحاجز أمام سعي السلطان العثماني سليم الأول لتوحيد العالم الإسلامي بزعامة الدولة العثمانية مشرقاً ومغرباً وهذا لتعزيز قوة المسلمين لمواجهة الصليبيين. انظر: فاضل البيات، ص 15

⁵ الناصر رائسي، ص 37؛ Shaw, op.cit., p99

2. الصدام العثماني الصفوي

مع إطلالة القرن 10هـ/16م بدأت خريطة العالم الإسلامي الجغرافية تأخذ شكلاً جديداً، وذلك نظراً لتغير موازين القوى السياسية والاقتصادية العالمية، وكان الباعث الأول لهذه التغيرات بروز الدولة الصفوية، وتبنيها لمشروع توسعي على حساب القوى الإسلامية المجاورة، على اعتبار أنها دولة طائفية مذهبية لن تتردد في اضطهاد المسلمين السنة متى سمحت لها الفرصة بذلك، وظهر هذا جلياً في محاولتها بسط نفوذها ونشرها للتشيع في شرق الأناضول، وبالتالي أصبح أمن واستقرار العالم الإسلامي مهدداً¹. ومما زاد في خطورة الأوضاع لجوؤها إلى التحالف مع القوى الصليبية المعادية للعالم الإسلامي ونخص بالذكر دولة البرتغال، التي حملت لواء الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي².

وبذلك شكّل ظهور الدولة الصفوية في مطلع القرن 10هـ/16م تهديداً جدياً للعثمانيين، وتسببوا في إحداث انشقاق كبير للوحدة الإسلامية، خاصة بعد أن تحالف الشاه إسماعيل الصفوي مع البرتغاليين، يحدث هذا في الوقت الذي كان فيه العالم الإسلامي في أمس الحاجة للوحدة والتماسك، فكان بذلك من أولويات السلطان سليم الأول أن يضع حداً لهذا التهديد³.

زاد تمادي الصفويين في زعزعة الاستقرار على الحدود الشرقية للدولة العثمانية وذلك بقيامهم بدعاية كبيرة للمذهب الشيعي هناك، وتضييقهم الخناق على المسلمين السنة هناك وإرغامهم على التشيع⁴. وفي هذا الإطار استولوا منذ عام 912هـ/1507م عراق العرب وهذا للسيطرة على موارده المالية، وللتحكم في الطرق التجارية من جهة، وللاشراف

¹ محمد دراج، ص 15

² انظر نص الرسالة التي بعث بها أفسو البوكيرك عام 1510م إلى الشاه اسماعيل الصفوي في الملحق رقم 6، ص 234

³ سالم، ص 136

⁴ لمعرفة المزيد عن كيفية مُعاملة الصفويين للمسلمين السنة. انظر: صباغ، ص 116

على العتبات المقدسة للشيعة في كلٍّ من النجف وكرلاء من جهةٍ أخرى¹.

كما حاولوا التّقرّب من المماليك والتّحالف معهم ضدّ العثمانيين²، لكن حتى المماليك كانوا ينظرون بعين الرّيبة لهذه الدّولة الطائفية التي أصبحت تشكّل تهديدا لممتلكاتهم في الشّام والحجاز، في آن واحد كانوا يخشون من الأطماع العثمانية في مصر والشّام، لهذا اتّخذوا موقفاً حيادياً من هذا الصّراع، لأنّ في اصطدام القوتين بعضهما ببعض تخفيفاً للضغط عليهم. ويظهر هذا بوضوح عند اندلاع المواجهة بين الطرفين في معركة تشالديران، أرسل السلطان الغوريّ بعض قوّاته إلى حلب لمراقبة الأوضاع عن كثب³. هذا ما زرع الشّكوك عند سليم الأوّل بوجود مآمرة بينهم وبين الصّفيّين ضدّه⁴.

وبعد فشلهم في استدراج المماليك حاولوا عقد تحالف مع البنادقة ضدّ الدّولة العثمانية، وعرضوا عليهم مهاجمتها من الغرب بينما يهاجمونها هم من الشّرق، والمماليك من الجنوب، لكنّ البندقية لم تتحمّس لهذا العرض لانهماكها في حروبها الأوروبية، ولارتباطها بمعاهدة سلام مع العثمانيين⁵.

بعد هذه التّطوّرات أصبح الوجود الصّفيّ يشكّل خطراً كبيراً ليس على الدّولة العثمانية فحسب وإنّما على البلاد الإسلامية وعلى المسلمين السّنة ككلّ لهذا عزم السلطان سليم الأوّل على استأصال هذا الخطر قبل استفحاله⁶.

¹ السّعدانيّ أبو وردة عطية، "الصّراع العثمانيّ الصّفيّ ونتائجه السياسيّة والعسكريّة" مجلة كلتية اللّغة العربيّة بأسبوط، ع:13، 1993، ص16؛298-250، *Hammer, op.cit., T4, p16*

² *Hammer, op. Cit, T4, p 158, 160*

³ سالم، ص ص163-164. انظر أيضاً: *Stanford shaw, op.cit., p80*

⁴ للتّوسّع أكثر حول طبيعة العلاقات الصّفيّة المملوكيّة قبل معركة تشالديران. انظر: دحدح، ص94

⁵ محمّد درّاج، ص15؛ سالم، ص ص161-162

⁶ للتّوسّع أكثر في موضوع التّحالف الصّفيّ البرتغاليّ ضدّ الدّولة العثمانية. انظر: نصر الله فلسفيّ، ص7، 12، 14؛ سالم، ص ص127-128

وحتى يتقرَّغ لمجابهة الصفويين كان عليه تأمين الجبهة الأوروبية، فعقد معاهدة تجارية مع روسيا ومعاهدة سلام مع المجر، وجدَّد الاتفاقيات المبرمة مع جنوة والبندقية¹. كما أقدم على إغلاق الحدود بين الدواتين وهذا حتى يتسنى له فرض طوق اقتصادي وثقافي². ثم حصلوا على فتوى من شيخ الإسلام تُجيز لهم مُحاربة الصفويين³.

بعد كل هذه الترتيبات توغل الجيش العثماني في بلاد فارس، وتمكّن من هزيمة نظيره الصفوي في معركة تشالدران في 2 رجب 920هـ/23 أوت 1514م، بينما لاذ الشاه إسماعيل الصفوي بالفرار، ودخل العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول إلى العاصمة تبريز في 14 رجب/ 4 سبتمبر 1514م⁴. لكنهم ما لبثوا أن انسحبوا منها بأمر من السلطان، كما لم يستولوا على العراق رغم قدرتهم على ذلك واكتفوا بكبح جماح الصفويين، وهذا بسبب حلول الشتاء وقلة المؤونة وحالة التملل التي بدأت تظهر في أوساط الجنود بتحريض بعض قادة جيشه⁵.

ورغم الانتصار الساحق الذي حققه العثمانيون على الصفويين، إلّا أنّ الصراع لم يُحسم لصالحهم، فبعد انسحابهم من تبريز عاد إليها الصفويون، وشرعوا في إعادة بناء الجيش لكي يستعيدوا نفوذهم في المنطقة. لم تتمكّن الدولة العثمانية من القضاء نهائياً على الصفويين، هذا ما أبقى خطرهم عليها⁶.

¹ عبد الحميد الأرقط، أوضاع الدولة الصفوية وعلاقاتها الخارجية في عهد الشاه عباس الأول (996-1038هـ/

1588-1625م)، ماجستير (غير منشورة)، جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر (2014-2015م)، ص33

² سالم، ص 16

³ انظر الفتوى التي أصدرها الشيخ حمزة أفندي الذي كان من كبار علماء عصره، والتي تجيز قتل الصفويين الشيعة واعتبارهم خارجين عن الإسلام: نفسه، ص16-17؛ روبرت مونتران، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة بشير السباعي، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة 1993، ج1، ص209؛ دحدح، ص115

⁴ تبريز Tabriz: هي مدينة عريقة تقع في جنوب أذربيجان قرب الحدود مع تركيا، اتخذها اسماعيل الصفوي عاصمة لدولته. انظر: السعداني، ص256

⁵ أبو خليل، ص69

⁶ الأرقط، ص ص35-36

وكان من نتائج هذه المعركة إضعاف الدولة الصفوية وزوال خطرهما الذي كان يهدّد الدولة العثمانية، وبسطت هاتاه الأخيرة نفوذها على شرق وجنوب شرق الأناضول وعلى كل من ديار بكر، بتليس، وأورفة وماردين وما جاورها، كما تمكنت من إحكام سيطرتها على طريق الحرير الإيراني الذي كان يصل تبريز ببورصة وتبريز بحلب، هذا ما أدّى إلى خنق التجارة الصفوية، كما فُتحت أمام العثمانيين طرق أذربيجان والقوقاز وبغداد، مما جعل هذه المراكز الغنية مصادر دخل هامة بالنسبة لها على المدى البعيد¹.

وبعد هذه الهزيمة توجه الشاه إسماعيل الصفوي يبحث له عن تحالف مع الدّ أعداء الدولة العثمانية وهم البرتغاليون، وهذا لتقاسم السيطرة معهم على خليج البصرة والوقوف ضدّ الدولة العثمانية، ففي عام 912هـ/1515م التقى سفير إسماعيل الصفوي مع نائب ملك البرتغال في الهند أفونسو دي البوكيرك وعقدا اتفاقية هرمز بين الدولتين²، أهمّ ما جاء فيها أن تتحالف الدولتان-البرتغال والدولة الصفوية- ضدّ الدولة العثمانية³. وبالمقابل يتغاضى الشاه الصفوي عن المطالبة بقلعة هرمز، وعلى إثر ذلك بعث البوكيرك برسالة للشاه الصفوي عرض عليه من خلالها تقديم مساعدات عسكرية له إذا ما أراد مهاجمة العثمانيين أو الأماكن المقدسة في الحجاز، من خلال الأساطيل البرتغالية المتواجدة على طول سواحل شبه الجزيرة العربية. وفي هذا الإطار سعى الصفويون إلى منع وصول العثمانيين إلى الهند والسيطرة على الطّرق التجارية الشماليّة بعد أن سيطر البرتغاليون على الطّرق الجنوبيّة المؤدية إلى الهند، وقطع الاتصال بين العثمانيين وإخوانهم الأتراك في أواسط آسيا⁴.

¹ محمد دراج، ص 17-18؛ شوقي أبو خليل، ص 69

² نتيجة لهذه الاتفاقية توقف البرتغاليون عن محاربة الزيديين في اليمن واعتبروهم خلفاء لهم، بحكم أنّ الزيديين آنذاك كانوا مواليين للشاه إسماعيل الصفوي. للمزيد انظر: إيفانوف، ص 149

³ الصّبّاغ، ص 134

⁴ للاطلاع أكثر على الطّرق التجارية العالمية بين الشرق والغرب خلال القرن 15م. انظر: الصّبّاغ، ص 54، 62؛ سالم، ص 160-163

وبذلك يمكن القول أنّ معركة تشالدران فرضت ولمدّة طويلة هُدنة غير معلنة وغير مُقرّرة بين الدّولتين، لكنّ عدم الاستقرار والتّوتر في العلاقات بين الدّولتين استمرّ في عهد السّلطان سليمان القانوني حتّى بعده¹.

وعلى عكس والده الذي حاول اجتثاث الوجود الصّفويّ، عمل السّلطان سليمان القانوني على احتوائه جغرافياً من خلال احتلاله لعراق العرب وكرديستان وإقامة حاجز طبيعيّ بين دولته في الأناضول ودولة الصّفويّين، وهذا حتّى يتقرّغ لمواجهة القوى الأوروبيّة المسيحيّة، وأصبح بذلك الصّراع مع الصّفويّين ثانوياً². وهذا بعدما توصّلت الدّولتين إلى عقد معاهدة أماسيا³ للسّلام بينهما بتاريخ 8 رجب 962هـ/29 مارس 1555م التي أوقفت الحروب بين الدّولتين، لكنّ رغم ذلك بقي كلّ طرف يتربّص بالآخر متوجّساً منه الخوف، حتّى صار العداء بينهما تقليداً، لأنّ هذا الصّراع في جوهره لم يكن صراعاً مذهبياً فقط، بل صراعاً جيوسياسياً على المنطقة، والذي بدوره كان له أبعاداً اقتصاديّة⁴.

ومما يؤخذ على سياسة الصّفويّين في المنطقة أنّهم تغاضوا عن مواجهة التّواجد البرتغاليّ في المحيط الهنديّ وخليج البصرة، رغم أنّه كان ممكناً في بدايته بمساعدة المماليك والعثمانيّين، وهذا الأمر كان بإمكانه إفشال المخطّطات البرتغاليّة في العالم الإسلاميّ، لكنّهم آثروا مزاحمة المماليك ثمّ العثمانيّين على تزعم العالم الإسلاميّ ولو بتحالفهم مع أعدائهم⁵، وأغراهم توسّعهم على حساب العالم الإسلاميّ عن القيام بعمل

¹ Théophile Lavallée, *Histoire de l'empire ottoman*, Garnier frères libraires éditeurs, Paris, 1855, p227

² دحدح، ص127

³ معاهدة أماسيا: هي أوّل معاهدة مكتوبة بين العثمانيّين، أهمّ ما نصّت عليه، تثبيت الحدود بين الدّولتين، على أنّ يستولي العثمانيّون على العراق والصّفويّين على أذربيجان، وتأمين سلامة الحجاج الإيرانيّين الوافدين إلى الحجاز وإلى العتبات المقدّسة الشّيعيّة في العراق، وتعهّدت الدّولتين بعدم إيواء المعارضين من الأسرّتين الحاكميتين كليهما. لمعرفة المزيد عن معاهدة أماسيا وتداعياتها. انظر: الأرقط، ص44؛ وانظر أيضاً: Shaw, op.cit.,p 109

⁴ السّعدانيّ، ص267

⁵ انظر الرسالة بعث بها القائد البرتغاليّ البوكيرك إلى الشّاه إسماعيل قبل معركة تشالدران، الوثيقة رقم 6 ص 234

جلل، لو تحقّق لتغيّر وجه تاريخ العالم الإسلامي، ولأكسبهم عملهم هذا مكانة كبيرة في العالم الإسلامي ولزُبّا تمكّنوا من تزعم العالم آنذاك، لكنّهم وفي هذه الفترات العصيبة غلبوا مصالحهم الضيّقة على المصالح العليا للأمة¹.

لهذا كان على العثمانيين أن يولوا اهتماماً كبيراً للقضاء على هذه الدولة الطائفية التي لا طالما شكلت خطراً على العالم الإسلامي برمتها، والتي أوقفت نموّه تطوّره وأدخلته في دوامة الصراعات الطائفية التي تخدم بالدرجة الأولى أعداء الأمة، خاصة وأنها كانت تمرّ بفترات عصيبة، كما أوقفت نشاطات الدولة العثمانية وفتوحاتها في أوروبا، وشغلّتها عن مساعدتها الأندلسيين في ثوراتهم، فعوض أن يوجّهوا مجهوداتهم غرباً ودخلوا مع الصفويين في حرب استنزاف المنتصر فيها منهزم.

¹ الأسطل، ص38

المبحث الثالث

نظرة عامة على الأوضاع في شرق إفريقيا عند وصول البرتغاليين

تشمل منطقة شرق إفريقيا التي شهدت الصراع بين الدولة العثمانية والبرتغاليين خلال القرن 10هـ/16م جميع المناطق المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندي، الممتدة من سواكن على ساحل البحر الأحمر إلى إمارة سفالة جنوباً، وقد عرفت المنطقة عبر تاريخها تمازجاً بين الحضارة العربية الإسلامية من جهة ومختلف الحضارات الإفريقية المجاورة لها من جهة أخرى، ويعود هذا إلى توافد عدة هجرات عربية إليها من شبه الجزيرة العربية وما جاورها ونخص بالذكر اليمانيين، والعُمانيين، والشَّيرازيين¹، وكان هذا بسبب الظروف الطبيعية القاسية وللإضطرابات التي عرفت بها البلاد العربية آنذاك².

تمكّن هؤلاء المهاجرون من تأسيس عدة مدن ومراكز تجارية هناك، ونتيجة لتأثر السكّان المحليين بهؤلاء المهاجرين اعتنق الكثير منهم الإسلام خاصة الأشراف منهم، فكان لهم بذلك إسهام كبير في نشر الإسلام على سواحل شرق إفريقيا وازدهار الحضارة العربية الإسلامية هناك³.

عرفت هذه المدن والمراكز التجارية نشاطاً تجارياً كبيراً مما أدّى إلى تحوّلها إلى في وقت لاحق إلى كيانات سياسية، تحولّت بدورها مع مرور الزمن إلى مناطق استقطاب

¹ كان من أهمّها، هجرة الصحابة رضوان الله عليهم إلى الحبشة بأمر من رسول الله عليه وسلّم. لمعرفة المزيد عن هذه الهجرة. انظر: أبي محمّد بن مالك بن هشام، سيرة الإمام بن هشام، تع: محمّد سيّد طهطاوي، المطبعة الخيرية، مصر 1329هـ، ج1، ص291، 322؛ فتحي غيث، ص48-52؛ يوسف أحمد، الإسلام في الحبشة، مؤسسة هندراوي للتعليم والثقافة، القاهرة 1354هـ/1935م، صص14، 18

² جيان، ص72

³ سيّد أحمد العراقي، معالم الحضارة الإسلامية في شرق إفريقيا في العصور الوسطى، مجلة دراسات إفريقية، ع:2، المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، الخرطوم، أبريل 1986م، ص83

للمهاجرين الجدد، تبعاً للتطورات السياسية والظروف الاقتصادية التي عرفت بها بلاد فارس وجنوب الجزيرة العربية¹.

1. أوضاع الحبشة في مطلع القرن 16م

في البداية يجب التنويه إلى وجود فرق بين الحبشة كمنطقة جغرافية وككيان سياسي، فبلاد الحبشة كمنطقة جغرافية تمتد على مساحة شاسعة من شرق إفريقيا، يحدّها من الشرق البحر الأحمر، ومن الغرب نهر النيل ومن الشمال بلاد النوبة². وتمتدّ حتى جنوب هضبة الحبشة جنوباً³.

أمّا الإطار السياسي للحبشة، فقد كان يشمل قسمين، يفصل بينهما نهر أواش، فما يقع إلى الشمال منه تأسست فيه مملكة الحبشة المسيحية، التي كانت تمتدّ من بحيرة تانا ونهر النيل الأزرق وإلى حافة هضبة الحبشة شرقاً والتي ناصبت المملك الإسلامية المجاورة لها العداء⁴. وإلى الجنوب منها تأسست الممالك الإسلامية المذكورة آنفاً والتي عُرفت بممالك الطراز الإسلامي أو بلاد الزيلع⁵.

1 تقي الدين علي بن عبد القادر المقرئ، الإمام بأخبار الحبشة من ملوك الإسلام، تح وتعل: عبد النعيم ضيفي عثمان عبد النعيم، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2006، ص15؛ الفيتوري، ص153؛ سليمان خاطر، "إفريقيا الإسلامية"، مجلة الدراسات الإفريقية، ع:5، القاهرة 1976، ص221-259؛ وانظر كذلك الخريطة في الملحق رقم 2، ص228

2 بلاد النوبة: تمتدّ على طول أجزاء نهر النيل من أسوان بجنوب مصر إلى شمال الخرطوم. وتنقسم إلى قسمين، النوبة السفلى التي تقع داخل الأراضي المصرية، والنوبة العليا التي تقع داخل الأراضي السودانية، قامت عليها في العصور الوسطى العديد من الممالك المسيحية. للمزيد انظر: مصطفى محمد سعد، الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 2011، ص24، 163-164؛ عبد الحليم نور الدين، تاريخ وأثار النوبة، مكتبة الإسكندرية، مصر 2011، ص2

³ الفيتوري، ص ص156-157

⁴ عرب فقيه، ص76؛ محمد شاعر، التاريخ المعاصر لشرق إفريقيا، ط2، المكتبة الإسلامية، القاهرة 1997، ص20

⁵ سُميت بممالك الطراز لأنها تقع بمحاذاة البحر كالتراز له. وهي سبع إمارات كلّ منها تمثل سلطة مستقلة، والتي تُعرف كذلك ببلاد الزيلع التي تُنسب إلى قرية من قرأها ثم غلب اسمها عليها. انظر: عرب فقيه، ص163

أ. مملكة الحبشة المسيحية

تُعتبر الحبشة من أهم الممالك المسيحية في شرق إفريقيا، انتشرت بها المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي على المذهب الأرثوذكسيّ اليعقوبي¹. وقد عُرف عن الأحباش تعصبهم الديني والمذهبي، حتّى أنّهم كانوا يعتبرون أنفسهم حُماة للمسيحية في الشرق، وهذا ما يفسّر عداءهم الدائم للممالك الإسلامية المُجاورة لهم، لكن رغم هذا كان يتمّ تعيين مطرانهم من طرف بطريق الكنيسة القبطية في الإسكندرية بمصر، وبالتالي كانوا يستمدّون مشروعيتهم الدينية والسياسية من العالم الإسلامي².

كان الأوروبيون قبل وصولهم إلى شرق إفريقيا يعتقدون بوجود مملكة مسيحية في شرق إفريقيا تُدعى الحبشة، يحكمها رجل دين يُدعى القديس يوحنا، يمتلك ثروات كبيرة، لهذا سعوا للوصول إليه والتّحالف معه ضدّ المسلمين، إلّا أنّهم لم يتمكّنوا من ذلك، بسبب بُعد المسافة وجهلهم بالمنطقة³.

وخلال القرن 9هـ/15م تعزّزت العلاقات بين الأوروبيين والأحباش، وتبادل الطرفان السّفراء والوفود، وأصبحتا يسعيان لتحقيق تحالف بينهما ضد القوى الإسلامية المحلية وضد الممالك خاصّة على عهد الأسرة السّليمانية⁴. وفي هذا الإطار راسل ملك أرغون ألفونسو

¹ اليعقوبية: هي إحدى الفرق المسيحية الأساسية، ويعود تأسيس الكنيسة اليعقوبية في الحبشة إلى الفترة الممتدّة بين 330 و340م، وكانت تابعة لكنيسة الإسكندرية، يقول أصحابها الذين تأثّروا باليهودية بالوهية المسيح عليه السلام، انتشرت في مصر والنوبة والحبشة. انظر: الشّهرستاني، ص254، *Dictionnaire* Michel mourre et autre, *Encyclopedique d'histoire*, imprimerie mame a tours et GEA, Paris 1978, pp1515 – 1516.

² المقرئزيّ نقيّ الدّين عليّ بن عبد القادر، السّلوكة لمعرفة دول الملوك، تح: محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت 1418هـ/1997م، ص122؛ أحمد الحنفي، ص9

³ للمزيد. انظر: زاهر رياض، ص15

⁴ الأسرة السّليمانية: يَعتبرُ الأحباش فترة حكم هذه الأسرة بالعصر الدّهبيّ لمملكة الحبشة، ويعتقدون أنّ هذه الأسرة تعود في أصولها إلى النّبيّ سليمان عليه السلام، الذي تزوّج ببلقيس ملكة سبأ، وهذا حتّى يكون لهذه الأسرة صبغة القداسة. وتولّت الحكم في الحبشة منذ 1260م، وبوفاة الملك زرع يعقوب عام 1468 انتهى حكم هذه الأسرة. لمعرفة المزيد عن هذه الأسرة. انظر: Kevine shelington, *Encyclopedia of African history*, an amprint of the taylor Francis groupe new York 2005 vol1, p852; Trimingham, op. cit., p44,46

الفصل الأول: الأوضاع العامة في المشرق الإسلامي مع بدايات القرن 10هـ/16م

ملك الحبشة زره يعقوب¹، واقترح عليه تحويل مجرى نهر النيل عن مصر، في الوقت نفسه تهاجم فيه أراغون بيت المقدس لاستردادها من المسلمين، لكنهم فشلوا في ذلك².

وبعد بروز البرتغال كقوة بحرية، سعت إلى توطيد علاقاتها بالحبشة، ففي عام 995 هـ/1487م أرسل ملك البرتغال دوم جواو الثاني³ Dom Joao (1481-1495) بعثتين، الأولى بحرية عن طريق المحيط الأطلسي بقيادة بارثاناند دياز Bartholomeo de diaz⁴، والثانية برية عبر مصر بقيادة بدرو دي كوفيلهام⁵ Pedro de cavilhame، وألفنسو دي بافيا Alfonso de Pavia وهذا للبحث عن مملكة القديس يوحنا، وإيفاده بتقرير شامل ودقيق عن أحوال المشرق الإسلامي، وخاصة عن الأحوال الداخلية لدولة المماليك، كما طلب منهما البحث عن طريق جديد للهند، ليكون بديلا عن الطريق القديم الذي يحتكره المماليك⁶.

¹ زره يعقوب: (1443-1468) هو آخر ملوك الحبشة الكبار، سعى للتخالف مع الأوروبيين من أجل القضاء على الوجود الإسلامي في المنطقة، خاصة بعد أن عرفت مملكة الحبشة الضعف والانحطاط خلال القرن 16م وتعرضت لاجتياح المسلمين. انظر: Trimingham, op.cit., p76: فتحي غيث، ص130

² الزمال، ص82

³ دوم جواو الثاني: وُلد في عام 1502، وخلف والده ألفنسو على عرش البرتغال في عام 1522، كان متشوقاً لنشر المسيحية وتوسيع رقعتها. توفي عام 1557. وبذلك يكون قد حكم مدة 35 سنة. للمزيد انظر: محمد عبد الحسين عبود الحلي، "عدن والمطامع البرتغالية في القرن 16م"، مجلة الوثيقة، ع:15، السنة الثامنة، ذي الحجة 1409هـ/ يوليو 1989م، مركز الوثائق التاريخية المنامة، مركز عيسى الثقافي، المنامة، البحرين، من ص150 إلى 158، ص159

⁴ بارثولوميو دياز: هو من أعظم المكتشفين البرتغاليين في المحيط الأطلسي خلال القرن 15م، وُلد في عام 1450. ولم يُعرف الكثير عن بدايات حياته، قاد أول رحلة برتغالية لاستكشاف رأس الرجاء الصالح عام 1488، توفي عام 1500م. انظر: www.encyclopedia-britanica.com/biographie تاريخ الاطلاع 8 نوفمبر 2021

⁵ دي كوفيلهام: كان الخادم الخاص لملك البرتغال يوحنا الثاني، يُجيد عدة لغات منها العربية. لهذا اتخذ ملكه كجاسوس له بعث به كسفير له عند ملك الحبشة قسطنطين الثاني الذي رفض عودته للبرتغال واتخذ كمشترار له. مكث هناك 33 سنة، ثم عاد إلى لشبونة مع بعثة برتغالية برئاسة أخرى ألفاريس عام 1525م، وتوفي في نفس السنة.

⁶ لمعرفة المزيد عن رحلة دي كوفيلهام. انظر: Paul Frederique charle Danvers *The portuguese in India*, London 1894, p29-30-31; Gaffaral, *La conquête de l'Afrique*, Librairie hachet, paris 1892, p92-93; José carlos de faria, *L'épopée maritime portugais*, Bruxeelle, Belgique, 1898, p22

توفي دي بافيا في الطريق، بينما تعذر على كوفيلهام العودة إلى البرتغال، حيث اتخذ ملك الحبشة الإسكندر¹ Alexendre (1478م-1494م) مستشاراً خاصاً له، رغم هذا تمكن من أن يبعث بتقريره عن طريق جواسيس برتغاليين إلى ملكه في البرتغال، ومن هنا يمكن القول إن بعثة دي كوفلهام كانت بمنزلة الطلائع الأولى للغزو البرتغالي لشرق إفريقيا²، لكنها لم تشكل أي تهديد على المدى القريب، لا على الممالك ولا على إمارات الطراز الإسلامي، بسبب الحصار الذي كان مفروضاً على الحبشة، ولم تكن هذه القوى تُدرك أنّ الخطر المحدق بها قد يأتيها من الجنوب³.

وعند وصول أولى طلائع البرتغاليين بقيادة فاسكو دي غاما⁴ Vasco da gama إلى شرق إفريقيا والهند عام 904هـ/1498م تبين لهم أنهم فعلاً وصلوا إلى مملكة القديس يوحنا، لهذا أرسل قائد الحملة بعثة إلى الحبشة عبر مرتفعات إثيوبيا والصومال، وعند وصولهم اندهش أعضاؤها من كثرة الكنائس بها ومدى تمسك الأحباش بالمسيحية، وعند وصول الحملة البرتغالية الثانية بقيادة كابرال إلى ماليندي في عام 1500م أرسل هذا الأخير بعثة أخرى إلى الحبشة، لكن لم يُعرف مصيرها بعد ذلك⁵.

¹ الملك اسكندر بن أدامس: كان يُلقب كذلك بقسطنطين الثاني وكان في حرب دائمة ضدّ مملكة عدل الإسلامية، ولهذا الغرض عقد تحالف مع ملك البرتغال يوحنا الثاني. انظر: Trimingham, op,cit., p42

² للاطلاع أكثر على مراسلات ملوك البرتغال مع ملوك الحبشة قبل وصول فاسكو دي غاما إلى الهند. انظر: فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ (93-1134هـ/711-1720م)، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 1997م، ص106-107-108؛ Louis jMorié, *Histoire de l’Ethiopie depuis les temps plus reculés jusqu’a nos jours*:(Nubie et l’Abyssinie), T2, librairie maritime et Coloniale, Paris1904, pp 225- 227

³ أكد من خلاله لملكه في لشبونة على إمكانية الوصول بحراً إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، وأكد له أنّ التجار العرب والهنود في المنطقة يعرفون تلك البلاد معرفة جيّدة. انظر: جيان، ص207

⁴ فاسكو دي غاما (1446-1524): هو من أعظم المكتشفين البرتغاليين في عصر الكشوفات الجغرافية، اكتشف عام 1498 طريق بحريّ جديد إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح. انظر:

George Delvaux, *Vasco De gama et les découvertes maritimes des Portugais, société générale d’imprimerie,Bruxele 1897, pp7-8*

⁵ Sousa faria, *The history of the discovery and conquest of india by theportuguese*, translated into english by cap john stevens, London 1695, vol1, p56.

وكان من أبرز السفراء البرتغاليين الذين أدوا دوراً كبيراً في توطيد العلاقات بين البرتغال والحبشة السفير الفرنسي سكوآلفريس¹ F.Alvares الذي تمكّن من إقناع الملك الحبشي لبنا دنجل² L.Dengel (1508-1540) من توطيد علاقات دولته بالبرتغال³.

ومع اشتداد التهديدات الإسلامية على الحبشة وهزيمة الأسطول المملوكي أمام نظيره البرتغالي في معركة ديو، أرسلت الملكة هيلينا في عام 916هـ/1510م مبعوثاً لها يدعى ماتيوي إلى ملك البرتغال إمانويل، وحملت رسالة تتضمن طلب التحالف مع قواته العسكرية الموجودة في البحر الأحمر ضدّ القوى الإسلامية المحلية في الحبشة وضدّ المماليك⁴. وقد حظي هذا السفير باستقبال حارّ من طرف الملك البرتغالي، الذي أكّد إمكانية ربط هذا التحالف⁵.

واستغلّ البوكيرك اندلاع النزاع بين دولته والمماليك، وعرض على ملكه مشروع لتغيير مجرى نهر النيل نحو البحر الأحمر، وحرمان مصر من مياهه، لإخضاعها⁶. كما طالب ملك الحبشة لبنا دنجل من البرتغاليين بناء قواعد عسكرية في كلّ من سواكن ومصوع وزيلع، ووعدهم بمساعدتهم على ذلك بإمدادهم باليد العاملة، وأشار إلى

¹ فرانسيسكو ألفريس: هو رجل دين برتغالي، وصل إلى الحبشة كمبعوث من طرف ملك البرتغال إيمانويل الأول برفقة بعثة تتكوّن من 16 عضو من بينهم رسول الملكة هيليناماتيوي. بقيت البعثة ست سنوات في الحبشة، لتعود في 1525 إلى البرتغال. دون وصفاً دقيقاً ومفيداً عن الحبشة عند اندلاع ثورة الإمام إبراهيم، ويعتبر وصفه هذا من أحسن ما كُتب عن الحبشة خلال هذه المرحلة. انظر: الصيرفي، ص163

² لبنا دنجل(1508-1540): المعروف بداود الخامس David 5، الذي عجز عن التصدي لثورة أحمد بن إبراهيم. لهذا طلب المساعدة من البرتغاليين. توفّي في عام 1538. انظر: عرب فقيه، ص76

³ للمزيد انظر: عبد الرحمن حسن، صص 158-159-160

⁴ أحمد بن خيرة، الصراع الإسلامي الزيلعي والمسيحي الحبشي، من قيام الأسرة السليمانية إلى التدخّل البرتغالي، خلفياته، تجلياته، وأبعاده(966-669هـ/1270-1559م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة الجزائر، أبو القاسم سعد الله، جامعة الجزائر "2" 2018، ص254

⁵ أوليا جليبي، الرحلة إلى مصر والسودان الحبشة، تر: حسين مجيب المصري وآخرون، مج:2، دارالآفاق العربية، القاهرة، 2000م، ص481؛ Alvares, op.cit., pp 390-391

⁶ شاكر، ص28؛ George Delvaux, op.cit., p35

أنّ هذه القواعد ستكون انطلاقة لمهاجمة الحرمين الشريفين في مكّة والمدينة واليمن ومصر، لكن بعدما اطلع ملك الحبشة على خريطة البرتغال وقارنها بخريطة بلاده استصغر قوة البرتغال وشكك في قدرتها على تنفيذ هذا المشروع، لهذا عرض على كلّ من ملك إسبانيا وملك فرنسا أن يشاركا في هذا المشروع، وبذلك يكون في مقدور الممالك الثلاثة المتحالفة الوقوف في وجه المسلمين، لكن البرتغاليين تمكّنوا من إقناع ملك الحبشة بقدرة البرتغال على السيطرة على هذه المناطق¹.

وبحلول عام 920هـ/1514م اقترح ملك البرتغال إيمانويل على ملكة الحبشة هلينا عقد تحالف بين دولتيهما وإسبانيا وفرنسا ضدّ المسلمين في مصر والحبشة، غير أنّ ذلك لم يتحقق، بسبب إلحاح البرتغاليين على كثاكة الأحباش هذا ما رفضه هؤلاء².

وبعد وصول البرتغاليين إلى الهند وتحول الطرق التجاريّة إلى المحيط الأطلسي عبر المحيط الهندي، لم يعد للحبشة أهميّة بالنسبة لهم كما كانت من قبل، لأنّها كانت خارج مجال الطرق التجاريّة العالميّة³.

ب. ممالك الطّراز الإسلامي في بلاد الزّيلع

تُعتبر ممالك الطّراز الإسلامي جزءاً من أرض الحبشة المُقابلة لأرض اليمن والمحيط الهندي، وتحتل منها مساحة شاسعة -حوالي ثلاثة أرباع مساحة الحبشة-، تمتدّ من منطقة البحيرات العظمى غرباً وإلى بحيرة تانا جنوباً، إلى البحر الأحمر شرقاً وهي بذلك تعتبر المنفذ الوحيد لمملكة الحبشة للوصول إلى البحر الأحمر⁴.

¹ Alvares, op.cit., pp311-312

² Stéphanie de jesus, *L'image de l'orient dans les récits des voyages portugais au seizième siècle* : vers une nouvelle image mythique de l'orient, thèse doctorat en études ibérique et ibéro-américaine, université bordeaux Montaigne 2014, p132

³ Gsell Stéphanie, op.cit., p28

⁴ أبو العباس أحمد القلقشنديّ، صبح الأعشى، المطبعة الأميريّة، القاهرة 1333هـ/1915م، ج5، ص324؛ محمّد عبدالله نقيرة، انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له، دارالمريخ، الرياض 1402هـ/1982م، ص180

يُقدر عدد هذه الإمارات بسبعة وهي مُستقلة عن بعضها عن بعض، وقد عُرف عنها طابعها التجاري لهذا كانت مسالمة لجيرانها، وتتمثل فيكل من دوارو *Dawro*، وبالي *Bally*، وأرابيني *Arabyini*، ودارا *Darra* ومن أهمها وأقواها إمارتا هدية¹ *Hadya*، التي اشتهرت بتجارة الرقيق² وإمارة أوفات *Ifatt* التي يمكن اعتبارها أقواها وأكثرها عداوة للحبشة والتي أطلق عليها المؤرخون العرب جبرت³، والتي كانت في صراعٍ مستمرٍ مع الحبشة لكنّها لم تقدر على ذلك، وانهارت أمامها منذ 822هـ/1420م⁴.

حينها انتقل حُكامها من أبناء سعد الدين⁵ إلى اليمن حيث ساعدهم حُكامها على إنشاء إمارة عدل واتخذوا من مدينة ذكر جنوب هرر عاصمةً لهم، واستمروا في مقارعة الحبشة بمساعدة اليمن⁶.

وتكاد المصادر التاريخية تُجمع على أنّ هذه الممالك عُرفت بطابعها التجاري والسلمي وانقياد حُكامها وتبعيتهم لملك الحبشة، الذي كان يُعين حُكامها وبدورهم كان عليهم أن يسدّدوا له الضرائب ويقدموا الهدايا المختلفة المتمثلة في الحرير والذهب⁷. ومن مظاهر تسلّط الحبشة على هذه الممالك الإسلامية، أنّه كان يُمنع على المسلمين حمل أو ارتداء اللباس الحربي ولا حتّى امتطاء الخيول⁸.

¹ تشير بعض المصادر التاريخية أنّ مملكة هدية كانت مجبرة على تقديم فتاة مسلمة، لملك الحبشة الذي يقوم بتتصيرها ثم يتزوجها، وتذكر هذه المصادر التاريخية أنّ الملكة هيلينا أصلها من هدية تمّ تتصيرها وتزوجها ملك الحبشة. انظر: عرب فقيه، ص 88؛ Trimingham, op.cit., P10

² لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع. انظر: فتحي غيث، ص 108

³ جبرت: اسم حبشي الأصل ومعناه عباد الله وإليها يُنسب المؤرخ المعروف بالجبرتي. انظر: نفسه، ص 107

⁴ للمزيد انظر: المقرئ، الإمام.....، ص 33

⁵ سعد الدين: هو من أهم ملوك بلاد الزيلع المسلمين، بعد استشهاده أُطلق اسمه عليها تخليداً لذكراه. للمزيد انظر: مُحمّد عبد الله النقيرة، انتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ للنشر، الرياض 1402هـ/1982م، ص 227

⁶ نفسه، ص 240 وانظر كذلك الملحق: رقم 4 ص 230

⁷ أوليا جليبي، ص 481؛ Trimingham, op. cit., p78

⁸ Alvares, op.cit., p78

ورغم هذا التسلط، لم تُحاول هذه الإمارات التخلّص من هذه الأوضاع بل على العكس رضخت للأمر الواقع وتعايشت معه باستثناء إمارة عدل التي كانت دوماً متمردة وخاضت لذلك عدّة حروب، لكن دون جدوى¹.

وبسبب موقعها الاستراتيجي المتفتح على العالم الخارجي، أصبحت عدل محلّ أطماع القوى المتنافسة على النفوذ البحري آنذاك، لهذا سعى حُكّامها بعد عام 922هـ/1517م إلى توثيق صلاتهم بالعثمانيين حيث تحصّلوا منهم على الدّعم الماديّ والمعنوي².

لكن في الأخير تمكّنت مملكة الحبشة من هزيمتها، هذا ما أدى الى انكماش حدودها لتصبح مجرد إمارة صغيرة بين هرر وسواحل زيلع والصّومال، وانتهى بذلك دور عدل في الجهاد ضدّ الحبشة، ليبدأ دور إمارة هرر³ بقيادة الإمام أحمد بن إبراهيم⁴، أو ما يُعرف في تاريخ المنطقة بالجهاد العظيم، إذ تمكّن هذا الأخير من زعزعة أركان مملكة الحبشة وجعلها تتراجع إلى المناطق الداخليّة، هذا ما سمح بنشر الإسلام في داخل هضبة الحبشة معقل النّصرانيّة⁵. وقد تزامن هذا مع استيلاء العثمانيين على عدّة مراكز على سواحل البحر الأحمر ومنها سواكن⁶ (باب السودان)، مصوع (باب أثيوبيا)، زيلع وبربرا⁷.

¹ ابن فضل الله العمريّ شهاب الدّين أحمد بن يحيى، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق حمزة أحمد عبّاس، منشورات المجمع الثّقافيّ، أبو ظبي 1423هـ/1402م، ج4، ص ص61، 63

² يوسف أحمد، ص34

³ إمارة هرر: يُطلق اسم منطقة هرر على مقاطعة ومدينة ساحليّة تقع على البحر الأحمر، محصورة بين مدينتي بربرة زيلع الصّوماليّة، حيث يقابلها من الجهة الغربيّة مضيق باب المندب، كانت عاصمتها دُكر حتّى عام 1531 حيث انتقلت إلى هرر. انظر: بن خيرة، ص ص134-135

⁴ الإمام أحمد بن إبراهيم: المعروف بالجران والمعروف كذلك بصاحب الفتح لأنّه تمكّن من فتح الحبشة، خاض حرباً مقدّسة ضدّ الأحباش المسيحيّين منذ 1527 وتمكّن من إخضاع كامل الحبشة، استشهد عام 1543. للمزيد انظر: عرب فقيه، ص ص21-23؛ بن خيرة، ص34

⁵ يوسف أحمد، ص104، 106؛ هابرلاند، ج5، ص779؛ Duarte barbosa, **Discription of the coasts of east Africa and malabar**, translated into english by the hon. henry E.J. Stanlay, printed for the hakluyte societe, London, s d, p17

⁶ سواكن: هي جزيرة صغيرة بها ميناء قريبة جدّاً من الساحل الغربيّ للبحر الأحمر. انظر: القلقشندي، ص 274

⁷ حمدي سالم، ص295

هذا بالإضافة إلى وجود كيانات سياسية صغيرة مثل كامران، في أرخبيل دهلك¹، والتي تنتشر بالقرب من السواحل الغربية للبحر الأحمر والمقابلة لمدينة جدة².

كان النظام السياسي السائد في هذه الممالك هو النظام الملكي، وكان للحبشة دور كبير في تسيير شؤونها، باستثناء مملكة إيفات³. ومع مرور الزمن أصبح حكامها بمنزلة نواب لملك الحبشة في ممالكهم، بحيث لا يستطيع الواحد منهم أن يتولّى الحكم إلا بعد موافقة ملك الحبشة أو بأمر منه حتّى وإن وجد تأييداً داخلياً، والذي كان يُؤلّي عليها من يرصاه ويعزل من لا يثق به، ولم يكن هؤلاء الحكام قادرين حتّى على تنفيذ القرارات التي يُصدرونها دون موافقة ملك الحبشة⁴، وهذا ما يعكس درجة التفكك والضعف الذي آلت عليه⁵.

تعود أسباب هذا الضعف إلى تشتت هذه الإمارات وعجزها عن تحقيق وحدة سياسية فيما بينها رغم وحدة عقيدتها، وإلى طبيعة المنطقة الجغرافية التي حالت دون تحقيق نظام سياسي موحد بينها، وتشير بعض المصادر البرتغالية إلى أنّ ذلك يعود إلى تشتت هذه الإمارات وانفصالها بعضها عن بعض بالمسيحيين وبعض القبائل الوثنية⁶.

في حين أرجعته بعض المصادر الإسلامية إلى أنّ هذه الإمارات كان لها أهداف تجارية ولم تكن لها تطلّعات سياسية ولا عسكرية، ولم تكن تمتلك حتّى جيوش نظامية، كما أنّ المهاجرين العرب الأوائل الذين انتقلوا إلى المنطقة عبر فترات، نقلوا معهم خلافاتهم

¹ أرخبيل دهلك: يقع بين اليمن والحبشة، ومن ضمنها جزر كمران التي احتلّها القائد البرتغالي ليو سواريز عام 1517 لتكون مركزاً لتموين أسطوله داخل البحر الأحمر. للمزيد انظر: شهاب الدّين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحمويّ الرّوميّ البغداديّ، معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1397هـ/1977م، ص 492؛ Barbossa, op.cit., p52

² انظر: محمّد بن عبد المنعم الحميريّ، الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عبّاس، ط2، مطبعة لبنان، بيروت 1984، ص 332؛ عماد الدّين إسماعيل بن محمّد بن أبي الفدا، تقويم البلدان، دار صادر، ص 371؛ محمّد

صلاح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدّار السّودانية للكتب، الخرطوم 1401هـ/1981م، ص 37-38

³ الفلقشنديّ، ج 8، ص 11؛ المقرئزيّ، الإمام، ص 88-89

⁴ بن خيرة، ص 114

⁵ نفسه، ص 333

⁶ Alvares, op.cit., p78

السياسية والمذهبية، ولهذا ظهر العداء بينها وكان يستحيل تحقيق التوافق فيما بينها¹.

وتتفق مصادر إسلامية مع أخرى برتغالية على أنّ الأمر يعود إلى سياسة مملكة الحبشة في المنطقة والتي كانت تعارض قيام أية وحدة سياسية بين هذه الممالك لأنّ هذا فيه تهديد لمصالحها، فكانت بذلك تسعى دوماً على الإبقاء على الأوضاع على حالها لأنّه ولو قدّر لها أن تتحد لكانت تشكّل خطراً حقيقياً على وجود مملكة الحبشة².

2. الممالك الإسلامية في شرق إفريقيا المطلة على المحيط الهندي

مع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م كان ساحل شرق إفريقيا يعيش عصره الذهبي، حيث برزت فيه عدّة مدن على شاكلة دولة المدينة *CityTown* عرفت ازدهاراً وتطوّراً كبيرين، ومن أهمّها: "ماليندي *Melindé* ومقديشيو، وكلوة *kilwa* ومومباسا *Mombaça*، وتجلّى هذا الازدهار في عمرانها المتقن وأنظمة الري الدقيقة وأنظمة الصرف الصحي وفي الزراعة والصناعة، وذلك بشهادة أوائل البرتغاليين الذين وصلوا إلى المنطقة مع مستهل القرن 16م، والذين انبهروا بالمستوى الاقتصادي والحضاري والعمراني الذي بلغته هذه الإمارات³.

فعند وصول فاسكو دي جاما في رحلته الأولى إلى مقديشيو *Muqdisho*⁴ وجدها مدينة كبيرة مزدهرة بها منازل وقصور متعدّدة الأدوار، ومُحاطة بتحصينات، كما وجد بها ميناء دائم الحركة التجارية، تأتيه السفن التجارية من الهند ومن اليمن ومن غيرها من

¹ العمري، ص 61

² نفسه، ص 61؛ Trimingham, op. cit. , p66

³ أ.أوغث وآخرون، تاريخ إفريقيا العام، اليونيسكو، مج: 5، حسين درغم وأولاده، الملخص، لبنان، 1992، ج 5، ص 815؛ وانظر كذلك الملحق رقم 2، ص 228

⁴ أدت مقديشيو دوراً حضارياً كبيراً يُضاهي الدور الذي قامت به القيروان أو القاهرة آنذاك. وهي اليوم عاصمة لدولة الصومال. انظر: حسن عبد الرحمن، ص 257-258

المناطق المجاورة¹. ومما ساعد على تطوّر وازدهار هذه الإمارات تلك الهجرات العربيّة التي وصلت إليها من جنوب شبه الجزيرة العربيّة (اليمن وحضرموت وعمان)². وإلى الجنوب من موقديشيو وحتّى موزمبيق³ تمتدّ أرض الزنج أو كما يسمّيها الرّحالة العرب زنجبار التي تقع بمحاذاة بحر الزّنج⁴. وتضمّ عدّة إمارات نذكر من أهمّها: مومباسا وكلوة التي كانت تعتبر من أهمّ المملك الإسلاميّة في شرق إفريقيا، والتي انبهر بها هي الأخرى البرتغاليّون وبمستواها الحضاريّ والاقتصاديّ عند وصولهم إليها⁵.

هذا إلى جانب إمارة ماليندي التي عرفت هي الأخرى الرخائها والازدهار الاقتصاديّ، وكانت من أهمّ منافسي إمارة مومباسا خلال القرن 16م، لهذا سعى البرتغاليّون إلى أن يقيموا علاقات متينة مع حكامها، وهذا حتّى يضمنوا تزويد سفنهم بما يحتاجونه من ماء ومؤونة، قبل انطلاقتهم للوصول إلى الهند⁶. والتي كانت تضم إلى جانبها سفالة⁷.

¹Barbosa , *A discription of the coasts of east Africa and malabar*, op. cit., p31; Anonyme, *Ajournale of the first voyage of vasco da gama*, (1497- 1499), trenslated and introduction by E. G.Ravenstein ,F,R ,G ,S, printed for the hakluyte societe. London ,SD, p57

² الفيتوريّ، ص 153

³ موزمبيق: جزيرة صغيرة تقع على سواحل شرقإفريقيا. لمعرفة المزيد عن هذه الجزيرة. انظر:

Joseph François Lafitau, *Histoire des découvertes et conquêtesdes portugais dans le nouveau monde*,T1, la chambre royaledes libraire imprimeur de paris, Paris 1732, P82

⁴ زنجبار: معناها بلاد الزّنج وأصل الكلمة ليس عنصريّا كما يفسّرها الأوروبيّون،فكلّ من يسكن بلاد الزّنج هم زنج، ليسمعناه أنهلك من هوأسود هو زنجيّ، فالأحباش والسودانيّونسود البشرة لكنّ العرب لا يسمّونهم زنجاً.انظر: محمد بن ناصر العبوديّ، *جولة في جزائر البحر الزّنجيّ*، المطابع الأهليّة للأؤفست، الرياض، 1402هـ/1982م، ص 9

⁵ سالم، *شرق إفريقيا: الساحل في كتاب تاريخ إفريقيا العام*، ص 828؛

Barbosa, *A discription of the coastsof east Africa and malabar*, op.cit., p13

⁶ تشير العديد من المصادر العربيّة ومنهم النهروالي بأنّ الملاح العربي ابن ماجد وبأمر من حاكم ماليندي ساعد فاسكو داغاما للوصول إلى الهند عام 1498م. لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع. انظر: النهروالي، ص ص 18-19؛ جوزيف، ص 30؛ كاريخال، ص 261

⁷ *سفالة*: هي تسميةٌ أطلقها عليها التجار العرب ومعناها الأراضي المنخفضة، تقع في أقصى جنوب هذه الإمارات. سكانها طيبيون ومسالمون، كانوا يعيشون في رخاء وعند وصول البرتغاليين الى المنطقة كانت تابعة لماليندي، و تعتبر من أغنى بلاد الزنج لاحتوائها على مناجم الذهب. انظر:

Barbosa, *a discriptionof the coasts of east Africa and malabar*, op. cit., pp 6-9

والى جانب هذه الإمارات كانت تتناثر مستوطنات صغيرة تعتمد في اقتصادها على الزراعة والصيد، والعديد منها كان تابعاً لكلوة أو لمومباسا¹.

جمعت هذه الإمارات بين السكّان المحليّين الزّنوج والعرب المسلمين الوافدين بديانتهم الجديدة، وحدث بينهما تجانس ديني وثقافي فكان أن ظهرت الحضارة السّواحليّة التي تعتبر امتداداً للحضارة الإسلاميّة في ثوبها الإفريقيّ، والتي استعملت اللّغة السّواحليّة التي بدورها استمدّت الكثير من اللّغة العربيّة².

وما يُلاحظ على حُكّام هذه الإمارات، أنّهم اكتفوا بلقب شيخ كما كان الحال بالنّسبة لحكّام مقديشيو وبراوّة، وهذا ما يؤكّد احترام هؤلاء لسلّاطين الممالك والعثمانيّين فيما بعد، ويساعد الشّيوخ في ذلك مجلس شورى المدينة يتألّف من حكماء وأعيان من المدينة ويتمتّع بسلطات واسعة، ويُشبهه إلى حدّ كبير النظام الجمهوري³.

والجدير بالذّكر أنّ التّجار المسلمين لم يتمكّنوا من تجاوز المنطقة الممتدّة بين موزمبيق ومدغشقر، وهذا لصعوبة حركة الملاحة البحريّة بها بسبب قوّة الرّياح والتيارات التي تهب على المنطقة طول العام، خاصّة وأنّ الإمارات الإسلاميّة المذكورة لم تكن تمتلك سفناً مهيأة لمثل هذه الطّروف⁴.

وما يُقال عن ممالك الطّراز الإسلاميّ في الحبشة، يُقال عن المملك الإسلاميّة التي تقع إلى الجنوب منها على ساحل المحيط الهنديّ، فبالرّغم من انتمائها لنفس العقيدة ونفس الحضارة، إلّا أنّها لم تتمكّن من تحقيق الاندماج السّياسي فيما بينها، ويعود ذلك

¹ حمدي سالم، ص 830، وانظر كذلك الملحق رقم 2، ص 228

² زيد بن طالب المعوليّ، "العُمانيّون ونشر الإسلام والثّقافة العربيّة في شرق إفريقيا"، المؤتمر الدّوليّ للإسلام في إفريقيا (26-27 نوفمبر 2006)، جمعيّة الدّعوة الإسلاميّة العالميّة، طرابلس، ج 10، ص 426؛ أوغث، ص 831-832

³ السيد أحمد العراقي، معالم الحضارة العربيّة الإسلاميّة في شرق إفريقيا، مجلة دراسات إفريقيّة، ع 2، المركز الإسلامي الإفريقي بالخرطوم، شعبان 1406هـ/أفريل 1986م، ص 85-86؛ وانظر أيضاً:

Duarte barbosa, *Adiscription of the coasts of east Africa and malabar*, op. cit, p15

⁴ كاريخال، ص 234

رُبَّما إلى العوامل الجغرافية التي لم تكن تساعد على ذلك، أو إلى أن هذه الممالك كان طابعها تجارياً بحتاً، وكانت مسالمة منذ القديم، إذ لم تكن لها جيوش نظامية ولا أساطيل بحرية رغم ثرائها الاقتصادي، كما أنه لم تكن لها أهداف سياسية كتحقيق الاندماج فيما بينها مثلاً¹. بل على العكس اختلفت ولاءاتها من إمارة لأخرى، فبعضها كان تابعاً لكلوة، والبعض الآخر كان مستقلاً، والآخر أعلن ولاءه للمماليك في مصر، وفي الكثير من الأحيان كانت تتدخل فيما بينها الحروب لسبب أو لآخر، كالنزاع المشهور بين ماليندي ومومباسا وهذا ما جعلها هدفاً سهلاً للبرتغاليين². ويذهب بعض المؤرخين إلى أن العرب المتواجدين بالمنطقة نقلوا معهم خلافاتهم السياسية بعد هجرتهم، فبالإضافة إلى انتماءاتهم إلى بطون عربية مختلفة، نجدهم ينتمون إلى مذاهب مختلفة من سنة وإباضية وزيدية³. لهذا ظهر بينها العداء وأصبح من المستحيل تحقيق وحدة سياسية فيما بينها هذا ما استغلّه البرتغاليون للتغلغل في المنطقة والزيادة في زرع الفتنة فيما بينها⁴.

فعلى غرار بقية أقطار العالم الإسلامي عانت الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا من التفرقة والانقسامات السياسية، بالإضافة إلى ضعفها عسكرياً، رغم رخائها اقتصادياً هذا ما سهّل من مهمة البرتغاليين للسيطرة عليها وإخضاعها.

¹ عبد الرحمان بن علي، ص 58

² أيد البرتغاليون ماليندي في صراعها مع ممباسا ممّا أدّى في نهاية المطاف إلى انهيار الإماراتين، وهذا ما ساعد البرتغاليون على السيطرة على بقية الإمارات الأخرى. انظر: standers, op. cit., p28

³ انظر: جيان، ص 73؛ الأسطل، ص ص50، 61؛ فاطمة عبد الوهاب عبد الله عبد الصمد، الأثر الحضاري للإمارات الإسلامية في كينيا ودورها في حركة الجهاد الإسلامي ضد البرتغاليين (911-1143هـ/1505-1730م)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم 2019.

⁴ standers, op. cit., p28; Danvers, op. cit., p46

المبحث الرابع

أهم القوى الإسلامية المحليّة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة

عند وصول البرتغاليون إلى الهند مع بدايات القرن 10هـ / 16م كانت منطقة جنوب شبه الجزيرة العربيّة مقسمة إلى كيانات سياسية وإمارات صغيرة، يحكمها أمراء محليون، وقد تعرّضت هذه الإمارات للتهديدات الخارجية خاصة من طرف البرتغاليين التي اعتبروها من ضمن مناطق نفوذهم.

1. اليمن

كانت أوضاع اليمن عند وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا والهند على أسوأ حال، فضلاً عن التّفكّك والتّجزئة عرفت تناحر وصراع دينيّ وطائفيّ، هذا ما جعلها سهلة المنال بالنسبة لأيّ تدخّل أجنبيّ. فعلى الصّعيد السّياسيّ كانت إمارة الطّاهريّين السّنيّة وعاصمتها زبيد¹ من أقوى الكيانات السّياسيّة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة، لامتلأها لجيش قويّ²، ما سمح لها ببسط سيطرتها حوالي ثلثي مساحة اليمن، والتي كانت تضمّ أهمّ المدن كصنعاء وعدن وتعز ومخا³. ولم يتحمسوا لمساندة المماليك في جهادهم ضد البرتغاليين، لهذا سعوا لإخضاعهم لسيطرتهم⁴.

¹ زبيد: هي مدينة عريقة في جنوبغرب اليمن على ساحل باب المندب، تُنسب إلى الوادي الذي بغيرها. كان لها دور كبير في نشر الإسلام وتثبيتته في شرق إفريقيا. انظر: ياقوت الحموي، ص131؛ عبد الحكيم العفيفي، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1421هـ / 2000م، ص263

² النهروالي، ص 16

³ مخا: هي مدينة يمنية على المحيط الهندي، بها ميناء تجاري هام يلتقي فيه التجار من الهند والبلاد المجاورة لتبادل السلع. للتوسع، انظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ج11، ص 89

⁴ إيفانوف، ص145-146؛ محمد كريم إبراهيم، "الحملة العثمانية على عدن(954هـ- 1538م)، أسبابها ونتائجها"، مجلة مركز بابل للدراسات التاريخية، ع:2، من 390 إلى 409، ج 4، ص3

كما شكّلت الطائفتان الشيعيتان المتنازعتان في المناطق الشماليّة والوسطى من اليمن، الزيدية¹ التي تركز أتباعها في المناطق الجبلية الشماليّة من البلاد وعُرف عنهم تطرّفهم المذهبي، والطائفة الإسماعيلية² التي تركز أتباعها في شمال شرق البلاد، وبحكم وقوف الصّفويّين إلى جانب البرتغاليّين اعتبر الزيدويّون أنفسهم حُلفاء للبرتغاليّين في المنطقة وأعداء للطاهريّين، وظلّوا على موقفهم هذا طيلة القرن 16م³.

والى الشرق من الدولة الطاهريّة في حضرموت قامت دولتان هما دولة اليمنيين وعاصمتها تريم⁴ ودولة الكواسر وعاصمتها الشحر⁵ التي كانت تعتبر من أكبر المدن وأغناها على الساحل الجنوبيّ لشبه الجزيرة العربيّة، وبين هذا وذاك كان هناك أمراء محليّون وشيوخ قبائل اعتبروا أنفسهم مستقلّين عن أيّة سلطة⁶.

وكان موقع اليمن الاستراتيجيّ من أهمّ أسباب اهتمام العثمانيّين به، وذلك لأجل اتّخاذه كقاعدة متقدمة للتصدّي للبرتغاليّين، وحماية حدودها الجنوبيّة، وكذلك حماية الأماكن المقدسة في الحجاز، وامتلاك موطئ قدم لهم للولوج إلى البحار الشرقيّة ومواجهة الخطر الصّفويّ من الجنوب، وبهذا اتّخذوه كأهمّ جزء من حزامهم الأمنيّ⁷.

¹ الزيدية: هو مذهب شيعي ، يُنسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. انشر بشمال اليمن منذ أواخر القرن الثالث الهجري، وقد وقف اتباعه إلى جانب البرتغاليين حلفاء الصّفويين، ضد الماليك ثم ضد العثمانيين فيما بعد. للمزيد انظر: أحمد زقزوق، ص742: إيفانوف، صص146، 150؛ حسن الأمين، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ط6، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت 1422هـ/2001م، ج13، ص107-108

² الإسماعيلية: هي فرقة شيعية، يُطلق عليها كذلك بالباطنية ويطلق على أتباعها بالحشاشين، تقول بأحقّية إسماعيل بن جعفر الصادق في الإمامة بعد وفاة أبيه جعفر، وقد كانت الدولة الفاطمية في مصر على هذا المذهب. انظر: أحمد زقزوق، ص146: حسن الأمين، ج4، صص148-150

³ إيفانوف، ص150.

⁴ تريم: مدينة يمنية في محافظة حضرموت. للمزيد انظر: ياقوت الحموي، ج2، ص28: عبد الحكيم العفيفي، ص164

⁵ الشحر: هي مدينة يمنية تقع في جنوب شرق اليمن بين عدن وعمان على ساحل المحيط الهندي. للمزيد: انظر ياقوت الحموي، ج3، ص32: الحميري، ص338

⁶ للمزيد انظر: سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأوّل لليمن (1538م-1635)، ط5، دار الأمين للطباعة والنّشر، القاهرة، نوفمبر 1999، ص53

⁷ فاروق عثمان أباضة، الحكم العثماني في اليمن، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986م، ص21

وهكذا كان استيلاء العثمانيين على اليمن عبر مرحلتين، كانت الأولى بعد استيلائهم على مصر في عام 923هـ/1517م، لكنها فشلت بسبب رفض بعض القادة المماليك الخضوع لهم، وكانت الثانية على إثر حملة سليمان باشا على الهند عام 944هـ/1538م¹.

2. مشيخة هرمز

هي إمارة عربيّة تقع على جزيرة عند مدخل خليج البصرة، وكانت نقطة عبور للسفن القادمة من المحيط الهندي في اتجاه خليج البصرة، نشأت كمشيخة كبيرة تابعة للدولة الصفويّة²، وتمكّنت مع بداية القرن 10هـ/16م من بسط سيطرتها السياسيّة والتجاريّة على كامل الإمارات الممتدّة من البحرين إلى القطيف³ إلى ساحل عمان، وفرضت الرسوم الجمركيّة على الموانئ التابعة لها في خليج البصرة⁴. وقبل وصول البرتغاليين إلى الهند عرفت نشاط تجاريّاً كبيراً، وأصبحت تمثّل مركزاً تجاريّاً كبيراً في خليج البصرة تُجمع فيها السلع القادمة من الهند والسند وبلاد فارس، لتُرسل إلى أوروبا ويُمكن اعتبارها دون مُغالاة بندقيّة العرب⁵.

تمكّنت هرمز بفضل مداخلها الكبيرة التي كانت تأتيها عن طريقة التجارة من استمالة الخلفاء وتجنيد جيوش واستئجار مرتزقة تمكّنت بواسطته من بسط نفوذها على المناطق المجاورة لها حتى وصل حتّى القطيف والبحرين التي كانت تعتبر همزة وصل

¹ النهروالي، ص22؛ فاروق أباضة، ص ص21-22

² انظر: تاريخ البرتغاليين في الخليج (مذكرات دوارتي بربوسا 1515م - جون هيو فان لينخوتن 1578م - تشارلز بوكسر في المنافسة الانجلو برتغالية في الخليج 1615-1635)، تر: عيسى أمين، مؤسسة الأيام الصحافة للطباعة ونشر والتوزيع، المنامة البحرين 1997، ص62

³ القطيف: هي مدينة سعودية تقع في الخليج العربي بين العراق وعمان. انظر: علي بن إبراهيم الدرورة، تاريخ الاحتلال البرتغالي للقطيف (1521-1572)، المجمع الثقافي، أبوظبي 2001م، ص21

⁴ عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر أبي الفدا، تقويم البلدان، دار صادر بيروت، لبنان، د خ ش، ص339؛ عبد الرحمن علي، ص 68-69؛ حنظل فالح، "معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي"، مجلة الوثيقة، ع:17، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، ذوالحجة 1410/يوليو 1990، من ص27-42، ص29

⁵ حنظل، نفسه، ص68

بينها وبين البصرة¹. ونظراً لأهميتها بالنسبة لاحتلالها للبرتغاليون قاموا باحتلالها عام 913هـ/1507م²، إلا أن سيطرتهم عليها لم تستمر طويلاً بسبب تمرد البحارة البرتغاليين، لهذا أعادوا احتلالها عام 921هـ/1515م³.

3. سلطنة عُمان

تحتل عُمان حوالي ربع الشريط الساحلي لجنوب شبه الجزيرة العربية، وهي تطلّ على خليج البصرة وعلى الطرق البحرية التجارية العالمية ويُعرف عن سكانها أنهم كانوا من أتباع المذهب الإباضي⁴.

وعند وصول البرتغاليين إلى المنطقة مع بداية القرن 16م، كان ساحل عمان يُمثّل مركزاً تجارياً مزدهراً، وتُمثّل موانئه مخازن تجارة الشرق وتأتي في مقدّمتها مسقط⁵. وبالرغم من ذلك فقد سيطرت مملكة هرمز على جميع سواحلها، بينما خضعت المناطق الداخلية لسلطة أمراء النّبهانيين الذين دخلوا في صراع مع الإباضيين⁶.

¹ إبراهيم خوري، توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائجه الاقتصادية، ندوة رأس الخيمة التاريخية (الصلوات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية)، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة، 1422هـ/2001م، ص 189-231؛ السلطان، ص 108، 111، 114

² انظر الملحق رقم 5، ص 232 والمتضمن الرسالة التي بعث بها حاكم هرمز الى القائد البرتغالي البوكيرك يخبره من خلالها بتحركات العثمانيين في المنطقة.

³ للمزيد أنظر: السلطان، ص 155-156

⁴ الإباضية: هي مذهب من مذاهب الخوارج تُنسب إلى عبد الله بن إباح أحد علماء النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وقد انتشر بين القبائل العُمانية، وأصبحت المذهب السائد هناك، ثم انتقلت من هناك إلى بلاد الزنج. للمزيد انظر: أبي عمار عبد الكافي الإباضي، آراء الخوارج الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1391هـ/1978، ج1، ص 35، 50؛ محمد أحمد زقزوق، الموسوعة الإسلامية العامة، مطابع الأهرام التجارية، قلوب، مصر 1424هـ/2003م، ص 28

⁵ عبد الرحمان بن علي، ص 61

⁶ للمزيد. انظر: نفسه ص 63؛ السلطان، ص 103

وكانت عمان هي الأخرى من المناطق التي كان يسعى البرتغاليون لضمها لممتلكاتهم، لهذا وبعد أن أخضع البوكيرك هرمز في عام 913هـ/1507م توجه بأسطوله إلى هنا واستولى على مسقط، ومنها توجه لاحتلال بقية المدن العمانية الأخرى¹.

ساعدت هذه الظروف مجتمعة على تشتت العالم الإسلامي في جزئه الشرقي، وعوض أن تتحد ممالكه وإماراته لمواجهة الأخطار التي كانت تهدده، دخلت في صراعات فيما بينها، هذا ما جعلها عرضة للتهديدات البرتغالية لهذا كان على العثمانيين أن يتصدوا لخطر البرتغاليين وأطماعهم في البحار الشرقية وشرق إفريقيا خاصة بعد انهيار دولة المماليك، مثلما كانوا يصدد التصدي للتحركات الإسبانية على سواحل المغرب العربي، ومما صعب من مهامهم وجود الصفويين الذين كانوا دوماً يعرقلون جهودهم في هذا المجال ويشغلونهم عن مهامهم الكبرى.

¹ للمزيد. انظر: السلطان، ص ص 153، 172

الفصل الثاني

الحملة البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا

المبحث الأول: ظهور دولة البرتغال

المبحث الثاني: دوافع الغزو البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا

المبحث الثالث: الحملة البرتغالية لغزو سواحل شرق إفريقيا

المبحث الرابع: نتائج الإحتلال البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا

تمهيد

كانت دولة البرتغال منذ القرن الثامن الميلادي من ضمن ممتلكات البلاد الإسلامية في الأندلس، لكنها انفصلت عنها مبكراً، وسبقت مملكتي قشتالة وأرغون الإسبانيتين في حروب الاسترداد، هذا ما سمح لها بتأسيس دولة قوية مستغلة ما غنمته من إرث حضاري كبير ورثته عن التواجد الإسلامي بها، كما سعت منذ بدايات تأسيسها إلى توثيق صلاتها بالكنيسة في روما، فكانت تُعطي لكل أنشطتها وأعمالها صبغة دينية، هذا ما أكسبها تأييد كل الدول الأوروبية آنذاك وخاصة بريطانيا.

كما أن موقعها الجغرافي المطل على سواحل المحيط الأطلسي جعلها لا تولي اهتماماً كبيراً لما يجري في أوروبا، لهذا كان تركيز حكامها منذ البداية على سواحلها الغربية فأصبحت بذلك أمة بحرية، وكانت السبّاقة في عمليات الكشوفات الجغرافية التي عرفتھا أوروبا وهذا بعد احتلالها لمدينة سبتة Ceuta المغربية منذ 1415م¹.

وقبل شروع البرتغاليين في حركة الكشوفات الجغرافية ومن ثمة السيطرة على المناطق المكتشفة، قاموا أولاً بإرسال بعثات سرّية للاستطلاع سُمّيت ببعثات التجسس البرتغالية، قامت بجمع معلومات كافية عن أوضاع الممالك الإسلامية في المشرق الإسلامي وشرق إفريقيا والهند².

¹ سبتة: هي مدينة مغربية تطل على البحر الأبيض المتوسط قريبة من مضيق جبل طارق، إحتلها البرتغاليون عام 1415م، وتم تعيين الأمير هنري الملاح حاكماً عليها. وقد استعملها البرتغاليون في ما بعد كقاعدة لانطلاق حملاتهم الاستكشافية والتوسعية نحو غرب إفريقيا. لكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً بسبب سيطرة الإسبان عليها بعد احتلالهم للبرتغال، وبقيت هذه السيطرة إلى يومنا هذا. انظر: الدرورة، ص116؛ حنظل، ص ص86 - 87

² السلطان، ص 34

المبحث الأول

ظهور دولة البرتغال

شهدت أوروبا مع نهاية العصور الوسطى وبدايات العصور الحديث ظهور أولى ملامح تقسيمها إلى أمم موحدة أو شبه موحدة، وسرعان ما تشكلت منها دول مستقلة على غرار بريطانيا وفرنسا، ونتيجة لتماسك شعوب هذه الدول وتطورها عما جاورها من الدول التي تأخر تكوينها وتطورها، شرعت في التوسع على حسابها، ودخلت بذلك في حروب طويلة ومنهكة، كحرب المائة عام¹، والحروب الدينية² التي عرفت أوروبا مع بداية القرن 16م³. بالمقابل اتجهت كل من إسبانيا والبرتغال⁴ إلى التوسع خارج القارة الأوروبية وكان هذا في إطار حركة الكشوفات الجغرافية، وبحكم استقرارها السياسي ودورها في حروب الاسترداد *La Reconquista* ضد المسلمين كانت دولة البرتغال السبّاقة في ذلك في حين تأخرت إسبانيا عن ذلك لانشغالها بمشاكلها الداخلية⁶.

¹ حرب المائة عام: هي حرب دارت بين فرنسا وبريطانيا من 1337م إلى 1453م. لمعرفة المزيد عن هذه الحرب. انظر: Theodore toussenel, *Histoire de l'Europe et particulièrement de la France, de 1270-1610*, librairie c h. delagarde, Paris, 1881, pp 49-50

² الحروب الدينية: هي سلسلة من الحروب التي عرفها أوروبا بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر، والتي دارت رحاها بين أتباع المذهب الكاثوليكي والمذهب البروتستانتي. لمعرفة المزيد عن هذه الحروب. انظر: عبد العزيز سليمان نوار ومحمد محمود جمال الدين، *التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى الحرب العالمية الأولى*، دار الفكر العربي، مدينة نصر، جمهورية مصر العربية 1419 هـ / 1999م، ص 121، 131

³ نفسه، ص 37-38

⁴ كانت تُعرف عند الأوروبيين بلوزيتانيا Lusitania قبل تسميتها بالبرتغال أنظر: الميلياري، ص 149؛ Fredirique charlse danvers, *The portugaise in india, vo11*, wiman and sons printed, london 1894, p14

⁵ حروب الاسترداد: هو مصطلح نجده في الأدبيات الأوروبية، للدلالة الحروب على التي قادها المسيحيون ضد ممالك الطوائف الإسلامية في الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية، وهذا قصد التوسع على حسابها. للمزيد انظر: عبد الرحمان علي الحجي، *التاريخ الأندلسي منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (897-92هـ / 711-1492م)* ط2، دار القلم، بيروت 1402هـ / 1981م، ص 326، 335

⁶ للتوسع أكثر. انظر: Auguste bouchaut, *Histoire du Portugal et de ses colonies*, librairie L.hachette et cie., Paris, sd, 185, p p 63, 65, 70

خضعت دولة البرتغال أو البُرتقال كما تُسمّىها المصادر التاريخية العربية، لحكم المسلمين كبقية بلاد الأندلس منذ عام 97هـ/716م، وكانت تُعرفُ خلال فترة حكم ملوك الطوائف بالشَّعر الأعلى، الذي شَمَلَ جميع المُدن والإمارات التي تمتد في أقصى غرب الأندلس ومنها شنترمية وبورتو وقلمرية وبراعة، وغيرها من المدن المُجاورة¹.

عجز حُكام الشَّعر الأعلى عن التَّصدي لهجمات جيوش قشتالة وليون المسيحية بقيادة ملكهم ألفonso السادس²، الذي تمكّن من انتزاع الإقليم من عند المسلمين عام 477هـ/1085م، وهذا بسببِ تخاذلِ إمارات الطوائف المُجاورة له عن نصرته، وعيّن عليه هنري البورجونّي *Enrique de Borgona*³.

عيّن هذا الأخير العديد من الشَّخصيّات الهامة في الوظائف السّامية ومنحها العديد من الإقطاعات ليعتمد عليها في مهامّه، كما عمل على تقوية الشُّعور القومي بين سكّان البرتغال⁴، وعلى هذا الشَّكل بدأت إمارة البرتغال تتطوّر وتتفصلُ شيئاً فشيئاً عن قشتالة⁵.

¹ لمعرفة المزيد عن أوضاع البرتغال خلال فترة ملوك الطوائف. انظر: علي منتصر الكتاني، *إنبعث الإسلام في الأندلس*، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص77؛ حسين مؤنس، *الشَّعر الأعلى الأندلسي في عهد المرابطين*، وسقوط سرقوسة في أيدي النصارى سنة 512هـ/1118م، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد 1413هـ/1992م، ص 10-11

² *ألفonso السادس*: تُسمّىه المصادر الإسلامية المعاصرة له الأذفونش، تولى حكم مملكة قشتالة عام 454هـ/1065م، أعلن حرباً مُقدَّسة ضد المسلمين بمباركة من البابا ألكسندر الثاني، وفي هذا الإطار إحتلّ طليطلة عام 478هـ/1085م واتخذها عاصمة جديدة له. للمزيد انظر: لمياء توفيق دلة، *الأندلس الإسلامية بين ملوك الطوائف ودولة المرابطين (478هـ - 541/1085هـ - 1147م)*، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة بيروت، 2015، ص42.

³ نفسه، ص 42

⁴ للمزيد انظر: بوحسون عبد القادر، *الأندلس في عهد بني الأحمر*، دراسة تاريخية وثائقية، (635-897هـ/1238-1492م)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2013/2012، ص68؛ وانظر كذلك:

Eward deSeptenville, *Découvert et conquête du Portogale, éditeure*, Edentu, Paris, 1836, p6

⁵ M.demarlès, *Histoire de Portugal, éditeur parent- débarrasse*, saint germain, Paris 1840, p37; 35، التَّشار، ص

خلف ألفنسو هيركز *Alphonso Henriquez* والده هنري على عرش البرتغال الذي رفض تبعيته لقشتالة، ودخل في صراع طويل معها، كما دخل في صراع آخر ضد جيرانه الأندلسيين (حروب الاسترداد) حيث تمكّن من القضاء على معظم ممالك الشّعر الأعلى في الأندلس، وخاض حرباً ضدّ المرابطين¹.

وبعد انتزاعه لمدينة لشبونة *Lisboa*² من المسلمين في عام 1147م تُودي به ملكاً على البرتغال³، وبناءً على هذا صدر القرار البابوي في 13 سبتمبر 1179م، الذي ينصّ على استقلال البرتغال تحت حماية الكنيسة في روما، وعاصمتها لشبونة والاعتراف بألفنسو هنريك ملكاً عليها⁴.

وبعد وفاته في عام 1185م خلفه على العرش ابنه سانش *Sanche* الذي تمكّن البرتغاليون في عهده من إنهاء الوجود الإسلامي من البلاد، الذي دام قرابة خمسة قرون وبهذا بدأت تظهر ملامح دولة البرتغال الحديثة⁵.

وكبقية الممالك المسيحية المجاورة للمسلمين في الأندلس، استغلّ حُكام البرتغال ضعف المسلمين عامّة ومسلمي الأندلس بصفة خاصّة، وانحصر وُجودهم جنوباً، وراحوا

¹ بعد عجز ملوك الطوائف بالأندلس عن مواجهة الصليبيين، واستيلاء ملك قشتالة ألفنسو على طليطلة عام 478هـ/ 1085م، إستجدوا بالمرابطين، الذين عبروا إلى الأندلس لنجدتهم، وألحقوا هزيمة ساحقة بالمسيحيين في معركة الزلاقة عام 479هـ/ 1086م. وبعد سقوط دولة المرابطين إستجدوا من جديد بالموحدين الذين هبّوا لنجدتهم، لكنهم تلقّوا هزيمة في معركة حصن العقاب عام 609هـ/ 1212م. للمزيد انظر: لمياء توفيق دلة، الأندلس الإسلامية بين ملوك الطوائف ودولة المرابطين (478هـ - 541 / 1085هـ - 1147م) رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة بيروت 2015، ص 50، 70؛ بوحسون، ص 18

² مدينة لشبونة: تقع عند مدخل نهر التّاجة، تحتوي على ميناء تجاري وعسكري هام، هذا ما جعل منها مركزاً تجارياً وبحرياً يربط بين دول غرب أوروبا وشمال إفريقيا. فتحها المسلمون عام 716م وإستعادها الملك ألفنسو الأول عام

1147م وجعلها عاصمة لمملكة البرتغال. انظر: *Gregoire Louis Dictionnaire encyclopédique d'histoire de biographie et Géographie*, éditeurs Garnier frères, paris, sd, p 1214

³ النشار، ص 39، 48، 50، 53، 88، 94؛ p42، M.demarlés, op.cit.,

⁴ نفسه، ص 114 - 115؛ الكتاني، ص 78؛ 42، Danvers, op. cit.,

⁵ فالج حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ (93-1134هـ / 711-1720م)، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي

1997م، ص 69

يُحاولون بسط نفوذهم على المناطق المتاخمة لهم، لا سيّما في عهد الملك يوحنا الأول¹ Dom joao (787هـ-836هـ/1385م-1433م)، الذي دخلت البرتغال في عهده مرحلة جديدة من تاريخها تحت حكم أسرة أفيس *Avis dynasty*².

وكان لوصول هذه الأسرة إلى الحكم في البرتغال تأثيراً كبيراً على التطورات التي عرفتھا البلاد، فقد قويت الملكية بتدعيم من الطبقة المتوسطة، وانتشرت اللغة البرتغالية، وتحركت عجلة الاقتصاد بشكل ملحوظ، فازدهرت الزراعة، بعد حركة الاستيطان البرتغالي في الجنوب الذي كان خاضعاً للمسلمين، كما ازدهرت الصناعة ونشطت الحركة التجارية، التي كانت تتطلب الكثير من السفن، لهذا أولت عناية كبيرة لبنائها³.

وقد تمحورت السياسة الخارجية لدولة البرتغال خلال حكم ملوك هذه الأسرة حول نقطتين: التقرب أكثر فأكثر من الكنيسة في روما وتقوية تحالفهم مع بريطانيا⁴. وبعد أن تمكّن البرتغاليون من ترتيب أمور دولتهم الداخلية والحصول على حلفاء أقوى لها وعلى شرعية دينية من قبل الكنيسة في روما، بدؤوا يتطلعون إلى التوسع خارج أوروبا وهذا لعدم تمكّنهم من التوسع داخلها، وكانت البداية باحتلال مدينة سبته عام 1415⁵.

هذا ما دفع بهم إلى التطلع لغزو المزيد من السواحل في إفريقيا، وأدركوا حينها أهمية المحيط الأطلسي في كسب المزيد من الثروة والمجد⁶، وبدؤوا بذلك في التخطيط والتنظيم والتأسيس لحركة الكشوفات الجغرافية، وضمّ أراضي جديدة بالقوة. ونظراً لافتقار البلاد

¹ لم يكن لملك البرتغال فارديناند عند وفاته في عام 1383 وريث شرعي، لهذا قامت المؤسسات والهيئات الوطنية البرتغالية بانتخاب دوم جاو- وهو ابن غير شرعي لملك البرتغال المتوفى - وعميد أسرة أفيز Avis على عرش البرتغال. ودخلت البلاد بذلك في مرحلة جديدة من تاريخها تحت حكم هذه الأسرة. انظر: حنظل، نفسه، ص 86

² تمكنت دولة البرتغال في عهد أسرة أفيس من فك ارتباطها نهائياً مع قشتالة ثم تحالفت مع بريطانيا. انظر: بوحسون، ص ص 68-69؛ Edward de Septenville, op.cit., p10؛ Auguste bouchaut, op. cit., p63, 65,70؛

³ السلمان، ص 30

⁴ بوحسون، ص 86

⁵ انظر: الدرورة، ص 116؛ حنظل، ص ص 86 - 87

⁶ Auguste bouchaut, op. cit., p73

للموارد الاقتصادية، عَمَدت إلى رفع مواردها عن طريق الاهتمام بالتجارة، والتخطيط للسيطرة على طرقها ومواردها في إفريقيا أولاً، ثم في مناطق الشرق الإسلامي فيما بعد¹.

ومع نهاية القرن 9هـ/15م وبداية القرن 10هـ/16م تولى حكم البرتغال الملكُ يوحنا الثاني *Jean2* (1481-1495)، الذي خلفه بعد وفاته دون إيمانويل *Don Emmanuel* (1495-1521م) ثم تولى حكمَ البرتغال الملكُ يوحنا الثالث *Jean3* (1521-1557) الذي خلفه بدوره الملك دون سيبستيان *Don Sebastiane* (1557-1578) والذي قُتل في معركة وادي المخازن² عام 980هـ/1578م، وخلال فترات حكم هؤلاء الملوك تحولت البلاد من مملكة صغيرة إلى دولة عظمى تمتلك قوة بحرية كبيرة، وشهدت أكبر الإنجازات في ميدان حركة الكشوفات الجغرافية في إفريقيا وآسيا وأمريكا³.

وقد كان لهذه المعركة آثار وخيمة على البرتغال، فبعد وفاة دون سيبستيان تولى الحكم الكاردينال هنري (1580-1578)، والذي تعرضت البرتغال خلال فترة حكمه في عام 1580 للاحتلال الإسباني الذي دام حتى عام 1640⁴.

وبهذا يمكننا القول أن البرتغال كانت من أولى الدول الأوروبية التي تمكنت من بناء مؤسساتها مبكراً وأصبحت تتطلع لاكتشاف ذلك العالم المجهول واليطيرة عليه.

¹ السلمان، ص30

² معركة واد المخازن: تُعرف كذلك بمعركة القصر الكبير ومعركة الملوك الثلاثة نسبة إلى السلطان المعتمد السعدي والسلطان محمد المتوكل العميل للبرتغاليين وملك البرتغال دون سيبستيان، والتي دارت رحاها بين الجيش المغربي وجيش البرتغال بتاريخ 3 جمادى الأولى 988هـ / 4 أوت 1578م. لمعرفة المزيد عن هذه المعركة. انظر: جلول بن غومار، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا البرتغال - إسبانيا - فرنسا (986هـ - 1578م / 1012هـ - 1603م)، ص63، 92؛ أحمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، دار الأمان، الرباط 1997، صص119، 129

³ لمعرفة المزيد عن أوضاع البرتغال مع بداية القرن 16م. انظر: بوحسون، ص69؛ وانظر أيضاً:

M.demarlè, op.cit.,pp 87,92, 122

⁴ بوحسون، ص124

المبحث الثاني

دوافع الغزو البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا

قبل الحديث عن تفاصيل الاحتلال البرتغالي لشرق إفريقيا، أرى أنه من المناسب أن نُشير إلى أهم الدوافع التي أدت بالبرتغاليين إلى التطلع إلى هذه المناطق التي يُفترض أنها بعيدة عن المجال الجغرافي للعالم المسيحي¹، والتي نجدُها تتراوح بين كونها دوافع اقتصادية ودينية وسياسية، وحتى ديموغرافية وهي كالتالي:

1. الدوافع الاقتصادية

يرى العديد من المؤرخين الأوروبيين أن العوامل الاقتصادية كانت من أهم الدوافع التي أدت إلى سعي البرتغاليين لاستكشاف واحتلال سواحل شرق إفريقيا، وذلك رغبةً منهم في القضاء على احتكار المسلمين - المماليك - لتجارة التوابل مع الهند، والتي كانت تُدرّ عليهم أرباحاً طائلة، حيث كانت هذه السلع تصل إلى أوروبا بأسعار باهظة، وهذا لاستعمالاتها المتعددة².

لكن واقع الحال يقول إن العالم الإسلامي لم يكن مُحكراً لتجارة التوابل كما يدّعي هؤلاء، إذ أن الموانئ المصرية والعثمانية فيما بعد والتي كانت تستقبل التوابل من الهند، ظلت مفتوحة أمام التجار الأوروبيين من المدن الإيطالية وغيرها، وكان هؤلاء أحراراً في

¹ محمود شاكر، **الكشوف الجغرافية**، دوافعها الحقيقية، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ / 1988م، ص 10-11؛ حسام عبد المعطي، ص 90

² كان أثرياء أوروبا خلال القرن السادس عشر يستعملون التوابل في إعداد الأطعمة، وحفظ اللحوم كما كان يستعملها الصيادلة في إعداد بعض المراهم والعقاقير الطبية، ومن أهم التوابل التي كانت تُدرّ أرباحاً كبيرة الفلفل الذي كان ذا قيمة كبيرة، حتى صار المثل الشائع في المدن الأوروبية "غال كالفلفل". أما الطيب والبخور كانا يُستعملان بشكل كبير في تعطير الكنائس وفي قصور الأثرياء، الفرد الأوروبي. للمزيد انظر: صونيا هاو، ص 14، ص 213؛ زاهر رياض، **إستعمار إفريقيا**، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1384هـ / 1965م، ص 20-21؛ التازي عبد الهادي، **ابن ماجد والبرتغال**، ط3، المطبعة الشرقية، مسقط، سلطنة عمان 1426هـ / 2005م، ص 4؛ المشهداني، مرجع سابق، ص 25؛ k.m panikkar, *Asia and western dominance*, forth edition, great britan, London 1959, p20

اقتناء ما يحتاجونه طالما التزموا بقوانين الدولة التي هم متواجدون بها، ويبدو لي أنّ هذا عمل مشروع لا يُعتبر احتكاراً.

ومن جهة أخرى ونظراً للتطورات الاقتصادية التي شهدتها دولة البرتغال، أصبحت بحاجة إلى المزيد من التبر الذي عجزت دويلات المغرب العربي عن توفيره، خاصة بعد ظهور العملة الذهبية البرتغالية عام 1449م، لهذا أصيب الاقتصاد البرتغالي بنكسة كبيرة نتيجة ارتفاع التضخم، مما أدى بالتجار ورجال الكنيسة إلى البحث عن أماكن أخرى للترؤد بهذه المادة النفيسة، وما كان ليتسنى لهم ذلك إلا بركوب البحر والبحث عنه في مناطق أخرى بشرق إفريقيا مثل سفالة وغيرها، ومما زاد في حاجة البرتغاليين للذهب هو ميل التجار الهنود والصينيين للتعامل بالذهب دون غيره من المعادن¹. وهذا ما نستنتجه من نص الرسالة التي بعث بها حاكم كاليكوت السامري عام 1498م بواسطة فاسكو ديغاما الى ملك البرتغال والتي جاء فيها:

"إلى الملك المعظم ملك البرتغال قد وصل فاسكو دي غاما
أحد عظماء حاشيتكم إلينا وزار مملكتنا وسررنا منه،
ونُخبركم أنّه يُوجد بكثرة في مملكتنا القرنفل والقرفة والفلفل
والزنجبيل والكثير من الأحجار الكريمة، وأعظم شيء
نحتاجه هو الذهب والفضة والمرجان والألوان المختلفة..²

كما سعى البرتغاليون إلى تحويل طرق التجارة العالمية من الشرق الإسلامي في المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، إلى المحيط الأطلسي³، هذا ما أدى إلى إخضاع الأسواق الأوروبية لهيمنتها، وبالتالي تحكمها في طرق التجارة العالمية الجديدة⁴.

¹ الأسط، ص 120

² الميلباري، ص 160

³ الأسط، ص ص 119-120

⁴ النهروالي، ص 18

لهذا فعملية غزو البرتغال لسواحل شرق إفريقيا يعود إلى تراكم عدّة عوامل اقتصادية وجغرافية، تتمثل في الموقع الجغرافي الممتاز لدولة البرتغال المطلّ على المحيط الأطلسي، وضيق أراضيها وعدم تمكّنها من ولوج البحر الأبيض المتوسط، وقربها من قارة إفريقيا، حتّى أصبحت خلال القرن 15م مستودعاً للسلع الإفريقية من التّبر والعاج ومختلف الموادّ الأخرى. كما أنّ الاستقرار السياسيّ الذي عرفته البرتغال ساعدها على التّطور والازدهار وعلى اكتساب أسطول قويّ، وسمح للبرتغاليين بركوب البحر واكتشاف سواحل إفريقيا الغربيّة ثمّ الشّرقية المجهولة، ومنه الوصول إلى مصدر تجارة التوابل بالهند¹، والتي فشل تجار البندقية في الوصول إليها من قبل².

2. الدوافع الدينيّة

لم تكن الدوافع الإقتصادية الوحيدة التي دفعت البرتغاليين الى غزو البحار الشرقية وإنّما كان للدوافع الدينية هي الأخرى دور في ذلك³.

لهذا فبعد تمكّنها من إنهاء الوجود الإسلاميّ من على أراضيها قبل غيرها من إمارات شبه جزيرة إيبيريا، بدأ تعاونها الصّريح مع البابويّة في روما، التي كانت بدورها خلال القرن 15م بحاجة إلى مساندة دولة أوروبية قويّة، خاصّة بعد الانتصارات التي حقّقها العثمانيّون في شرق أوروبا والبلقان، وسقوط عاصمة الكنيسة الشّرقية القسطنطينيّة بأيديهم في عام 1453م⁴.

¹ الأسطى، ص 118

² الميلباري، ص 53؛ أشرف صالح محمد سيد، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، الطبعة الالكترونية الأولى، دار أوتا للنشر الرقمي، الكويت 2009، ص 66؛ جلال يحيى، تاريخ أوروبا في العصور الحديثة، المطبعة المصرية الإسكندرية، 1981م، ص 361

³ أنظر: السروجي، من ص 58 - 67، ص 59

⁴ أحمد بوشرب، "مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي"، مجلة الوثيقة، ع: 10، السنة الخامسة، البحرين 1987م، من ص 112 إلى ص 144، ص 173

إذاً فالمصالح بين الطرفين كانت مُشتركة ومُتداخلة، وفي هذا الإطار تحصّلت دولة البرتغال على تأييد من الكنيسة في رُوما، تمثّلت مُباركة البابا مارتن الثاني (1417م-1431م) الذي منحها كل الأراضي المُكتسفة، ومنها مدينة سبته التي تمّ احتلالها عام 1415م كما غفر خطايا من يستشهد من البرتغاليين خلال الرّحلات الاستكشافية¹.

وبعد فتح العثمانيين للقسطنطينية وبداية توسّعهم نحو أواسط أوروبا تملك المسيحيين في أوروبا الدّعر²، هذا ما استغلّته الكنيسة في روما لمُحاولة بسط زعامتها الرّوحية على العالم المسيحيّ من مشرقه إلى مغربه، وسعت إلى التّقرّب أكثر فأكثر من البرتغال التي كانت تخوض هي الأخرى حُرُوبها المقدّسة ضدّ المسلمين³. وقد تجسّد هذا التّقارب في الخُطة التي بعث بها البابا نيقولا الخامس (1455-1427) إلى ملك البرتغال والمعروفة "بخطّة الهند"، والتي تضمّنت وُجوب تحالف البرتغال مع القوى المسيحية في آسيا وشرق إفريقيا لمحاصرة المسلمين والقضاء عليهم، والمقصود هنا هي مملكة القديس يوحنا التي كان يُعتقد البعض أنّها موجودة في الحبشة⁴.

وتجلّى هذا بوضوح في حملة فاسكو دي غاما الثانية على الهند في 1502م التي كان من أهدافها، كما تقول الروايات البرتغالية، محاصرة العالم الاسلاميّ مشرقاً ومغرباً والقضاء على مصدر ثرواته:

"... يُحارب الصّليب الهلال في أقصى بقاع المعمورة،
أو تحارب روما مكّة في مكان يبعد أكثر من ألف
وخمسائة فرسخ عن الميادين المألوفة لاقتتالهما..."

¹ عبد الرحمان بن سعد العرابي، الإستراتيجية العثمانية في مواجهة التهديد البرتغالي للحرمين الشريفين والبحر الأحمر في النصف الأول من القرن 10هـ/16م، مجلة الباحث، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر 12/31/2014، ع: 2، ج: 6، ص ص 426 - 451، ص 428

² أباضة، ص 38؛ أحمد محمود، ص 12

³ السّلمان، ص ص 19 - 20

⁴ Trimingham, *op.cit.*, p8; Camille Rouxpetel, *op. cit.*, p128

وحتى تُحيط بالإسلام وتجعله بين نارين ولتُجفّ ينابيع
ثروته وتقضي على صرح عظمته وشوكته...¹.

فمشروع البرتغاليين لاستكشاف إفريقيا والسيطرة عليها كانت تُحرّكه ظاهرياً دوافع دينية صليبية ترعاها الكنيسة في روما، لكن واقع الحال يقول إنّ دوافعها الحقيقية كانت اقتصادية وسياسية حاولوا أن يعطوها صبغة دينية، كما حاولوا أن يصبغوا أعمالهم العدوانية والوحشية بالقداسة، حتى أنّهم ادّعوا أنّ الله يُساعدهم في مهمّهم واختارهم للانتقام من المسلمين وإذلالهم²، فقد جاء في رسالة بعث بها ملك البرتغال إيمانويل عام 1505 إلى البابا يوليوس الثاني:

"...أنّه ليس عازماً في المضي في قتل التجارة المملوكية
فقط بل أنّه سيجاهد في سبيل المسيحية حتى يجعل من
مكة هدفاً لمدافعه....."³

ومنه نستنتج أنّ رغبة البرتغال في نشر الديانة المسيحية في أوساط شعوب شرق إفريقيا ما هي إلاّ ادّعاءات كاذبة، إذ تبين فيما بعد أنّ رغبتهم في مُحاربة الإسلام والقضاء عليه كانت أكثر من رغبتهم في نشر المسيحية، فقد كانت تقوم بإشعال نار الحقد ضدّ المسلمين في صفوف جنودها أكثر ممّا كانت تسعى إلى نشر المسيحية هناك رغم ادّعاءها ذلك، كما استغلّت علاقاتها مع الأحمّاش وعملت على إقامة نوع من التحالف الاستراتيجي معهم، مستغلةً تعصّبهم الديني، الذي حاولت كثلكتهم بهدف عزلهم عن الكنيسة القبطية في مصر، وهذا ما رفضه الأحمّاش⁴.

¹ Roland Oliver, *History of east Africa*, Clarendon presse, Oxford 1963, p177

² بوشرب، ص 177

³ السروجي، من ص 58 - 67، ص 59

⁴ الأسطل، ص 129

وبهذا يمكن القول إنّ البرتغاليين اتخذوا من فكرة نشر المسيحية ذريعة للتستر على هجومهم وتسلطهم على المسلمين في شرق إفريقيا والهند، ولتبرير المجازر الرهيبة التي ارتكبوها في حقّ المسلمين هناك بحجة نشر المسيحية¹.

وبسبب سيطرة الكنيسة على تفكير الأوروبيين، تقبل الرأي العام البرتغالي والأوروبي هذا الاعتقاد، وهذا بطبيعة الحال رغم أنّ العديد من رجال الدين المسيحيين كانوا يرون أنّ المسيحية أسمى من أن تقوم على التسلط والقهر².

3. الدوافع السياسية

يجد الباحث في تاريخ أوروبا مع نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث، صعوبة في الفصل بين الدين والسياسة، بحيث كانت السلطتين السياسية والدينية وجهين لعملة واحدة وكان لرجال الدين الدور الأكبر في توجيه وتحريك الفعاليات السياسية، لهذا يمكننا القول أنّ بداية حركة الكشوفات الجغرافية كانت عبارة عن ردّ فعل الأوروبيين ضدّ احتلال المسلمين لأراضيهم، واتخذت طابع حروب صليبية تحركها البابوية، وسرعان ما تحولت إلى حركة كشوفات جغرافية، ولما أدرك البرتغاليون مدى الضعف والتفكك الذي آل إليه العالم الإسلامي راودتهم فكرة التوسّع على حسابه خاصة حول سواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر³.

وكانت البداية بتأسيس البرتغاليين لمملكتهم، ومن ثمّة طرد المسلمين من بلادهم، وعندما تحقّق لهم ذلك قاموا باحتلال سواحل المغرب وهذا قصد إضعافه اقتصادياً وسياسياً من جهة، ولتأمين طرق المواصلات مع غرب إفريقيا من جهة أخرى وقد أعطوا

¹ ابن إياس، ج 3، ص 82، 111؛ شوقي الجمل وآخرون، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2، دار الزهراء، الرياض

2002، ص 72

² المشهداني، ص 28

³ السلمان، ص 20

لهذه العملية صبغة دينية بحتة، حتى أنّ ملك البرتغال يوحنا الأول كان قد صرّح أنّ الميدان الوحيد الذي يُكسبه المكانة المرموقة والفخر هو الجهاد ضدّ المسلمين¹.

ومن جهة أخرى كانت الكنيسة في روما تدعو إلى مواجهة زحف العثمانيين على شرق أوروبا، خاصّة بعدما استولوا على القسطنطينيّة واتّخذوها عاصمة لدولتهم، بعدما كانت عاصمة الكنيسة الأرثوذكسيّة، هذا ما أدّى بالبابويّة في روما إلى الدّعوة حرب صليبيّة ثالثة لطرد المسلمين من أوروبا من جهة، ومن جهة أخرى لتخليص المسيحيّين في الحبشة والهند وحتى في الصّين من بطش المسلمين - على حدّ تعبيرهم².

لهذا فبعد أن قام البرتغاليّون باحتلال بعض السّواحل الغربيّة والشرقيّة من إفريقيا، سعوا إلى احتلال جنوب شبه الجزيرة العربيّة واقتحام خليج البصرة حيث قاموا بمهاجمة ميناء الإحساء والقطيف، كما توغلّوا في البحر الأحمر عبر باب المندب حتى بلغوا سواحل الحجاز، وبما أنّهم لم يجدوا أيّة مقاومة جديّة من قبل المماليك والإمارات المحليّة توغلّوا فيه، حتى وصلوا إلى سواحل جدّة وهدّدوا بتهديم الكعبة المشرفة³.

كما كان من أهداف البرتغاليّين ومن ورائهم الكنيسة في روما، حرمان المسلمين ونخصّ بالذّكر المماليك والعثمانيّين من مصدر ثرائهم وقوّتهم والمتمثّل في احتكارهم لتجارة الهند، لهذا عمّلوا على إحكام سيطرتهم عليها، وإيقاف النّموّ الاقتصاديّ الكبير الذي عرفه العالم الإسلاميّ آنذاك والذي كاد أن يؤدّي إلى تحويل المجتمعات الإسلاميّة إلى مجتمعات راقية بالمفهوم السائد اليوم، وبهذا يصبح من السهل السيطرة عليهم⁴.

¹ شوقي الجمل، ص 67

² السلمان، ص 18 - 19؛ Stéphanie de jesus, op, cit., p126

³ النهروالي، ص 18-19

⁴ الميلباري، ص 246

4. تطوّر وسائل الملاحة البحرية

ورثت البرتغال على إثر حروب الاسترداد سلطة مركزية قوية، استطاعت بواسطتها توحيد البلاد، وتوفير الأمن والاستقرار وكافة شروط التّقدّم والازدهار، بالإضافة إلى استفادتها من الرّصيد العلميّ والحضاريّ والخبرة الملاحيّة العربيّة، التي ترعرعت بالأندلس وانتقلت إلى البرتغال على أيدي علماء يهود، فرّوا إليها من بطش محاكم التّفتيش بعد سقوط غرناطة في 1492، وأخذوا معهم علوم العرب الملاحيّة وجداولهم الفلكيّة وبعض الأدوات التي تُستخدم في الملاحة البحريّة، هذا ما كان له دور في توفير مقوّمات السّفر البحريّ، من خرائط ووسائل أخرى متقدّمة التي وفّرها الفكر الجغرافيّ العربيّ آنذاك، والتي كانت دافعاً وراء حركة الكُشوفات الجغرافيّة البرتغاليّة¹.

بالإضافة إلى ذلك استفاد البرتغاليّين من خبرة الجالية الإيطاليّة المقيمة في موانئها². كلّ هذا سمح لهم بتطوير أساطيلهم البحريّة وتقنيّاتهم الملاحيّة منذ القرن 15م، ومن مظاهر ذلك أن توصّلوا إلى بناء نوع جديد من السّفن الشّراعيّة الخفيفة تُسمّى الكارفيل Caravel³، والتي تمّ تزويدها بأحدث الوسائل البحريّة آنذاك ونخصّ بالذّكر الأسطربالاب والبوصلة، وأصبحت بذلك أكثر صلاحيّة للملاحة من نظيرتها في بقية دول العالم بنذاك وبأقلّ تكلفة⁴.

¹ أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحر عند العرب، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، يناير 1979، ص104.

² كان الجنويّون أوّل من حاول الطّواف حول إفريقيا للوصول إلى الهند، ففي عام 1291م أبحر المغامر اونجيلينو دي فيفالديو Ugolino di vivaldo بسفينتين لكنها غرقتا قبالة السواحل الإفريقيّة. للمزيد انظر: حسن أحمد محمود، ص218؛ panikkar, op. cit., pp23-24

³ الكارفيل: هي عبارة سفن شراعية كبيرة عابرة للمحيطات، تم من خلالها المزج بين تقنيات بناء السّفن في كلّ من البحر البيض المتوسط وبحر الشّمال، تعتمد بالدرجة الأولى على الطّاقة الطّبيعيّة من رياح وتيارات بحريّة وبالتالي ليست بحاجة إلى جذافين الذين كانوا يحتلّون ومؤنهم جزء كبير من السّفن، ويمكنها الإبحار لعدّة شهور في البحار العالية دون الحاجة إلى الرّسو في الموانئ. انظر: بوشرب، ص172؛ فاطمة عبد الوهاب، ص 23

⁴ الميلباري، ص 154

وكان من نتائج هذا التطور المذهل، أن تَخْلَى البحارة البرتغاليون عن الملاحة التقريبية والمُساحلة لصالح الملاحة الفلكية، التي تعتمد على الخرائط وعلى حسابات الفلكيين وعلى خطوط الطول ودوائر العرض، وبهذا يكون البرتغاليون قد سبقوا غيرهم من الأوروبيين في ركوب بحر الظلمات¹.

ومن مظاهر اهتمام حكام البرتغال بهذا الميدان كذلك إنشاءهم لمدرسة ساغرش Sagres المختصة في تدريس فنون الملاحة البحرية²، التي ضمت في صوفها أكبر الفلكيين ومُصممي الخرائط من تلك الفترة، وكان لها دور كبير في الكشوفات الجغرافية³، وقد أسندت إدارتها للأمير دوم هنريك Dom Henrique⁴.

وقبل شروعه في عمليات الكشوفات الجغرافية اهتم البرتغاليون بجمع المعلومات والخرائط من البلاد العربية، وهذا بإرسال بعثات إلى هناك ونحصر بالذكر بعثة دو كولفهايم، التي استطاعت الحصول على بعض الدراسات عن التيارات البحرية وحركة الرياح، بالإضافة إلى بعض الخرائط التي رسمها العرب من قبل، تحتوي على معلومات ثمينة عن الملاحة البحرية في المحيط الهندي، بحيث تضمنت كيفية التخلص من الهدوء الاستوائي - حيث تهدأ الرياح وبالتالي لا تتحرك السفن الشراعية - وبهذا لا يمكن للسفن أن تتحرك إلا في الربيع ناحية الشمال وفي الخريف جنوباً⁵.

¹ انظر: فاطمة عبد الوهاب، ص ص 171 - 172؛ وانظر كذلك؛ Eward Septenville, op, cit, pp22-23

² للمزيد. انظر: panikker, op, cit., pp25 -26

³ حنظل، ص ص 91-92

⁴ دوم هنريك: المعروف بـ: هنري الملاح هو ابن ملك البرتغال دوم جاو الأول، وُلد عام 1439. كان مولعاً بحب العلم، كما كان من أشدّ الأمراء تحمساً لفكرة توسّع البرتغال فيما وراء البحار، وبفضله تمكّن البرتغاليون من إكتشاف 1/3 سواحل غرب إفريقيا، توفي عام 1460م. انظر:

Christiane Rudel, *Le Portugal*, édition karthala, paris 1998, p27; Paul Gaffaral, *Laconquête de l'Afrique*, Librairie hachet, paris 1892, p88; panikker, op, cit., pp25 -26

⁵ محمود شاكر، ص ص 25-26؛ عباس حمداني، "ردّ العثمانيين على إكتشاف أمريكا والطريق الجديد إلى الهند"،

تر: عبد الرحمان كيلاني، مجلة الجمعية الإستشراقية الأمريكية، (تموز - أيلول 1981)، مج:3، ص ص 2-3

كلّ هذا أسهم في تطوير الملاحة البحريّة لدى البرتغاليين ونبذ الأفكار والخرافات وسهّل الطّريق أمامهم لارتياح المجهول في حركة الكشوفات الجغرافيّة، ووصولهم إلى المياه الشرقيّة بالمحيط الهندي¹.

5. الحصول على الرقيق

تعتبر البرتغال أوّل دولة أوروبية مارست تجارة الرقيق على أوسع نطاق في العصر الحديث، واعتبرتها تجارة مربحة، حتّى أنّه يُمكن القول أنّها كانت عبارة عن مؤسسة الرّق في العصر الحديث، وهذا ما ينطبق على السياسة البرتغاليّة في غرب إفريقيا، لكن بالنسبة لشرق إفريقيا يختلف الأمر إذ أنّ الحصول على الرقيق كان دافعاً ثانوياً بالنسبة لهم، إذا ما قورن بالدوافع الاقتصادية والدينية، فالعديد من الدّراسات التاريخيّة تُؤكّد أنّ نشاط البرتغاليين في تجارة الرقيق كان في شرق إفريقيا أقلّ أهميّة عن غربها، لاهتمامهم هناك بتجارة الذهب والعاج².

ولو أنّ هذا النّشاط لم يكن جديداً في شرق آسيا، إذ مارسه التّجار العرب خاصّة العُمانيين قبل مجيئ البرتغاليين، لكن لم يكن بنفس الطّريقة التي مارسها البرتغاليون، الذين عُرِف عنهم استعمالهم للأساليب غير الإنسانيّة في تعاملهم مع العبيد، وقد بقيت هذه القضية بصمةً عارٍ في تاريخ أوروبا الحديث عامّة والبرتغال خاصّة، إذ بيّنت مدى انحطاط الرّجل الأوروبي في تعامله مع الأفارقة، واستغلاله لهم لبناء حضارته على

1 كانت معلومات الأوروبيين عامة والبرتغاليين خاصة عن الملاحة البحرية خلال القرن 15م شحيحة وتغلب عليها التفسيرات الخيالية والخرافات، فقد كانوا يعتقدون أنّ الرّجل الأوروبي إذا ما أبحر إلى إفريقيا عبر المحيط الأطلسي يصل إلى نقطة وتصبح بشرته سوداء والمياه التي تحيط به حارة جداً، لهذا كانوا يسمونه ببحر الظلّومات. للمزيد انظر: عبد العزيز سليمان نوار، ص59؛ وانظر أيضاً:

Auguste bouchaut, op.cit., pp74 – 75 ; H.Dujarday, *découverte et conquête des portugais en Afrique et en Asie*, imprimeries de cosnier, et lachese, Paris 1839, T1, p5

²Henrie Mérard, Marie lour dérat, Thomas vernet et Marie pierre ballarim, *Traites et esclaves en Afrique orientale et dans l'océan indien*, édition kathala et cirex, paris 2013, pp31,69

أشلائهم، وقد شعر الكثير من المؤرخين الأوروبيين بذلك لهذا حاولوا إخفاءها، بل وإصاقها بالمسلمين على اعتبار أن نظام الرّق كان موجودا قبل مجيء البرتغاليين وأن المسلمين هم من أسسوا لنظام الرّق بالمنطقة، ويستندون في ذلك أن مدينة هدية بالحبشة كانت مركزا لتجارة الرقيق قبل القرن 16م. لكن شتان بين نظام الرّق في الإسلام، ونظام الرّق البرتغالي خلال القرن 16م الذي أدّى إلى إبادة قبائل وشعوب بأكملها في إفريقيا، كما أدى الى عدّة مآسي لا زالت آثارها قائمة إلى اليوم¹.

ويعود اهتمام البرتغاليين بتجارة الرقيق إلى النقص الديموغرافي الكبير الذي كانوا يعانونه، لهذا الغرض أنشؤوا منذ القرن 16م شركة لتجارة الرقيق على طول سواحل موزمبيق ونهر الزمبيزي، وتمكّنت من نقل آلاف العبيد من هناك إلى مستعمراتها الجديدة، لاستخدامهم في الزراعة وكخدم، وحوّلت أعداداً أخرى إلى جنود مرتزقة في جيوشها².

يتبين لنا مما سبق ذكره أن دوافع الكشوفات الجغرافية كلنت متنوعة لكن تبقى أهمها الدوافع السياسية والدينية بسبب تداخلها، لكن أهمها على الإطلاق هي الدوافع الاقتصادية التي استهدفت السيطرة على طرق التجارة العالمية.

¹ للمزيد حول هذا الموضوع. انظر: عبد السلام الترماني «الرق ماضيه وحاضره»، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر 1976، ص143

² Henrie MÉRARD, op. cit., p69; Thomas verne, op. cit., p49

المبحث الثالث

الحملات البرتغالية للسيطرة على شرق إفريقيا

شهد نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م، انطلاق حركة الجغرافية التي قادتها كل من اسبانيا والبرتغال والتي سرعان ما تحولت الى حركة استعمارية، وفي الوقت الذي اتجهت فيه اسبانيا غرباً لاكتشاف قارة أمريكا، اتجه البرتغاليون شرقاً لاكتشاف طريق تجاري جديد يوصلهم إلى الهند عبر سواحل إفريقيا.

1. الحملات البرتغالية لاكتشاف وغزو غرب إفريقيا

كانت انطلاقاً حركة الكشوفات الجغرافية البرتغالية لشرق إفريقيا وما تبعها من احتلال للمناطق المكتشفة، بدافع تطويق العالم الإسلامي وتوجيه ضربة له من الخلف، وكانت البداية باحتلال مدينة سبته المغربية عام 1415م من طرف الأمير هنري الملاح، الذي كرّس حياته لاكتشاف طريق بحري جديد عبر المحيط الأطلسي يوصله إلى الهند¹.

وبعد نجاح البرتغاليين في احتلال سبته توسّعت طموحات لاكتشاف واحتلال المزيد من السواحل في غرب إفريقيا، خاصة بعدما أدرك الأمير هنري الملاح مدى أهمية تجارة الذهب والعبيد عبر المحيط الأطلسي، حاول إقناع كبار البحارة البرتغاليين بالتوجّه صوب الأجزاء الجنوبية من إفريقيا، لكنه فشل في مساعيه لخطورة العملية².

لكن بعد تطوّر وسائل الملاحة البحرية - اختراع الكارفيل - قام العديد من المغامرين من احتلال العديد من الجيوب قبل وصولهم إلى رأس الرجاء الصالح، ففي الفترة الممتدة

¹ لمعرفة المزيد عن مجهودات هنري الملاح للوصول إلى الهند. انظر: Danvers, vol1, op, cit., p17-18-19;

الميلباري، ص153-154؛ صونيا هاو، ص29، 94-95

² وهذا لاعتماد الملاحة البحرية آنذاك على حركة الرياح التي كانوا يعتقدون أنها تكون دائماً شمالية ومنه يستحيل العودة إلى البرتغال بعد الإبحار جنوباً. انظر: مالكيدي، ص109؛ وانظر أيضاً:

M.demarlès, op. cit., p 472; Henrie shaefer, op. cit., p402

الفصل الثاني: الحملات البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا

بين 1420 و1424 احتلّ البرتغاليون مجموعة من الجزر قبالة السواحل الغربيّة لإفريقيا، نذكر منها جزر الأزور *Island Azores* في 1420 وجزر ألمديرا *Madera Islands* في 1427، وجزر الكناري، كما اكتشفوا ثمّ احتلّوا ريودي أور *Riod'Oro* والرأس الأبيض *Cap blanc* والرأس الأخضر *Cap Vert*، إلى أن وصلوا إلى مصب نهر السنغال، ثم مصب نهر غامبيا عام 1455م، ومنها وصلوا إلى غينيا حيث اشتغلوا بتجارة الرقيق¹. وبعد وفاة الأمير هنري الملاح في عام 1460م² عرفت الكشوفات الجغرافيّة انطلاقة جديدة إذ أصبحت تحت الإشراف المباشر للدولة، وأصبحت أكثر جدّيّة ممّا كانت عليه من قبل³. هذا ما مكّن المغامرين البرتغاليّين من اجتياز خطّ الاستواء عام 1471م، الذين واصلوا إبحارهم جنوباً حيث لاحظوا تشابه حركة الرّياح والتّيّارات البحريّة بين جزئي الكرة الأرضيّة الشّماليّ والجنوبيّ، ووصلوا في عام 1484م حتّى مصبّ نهر الكونغو⁴.

وفي 2 أوت 1486 انطلقت حملة أخرى من لشبونة، مكوّنة من أربع سفن بقيادة بارثولوميو دياز *Bartholomeo de diaz*، اتّبعت تعرّجات الساحل الغربي لإفريقيا، وتمكنت من الوصول إلى أقصى جنوب قارة إفريقيا والالتفاف حولها، والتي أطلق عليها دياز رأس العواصف *The stormy cap*، مُبطلًا بذلك نظريّة بطلموس القائلة بأنّ المحيط الهنديّ مُغلق ولا يتّصل بالمحيط الأطلسي⁵.

¹ الميلباري، ص ص115، 156؛ السيّد يوسف نصر، الكشوف البرتغالية والإسبانية حول العالم بين الإستعمار والإستغلال، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية 2007، ص 20

² عند وفاة الأمير هنري الملاح كان البرتغاليون قد إكتشفوا 3/1 الساحل الإفريقي، وأقاموا عليه عدة حصون استعملوها فيما بعد كقواعد عسكرية وتجارية. انظر: مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة 1500-1789م)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص 241

³ Paule Gaffarel, *La conquête de l'Afrique*, imprimerie .A lahure. Paris 1892, P88

⁴ بوشرب، ص 174؛ فيصل محمد موسى، موجز تاريخ إفريقيا في العصور الحديثة، منشورات الجامعة المفتوحة، بنغازي، ليبيا 1997، ص 68

⁵ إسماعيل مصلح أبو سويد الحجابي، الحملة البرتغالية على السواحل والجزر اليمنية والصراع الدولي في عهد الدولة الظاهرية، مطابع جامعة صنعاء للطباعة والنشر، صنعاء 1443هـ/2022م، ص 36

ويشير جيان إلى أن دياز اجتاز رأس الرجاء الصالح، لكن بسبب قلة المؤن¹ وشدة العواصف التي كانت تهب من الشرق، وضجر جنود الحملة أثر العودة إلى لشبونة في ديسمبر 893/1487هـ، مُبشراً بأن الطريق البحري صوب الهند أصبح مفتوحاً². وفي السنة نفسها التي وصل فيها دياز إلى رأس الرجاء الصالح *Cap of good hop*³، كان ملك البرتغال دوم جواو الثاني *Dom João 2* قد أرسل بعثة استكشافية أخرى إلى المشرق الإسلامي، للتجسس والبحث عن مملكة القديس يوحنا، كانت مكونة من بدرو دي كوفيلهام وألفنسو دو بايفا⁴.

اتجه الرحّالان إلى نابولي ومنها إلى رودس ثم القاهرة، حيثُ افترقا إذ اتجه الأول إلى الهند بينما الثاني إلى الحبشة - قد سبقت الإشارة إلى هذه البعثة في الفصل الأول - وكانت أكبر مساهمة لرحلة كوفلهاين هي تأكيده على إمكانية التقاء المحيطين الأطلسي والهندي في أقصى جنوب إفريقيا⁵.

وكان لهذا النجاح الباهر الذي حقّقه الكشوفات الجغرافية البرتغالية في غرب إفريقيا أثره البالغ في عزم البرتغاليين على مواصلة مجهوداتهم الكشفية وهذا بالتفافهم حول إفريقيا وبلوغ سواحلها الشرقية ومنها بلوغ الهند⁶.

¹ إنتشر بين البحارة مرض الأسقروبوط الناجم عن سوء التغذية. للمزيد أنظر: السيد يوسف نصر، ص ص 22، 23.

² للمزيد عن معرفة ظروف وصول بارثماند دياز إلى رأس الرجاء الصالح. انظر: جيان، ص 20؛ كولين ماكلي، *أطلس التاريخ الإفريقي*، ص 118؛ محمود شاكور، ص 23- 22؛ بوشرب، ص 175؛ صونيا هاو، ص 95.

³ رأس الرجاء الصالح: هو أقصى نقطة في جنوب قارة إفريقيا، أكتشف من طرف دياز الذي أطلق عليه رأس العواصف لكثرة ما به من عواصف، لكن ملك البرتغال أطلق عليه رأس الرجاء الصالح، وذلك لأنه بعد نجاح البرتغاليين في اجتيازه لأنه فتح أمامهم باب الرجاء والأمل للوصول إلى الهند مباشرة. انظر: الميلباري، ص 152؛ *panikkar, op, cit., p28*

⁴ سعد العربي، ص 430

⁵ *Alvares, vol1, op, cit., p268- 269; Auguste bouchaut, op. cit., p102*

⁶ جيان، ص 205

2. معاهدة تورديسيلاس واقتسام العالم بين إسبانيا والبرتغال

بالموازاة مع أنشطة البرتغاليين وسعيهم للوصول إلى الهند شرقاً عبر الالتفاف حول إفريقيا، سعى الإسبان بدورهم للوصول إلى الهند غرباً، وهذا بعد أن عرفت إسبانيا الاستقرار، فبزواج ملك أراغون *Aragon* فاردناند¹ *Ferdinand* بملكة قشتالة *Castille* إيزابيلا² *Izabelle* وتوحد المملكتين في مملكة واحدة عُرفت بـ: إسبانيا، التي تحولت خلال فترة قصيرة إلى دولة بحرية قوية، عملت هي الأخرى على السعي إلى التوسع فيما وراء البحار والوصول إلى الهند، وفي هذا الإطار تمكّن المغامر كريستوف كولمبس *Christophe Colombe*³ من ذلك عام 897هـ / 1492م، لكن تبين فيما بعد أنه اكتشف عالماً جديداً أصبح يُعرف فيما بعد بقارة أمريكا⁴.

ودخلت بذلك إسبانيا هي الأخرى ميدان حركة الكشوفات الجغرافية والتوسع من بابه الواسع، لكن سرعان ما اصطدمت بأطماع البرتغال التوسعية⁵. وخشية حدوث اصطدام بينهما حول مناطق النفوذ احتكمت الدولتان إلى البابا إسكندر السادس⁶، الذي فضّ النزاع

¹ فرديناند الثاني (1479 – 1516م): ملك أراغون، اشترك مع ملكة قشتالة إيزابيلا بعد زواجهما في 1469 على توحيد إسبانيا، كما أشرفا على محاكم التفتيش لتقوية الوحدة الدينية في إسبانيا، واجتثاث كل مظاهر الدين الإسلامي هناك.

انظر: Claude dubois et autre, t1, op. cit., p611.

² إيزابيلا (854 – 909هـ / 1451 – 1504م): ملكة قشتالة منذ 1474، تزوجت من ملك أراغون فرديناند الثاني، ونتج عن هذا الزواج السياسي ظهور دولة إسبانيا، التي خاضت حرب ضدّ الوجود الإسلامي هناك عُرفت بـ: *la Reconquista*. حيث تم من القضاء على آخر ممالكهم (غرناطة) عام 1492. انظر:

Claude dubois et autres, t2, op. cit., P1854

³ كريستوف كولمبس: هو ملاح إيطالي من مدينة جنوة، وُلد عام 1451، عمل منذ صغره كبحار وجاب مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط. إكتشف القارة الأمريكية عام 1492 وهو يظن أنه وصل إلى الهند. توفي عام 1506. للمزيد انظر: محمود محمد النيرب، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1997، ج1، ص20

⁴ نفسه، ص20

⁵ للمزيد أنظر: جلال يحيى، ص353

⁶ البابا إسكندر السادس (1492 – 1503): هو من عائلة بورجيا الإيطالية المشهورة، يُقال أنه اشتهر بالفساد والمؤامرات السياسية أكثر من شهرته بالتدين. انظر: فايز صالح أبو جابر، الإستعمار في جنوب شرق آسيا، دار النشر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1411هـ / 1991م، ص35

الذي نشب بينهما بمعاهدة تورديسيلاس¹ Tordesillas¹، التي وافق عليها الطرفان في 8 ذو القعدة 899هـ/9 جويلية 1494م، وقسم من خلالها الأقاليم غير المكتشفة فيما وراء البحار بينهما، بخط وهمي يمتد بين القطبين، يمر إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر على مسافة 100 ميل بحري (الميل البحري=1340م) على أن تكون المناطق الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال والمناطق الغربية المكتشفة من نصيب إسبانيا، أما تقسيم مناطق النفوذ في بلاد المغرب العربي فقد خضعت لاتفاقية سابقة بين الدولتين تنص على أن المناطق التي تقع إلى الغرب من خط طول 2° هي من نصيب البرتغال والتي تقع إلى الشرق منه هي من نصيب إسبانيا².

3. الحملات البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا

إنّ المتتبع للحملات البرتغالية لاستكشاف وغزو سواحل شرق إفريقيا، يتبين له أنّها كانت تسير وفق معطيات سياسية خاصة، وانتهج البرتغاليون لذلك سياسة الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، فقد حرصوا عند وصولهم هناك على تثبيت وجودهم في المنطقة بطريقة ودية، لكن سرعان ما تغيرت سياستهم بعدما تمكّنوا من تثبيت تواجدهم هناك³. وأهم الحملات البرتغالية التي استهدفت السيطرة على شرق إفريقيا هي:

أ. حملة فاسكو ديغاما الأولى (1498-1499)

ساعد نجاح رحلتي دياز ودو كوفلهام لاكتشاف شرق إفريقيا على انطلاق رحلة جديدة للوصول إلى الهند بقيادة فاسكو دي غاما، وقد ساعد رجال المال والأعمال من

¹ تُنسب هذه الاتفاقية إلى مدينة تورديسيلاس التي تقع في قشتالة. لمعرفة المزيد عن هذه الاتفاقية. انظر:

A.filon, *Histoire de l'Europe au 16^e siecle*, imprimerie de E.Duverger, Paris 1838, vol1, pp 82-83

² لمعرفة المزيد. انظر: زاهر رياض، ص 58، 27-28، pp، panikkar, op. cit., p40-41; Danvers, op.cit.,

³ محمد عد العال أحمد، أضواء جديدة على ملامح فاسكو دي غاما، مجلة الدراسات الإفريقية، ع:5، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة 1976، 153-165، ص 15

مدينة أنفرس ¹ *Anvers* البلجيكية البرتغاليين في تمويل هذه الحملة لأنهم كانوا يُدركون ما قد تدرّ عليهم هذه العملية من فوائد في مجال التجارة العالمية².

انطلقت هذه الحملة من لشبونة في 8 جويلية 1497، وقد اتّبع فاسكو ديغاما نفس خطّ سير الرحلة الذي رسمه دياز على طول السواحل الغربية لإفريقيا، وفي العام الموالي وصلت الحملة³ إلى رأس الرجاء الصالح، وهناك تحطّمت إحدى سفنه، فوزّع فاسكو دي غاما من كان عليها من البحارة وما كان عليها من معدّات على السفن الأخرى⁴. وبعد اجتيازها لرأس الرجاء الصالح اتّجهت شمالاً مروراً بمضيق موزمبيق، لتتوقف بتاريخ 1ماس 1498 في سفالة التي كانت التابعة لكلوة، وهذا قصد الراحة والتّموين⁵.

بعدها واصلت الحملة إبحارها شمالاً حتّى وصلت إلى جزيرة موزمبيق⁶، وهناك التقى ببعض الأحباش الذين فرّحوا بقاءه وأكّدوا له أنّه قريب من بلادهم، كما لقي البرتغاليون ترحيباً من قبل التّجار العرب والأفارقة، الذين ظنّوهم تجّاراً مسلمين مغاربة أو أتراكاً، لكنّ بعد أن تبين لهم أنّهم مسيحيّون وأدركوا نواياهم الحقيقية رفضوا التّعامل معهم،

¹ مدينة أنفرس *Anvers*: هي مدينة بلجيكية تقع على ساحل بحر الشمال، وكانها أكبر الموانئ البلجيكية خلال القرن

15م. انظر: Dument wilden, *la Belgique illustree*, librairie Larousse, Paris 1915, p93

² تعود أسباب طول المدة بين رحلة دياز في 1487، ورحلة فاسكو دا غاما في 1497 إلى إنشغال البرتغاليين بإخماد الثورات التي اندلعت ضدهم في المغرب عام 1490، وإلى انتظار التقارير التي وعد بإرسالها دي كوفلهام جاسوس البرتغال إلى الشرق. وبعد اتمام دياز في عام 1497 لكل التّحضيرات للحملة، اختار الملك فاسكو ديغاما لقيادتها على إعتبار أنّه أحد أفراد حاشيته، لأنّ دياز كان من طبقة اجتماعية متواضعة. انظر: الميلباري، ص165؛ مالكيدي، ص

124؛ وأنظر أيضاً: Diffie Bailey, op. cit., p17

³ هناك اختلاف بين المصادر حول عدد السفن التي كان يتشكل منها أسطول دي غاما، كما هناك اختلاف في عدد بحارته وفي عدد الذين عادوا سالمين من الرحلة، فالمؤرخ البرتغالي Sousa يحددها بستة سفن تحمل 60 بحاراً، بينما دنفرس يذكر أربع سفن، أهمها سفينة القيادة سان غابريال Saint Gabriele. انظر: كولين ماكيفيدي، ص121؛

sousa op.cit., p3 ; Danvers, vol1, op. cit., p42

⁴ Danvers, vol1, op.cit., p45

⁵ لمعرفة المزيد عن كيفية استقبال سكان سفالا للبرتغاليين.. انظر: جيان، ص208؛ يوسف نصر، ص33، 32.

⁶ الميلباري، ص157؛ George waltair, *The formation of the Portuguese coloniale empire* published by H.M stotionery office, London 1920, p10

هذا ما اضطرّ البرتغاليين إلى المغادرة¹. وكان هذا الموقف على ما يبدو يعكس نظرة سكان موزمبيق العدائية للأوروبيين وبالخصوص الإسبان، بعدما بلغهم ما اقترفوه في حق مسلمي الأندلس بعد سقوطها عام 1492 من جرائم في إطار محاكم التفتيش²، لهذا انتقم البرتغاليون من سكانها وهذا بقصفها بالمدافع هذا ما أدى إلى تدمير العديد أجزائها³. ثم توجهوا شمالاً على طول الساحل الشرقي حتى وصلوا إلى سواحل ممباسا بتاريخ 7 أبريل 1498، التي خشوا من مواجهة سكانها لهم لهذا لم يغامر دي غاما بالرّسو في مينائها، رغم حاجة بحارته الماسّة للاستراحة بها⁴. وتوجهوا إلى كلوة التي لم يتسنّ لهم الرّسو بها هي الأخرى⁵، ثم اتجهوا شمالاً إلى ماليندي، التي رحّب بهم حاكمها، وسَمَحَ لهم برسو سفنهم قرب مينائها⁶، وقَدّمَ لهم كلّ ما يحتاجونه من مياه وأطعمة، طمعاً منه في الاستقواء بهم ضدّ أعدائه في ممباسا⁷.

استغلّ البرتغاليون هذا العداء ووظفوه لصالحهم بحيث وعدوا شيخ ماليندي بمُساعدته ضدّ ممباسا، وأصبحت بذلك ماليندي الحليف الدائم والاستراتيجي للبرتغاليين

¹ محمد عبد اللطيف البحراوي، فتح العثمانيين لعدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، مكتبة دار التراث القاهرة 1979، ص 59؛ وانظر أيضاً: José carlos, op. cit., p37

² للإطلاع أكثر على ما اقترفه الإسبان من جرائم في حق المسلمين بعد سقوط غرناطة في 1492. انظر: بشري محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الإسبانية (1480-1516م)، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ت ش، ص ص 94 - 119؛ عبد الله بن مصبح الصوفي، السّلوّة في أخبار كلوة، تحقيق الصليبي محمد علي، سلطنة عمان 1405هـ/ 1985م، ص 50

³ Sousa, op. cit., vol1, p65; M.guillain, op.cit., p316.

⁴ لأنّ حاكم ممباسا قد بلغه ما اقترفه البرتغاليين من قبل في موزمبيق، لهذا أخذ استعداداته لمواجهةهم. انظر: مغيري سعيد بن علي، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، المطابع العالمية، روى، سلطنة عمان 1415هـ/ 1995م، ج 2، ص 20؛ حنظل، ص 114؛ وانظر أيضاً: A.filon, vol1, op. cit. p,84؛ Paul Gafrel, op. cit., p94

⁵ Danvers, op. cit., p46؛ ص 9-10. الصيرفي،

⁶ تشير معظم المصادر التاريخية المعاصرة لتلك الفترة بأنكل إمارات شرق إفريقيا رفضت استقبال البرتغاليين، باستثناء ماليندي التي كانت في خلافات سياسية كبيرة مع جاراتها كلوة وممباسا فاستقوت عليهما بالبرتغاليين. انظر: الصيرفي، ص ص 50-51؛ وانظر أيضاً: Justus standers, op.cit, p28؛ Danvers, op. cit., p46

⁷ Danvers, op. cit., pp, 47-48

الفصل الثاني: الحملات البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا

في شرق إفريقيا¹. وكدليل على حسن نية هذا الأخير قدم لهم مساعدات كبيرة، كان أهمها على الإطلاق تزويدهم بمرشد يساعد في الوصول إلى الهند، وحسب ما تُؤكده المصادر العربية كان هذا الدليل هو الملاح العربي أحمد بن ماجد².

انبهر البرتغاليون عند وصولهم إلى شرق إفريقيا بالمستوى الاقتصادي والحضاري الذي كانت عليه المنطقة، فقد وجدوها بها مدناً زاهرة، بلغ سكانها المسلمون مستوى حضارياً جَدَّ متقدِّم، وكانت مظاهر الغنى بادية عليهم من خلال ملابسهم ومساكنهم³. فكانت بذلك نظرتهم مخالفة لما لاحظوه في إفريقيا الغربية التي كان معظم سكانها وثنيون⁴. كما لاحظوا ازدهار الحركة التجارية وكثرة التجار الوافدين إليها من الهند، ووفرة التوابل الوافدة بمختلف أنواعها⁵.

وبتاريخ 3 رمضان 903هـ/24 أبريل 1498 استأنفت الحملة البرتغالية رحلتها من جديد، وانطلقت من ماليندي متوغلة شرقاً في المحيط الهندي في اتجاه الهند، وكان هذا مع بداية تحرك الرياح الموسمية⁶، تاركة موطن قدم لها في شرق إفريقيا، إلى أن وصلت بتاريخ

¹Justus standers, ib.id., p28; George Delvaux, *Vasco Degama et les découvertes maritimes des Portugais*, société générale d'imprimerie, Bruxele 1897, p11.

² أحمد بن ماجد: هو شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي، من كبار ربابنة البحر وعلماء الملاحة البحرية العربي المحيط الهندي خلال القرن 15م، وُلد حوالي سنة 836هـ/1432م، له الكثير من مؤلفات تُرجمت الكثير منها إلى عدة لغات، توفي سنة 904هـ/1498م، وهناك تضارب كبير حول شخصيته، ففي الوقت الذي يؤكد فيه النهروالي أنه من دلّ فاسكو دي غاما على طريق الهند ويحمّله مسؤولية ما حلّ بالمسلمين بعد وصول البرتغاليين إلى هناك، نجد أن البرتغاليين لم يشيروا لإسم هذا المرشد إطلاقاً. للمزيد. انظر: الميلباري، صص 157-158؛ النهروالي، صص 18-19؛ ابن ماجد، صص 10-11، صص 209؛ سونيا هاو، صص 197؛ وانظر أيضاً: Danvers, op.cit., vol 1, p48

³ أطلق عليهم البرتغاليون لأول مرة تسمية المور Moors وهي نفس التسمية التي كانوا يطلقونها على المسلمين في

الأندلس من قبل وعلى المسلمين في المغرب العربي. انظر: M.guillain, *Documents sur l'histoire, la géographie et le commerce*, t1, Imprimerie de M^{me} V^e Bouchard- iluzard, Paris, p30

⁴ أحمد بن ماجد، ثلاثة أزهار في معرفة البحار، تحقيق تشوموفسكي، تر: محمد منير مرسى، عالم الكتب، القاهرة، 1969، صص 9؛ بوشرب، 182 - 183؛ زاهر رياض، صص 20-21

⁵ السلمان، صص 39

⁶ تبدأ الرياح الموسمية في التحرك من الشمال الشرقي في شهر ديسمبر، ومن الجنوب الغربي في شهر مارس، وأما رياح شهر ديسمبر فقد كانت تدفع السفن جنوباً إلى شرق إفريقيا، بينما رياح شهر مارس تدفعها غرباً إلى جنوب شرق إفريقيا. انظر: الصيرفي، صص 103

29 رمضان 903هـ/20 ماي 1498م إلى مدينة كاليكوت Calicut في ساحل الميلبار على سواحل الهند الغربية، وتحققت بذلك أحلام البرتغاليين في الوصول إلى الهند¹.

أقام فاسكو ديغاما بها مدة ثلاثة أشهر، حيث تعرّف على أحوال التجارة هناك وقابل حاكمها زامورين Zamorine، الذي عرض عليه إقامة علاقات تجارية متينة مع البرتغال²، لكن هذا الأخير لم يتحمس للعرض، لهذا اكتفى القائد البرتغالي بالحصول على كمّية من البهارات لتكون دليلاً على وصوله إلى مصادرها³.

ولما حان موعد وصول الأساطيل التجارية العربية، عادت معها الحملة البرتغالية إلى ماليندي في عام 904هـ/1499م وأثناء ذلك مرّت بجوار موقديشيو، حيث قام البرتغاليون بقصفها بالمدافع، ممّا تسبّب في إلحاق أضرار كبيرة بها، وتحطيم العديد من السفن التي كانت راسية بمينائها وهذا قصد زرع الخوف في صفوف أهاليها، ثمّ قفل عائداً إلى ماليندي حيث استقبل بترحاب كبير⁴.

وعند عودته إلى البرتغال أرسل حاكم ماليندي معه رسولاً من طرفه إلى ملك البرتغال ليعقد معه معاهدة صداقة، وأصبحت بذلك ماليندي الحليف الدائم والاستراتيجي للبرتغاليين في شرق إفريقيا⁵. وسيكون لهذا التحالف آثار وخيمة على منطقة ساحل شرق إفريقيا عامّة وممباسا على وجه الخصوص، كما جلب الدمار والخراب على المنطقة كلّها.

¹ كان ساحل الهند الغربي حين وصول فاسكو داغما، مُقسّم إلى ثلاث مقاطعات كبيرة، هي كاجرات ويحكمها ملك مسلم، هو مظفر شاه، ومقاطعة مدراسن التي توجد بها مدينة غوا، ويحكمها عادل شاه، ومقاطعة ساحل الميلبار في الجنوب، التي كانت تنقسمها ثلاث مدن، مدينة كالكوت ويحكمها السامري، ومديني كوش وكنانور. للمزيد انظر:

الميلباري، ص161؛ حسن أحمد محمود، ص220؛ جيان، ص ص 209-210؛ 48؛ Danvers, op.cit., vol1, p48

² انظر: الميلباري، ص ص 160-161

³ الحاجي، ص41

⁴ أحمد حمود المعمرى، عمان وشرقي إفريقيا، ترجمة محمد أمين عبد الله، ط3، وزارة التراث والثقافة، مسقط، سلطنة

عمان، 1437هـ/2016م، ص55؛ 88؛ p88، Anonyme, *Journal of the first voyage of gama*, op. cit.,

⁵ Justus standers, *The Portugaise in East Africa*, EALB, Nairobi 1968, p2.

ومن ماليندي توجه الأسطول البرتغالي جنوباً إلى زنجبار حيث زوّده أهاليها بما يحتاج من مؤن لمواصلة الإبحار، ومنها توجه الأسطول مباشرة إلى لشبونة¹.

وعند وصول الأسطول الى لشبونة استقبل ملك البرتغال فاسكودي غاما بحفاوة، وغمره بالتكريم والإشادة وأطلق عليه لقب أمراة بحار الهند، ومن جهة أخرى تلقى ملك البرتغال بدوره تهاني البابا في روما، الذي لقبه ب: سيد الفتح والملاحة والتجارة مع بلاد الحبشة والعرب وفارس والصين والهند، *Lords of the navigation and commerce and conquêts of Ethiopia and Arabia, persia and China and India*².

أدرك البرتغاليون بعد هذه الرحلة أنّ التجّار العرب والمسلمون يجنون أرباحاً طائلة من احتكارهم لتجارة التوابل عبر المحيط الهندي، لكن رغم هذا لم يكونوا يملكون وسائل كافية للدّفاع عن أنفسهم، لا من حيث نوعيّة السفن التي يستعملونها، ولا من حيث الأسلحة البسيطة التي بحوزتهم، بينما يمتلك البرتغاليون السفن القويّة والأسلحة الناريّة والرجال المدربين على القتال، ولذلك زادت ثقتهم في السيطرة على هذه التجارة³.

وحتى يتسنى لهم تثبيت وجودهم في المحيط الهندي، كانت معاملتهم لأهالي المناطق التي وصلوا إليها حسنة وحاولوا إخفاء نواياهم العدوانية، بل حرصوا على الظهور بمظهر المُسالمين، وأوهموهم أنّ أهدافهم في المنطقة تجاريّة بحتة، وهذا حتّى يُشعروهم بالأمان، ولا يُثيروا مشاعر العداء ضدهم⁴، ولم يتعرّضوا إطلاقاً للسفن التجاريّة الإسلاميّة رغم أنّها كانت في متناولهم - رغم هذا لم يتورّعوا في مهاجمة الممالك التي ناصبتهم العداء⁵، لأنّ تركيزهم خلال هذه المرحلة كان مُنصبّاً على التعرّف على المنطقة و منها

¹ جيان، ص210؛ Anonyme, *Journale of the first voyage of gama*, op. cit., pp57-58

² Danvers, op.cit., p64 ;Edward de septenville,op.cit.,p58; M.de la harpe, *Abregé de l'histoire générale des voyages*, hôtel de thou, rue des poitevins, Paris, 1779, t1, PP41-42

³ زاهر رياض، ص25

⁴ للمزيد. انظر: محمد عبد العال، ص 156

⁵ المشهداني، من ص25 - 38

التغلغل بالطرق السلمية، وبعدها يمكنهم ترسيخ نفوذهم هناك¹.

كما أنهم لم يقتربوا من البحر الأحمر ولا من السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وظلت سفنهم تُلْعَم من موانئ شرق إفريقيا مباشرة إلى الهند، وتحرص على مغادرتها قبل وصول السفن التجارية الإسلامية، حتى أنه عند عودته من رحلته الأولى من الهند إلى ماليندي شاهد فاسكو دي غاما في طريقه العديد من السفن التجارية المحملة بالسلع الثمينة، ورغم إلحاح رجاله الشديد للتعرض لها إلا أنه رفض ذلك².

وبهذا الشكل عمل فاسكو دي غاما، على تمهيد الطريق للبرتغاليين لإقامة إمبراطورية استعمارية في الشرق يكون مقرها بالهند، وبواسطتها يتسنى لهم تحقيق مكاسب سياسية واقتصادية كبيرة³.

ب. حملة بيدرو ألفاريز كابرال *Pedro Alvares Cabral* عام 1500

بناءً على المعلومات التي قدمها فاسكو ديغاما عن رحلته الأولى إلى الهند، وقيمة الأرباح التي قد يجنيها البرتغاليون في حالة ما إذا سيطروا على تجارة التوابل، جهّز ملك البرتغال إمانويل، أول حملة عسكرية ضخمة لغزو شرق إفريقيا والهند، مكونة من 13 سفينة تحمل 1500 رجل، بقيادة بيدرو ألفاريز كابرال⁴، كانت مهمتها تتمثل في الوصول إلى سواحل شرق إفريقيا والاستيلاء على مناجم الذهب الموجودة في سفالة، وتأسيس مركز للتموين بها، وإقامة مركز تجاري دائم في الميلبار⁵.

¹ Paul Gaffarel, op.cit.,p94

² محمد عبد العال، ص ص156-157

³ Danvers, op. cit., p64 ; Edward de septenville, op. cit., p58.

⁴ ألفاريس كابريل: ملاح برتغالي أرسله ملك البرتغال عام 1500م لغزو الهند بعد عودة فاسكو دي غاما من رحلته الأولى، وفي طريقه اكتشف صُدفةً البرازيل. انظر: (Francois Albert-Bouison et autres (790auteurs) Larousse encyclopédique, Le grand Larousse, tome3, librairie Paris1982, p1629

⁵ الميلباري، ص247؛ جيان، ص211؛ فتحي غيث، ص ص143-144

انطلقت الحملة من لشبونة في 9 شعبان 905هـ/9 مارس 1500م¹، وبفعل العواصف والتيّارات البحرية انفصلت عنها بعض السفن، واتّجهت بعض السفن غرباً ليلحق بها كابرال، وإذا به يصل إلى أراضي أمريكا الجنوبيّة²، ومن هناك اتّجه مباشرة صوب رأس الرّجاء الصّالح، حيثُ واجهته في الطّريق عواصف كبيرة، أتت على أربع سفن كان من بينها سفينة بارثماند دياز الذي هلك في هذه الرّحلة في 14 شوال 905هـ/12 ماي 1500م³.

وفي 24 ذو الحجة 905هـ/20 جويلية 1500م وصلت هذه الحملة إلى موزمبيق ودخلت ميناءها دون مقاومة، وهذا بعدما خشي سكّانها من أعمالِ عدائية قد يقترفها البرتغاليون في حقّهم، خاصّة بعدما بلغهم ما اقترفته محاكم التفتيش من جرائم في حقّ المسلمين في الأندلس بعد عام 1492م⁴. ثمّ أبحرت شمالاً في اتّجاه كلوة، وفي طريقها اكتشف كابرال العديد من الجزر التّابعة لها إلى أن وصل إليها في 30 ذو الحجة 905هـ/26 جويلية 1500م، حيث أذن له حاكمها بالدّخول إلى مينائها⁵.

لكنّ كابرال خشي من المؤامرة وتحجّج بأنّ ملكه لم يأذن له بالنّزول، وأرسل وفداً للتّفاوض مع حاكمها قصد تسليم المدينة له، وحتّى يُبلّغه أنّه جاء لتنشيط التّبادل التجاريّ بين الطّرفين، لكنّه الحاكم رفض عرض كابرال، ورفض التّعامل معهم واعتبرهم مجرد قراصنة، لهذا غادرت الحملة في اتّجاه ماليندي⁶ حيثُ استقبل قائدها ترحاباً، وقّدم لحاكمها هديّة فاخرة ورسالة من ملك البرتغال بالّلغة العربيّة، يُبدي فيها رغبته في إقامة

¹ صونيا هاوي، ص309؛ Sousa faria, op.cit, p53

² عند بلوغ أسطول كابرال خط الاستواء جنوباً، انحرفت إحدى سفنه بفعل الرياح التجارية والتيارات البحرية القوية غرباً وبالضبط إلى سواحل أمريكا الجنوبية- البرازيل-، التي أطلق عليها حينها اسم سانت كروز santa cruz. للمزيد انظر: *Piedro Alvares, The voyage of Cabrale to India, trenslated with Piedro Alvares Cabrale,* Introduction by wiliam brooks greentlee, printed for the hakluyte society, London, 1937, p63

³ De la harpe, *Abrégé de l'histoire générale des voyages*, t1, Hôtel de Thou, Paris, 1779, P46

⁴ للإطّلاع أكثر على ما اقترفته الإسبان من جرائم في حق المسلمين بعد سقوط غرناطة في 1492. انظر: الزّوبي،

صص 94 - 119؛ الصوفي، ص50؛ جيان، ص211

⁵ الصيرفي، ص533. وانظر أيضاً؛ panikkar, op. cit., p34

⁶ نفسه، ص56؛ Sousa, op. cit., p55; De la harpe, op. cit., p4

علاقات صداقة بين المملكتين، وعقد تحالف بينهما ضدّ ممباسا¹، التي إنتقم كابرال من سكّانها، لرفضهم التعاون مع فاسكو ديغاما من قبل، وهذا بقصفها بالمدفعية على حين غرة، هذا ما تسبّب في تحطيم أجزاء كبيرة منها، ثم نزل الجنود البرتغاليون الذين عاثوا فيها فساداً، ممّا اضطرّ الكثير من الأهالي إلى الفرار إلى المناطق الداخلية².

بعدها وتوجّهت الحملة شمالاً صوب كاليكوت التي وصلتها بتاريخ 13 سبتمبر 1500م، حيث أمضى بها فاسكو ديغاما سنة أشهر، سعى خلالها إلى ربط علاقات ودية مع حاكمها زامورين، لكنّ هذا الأخير رفض بسبب إصرار كابرال على المطالبة بمنع التجّار العرب من الإقامة في كاليكوت³. لهذا انتقم من أهاليها، وهذا بقصفها وإحراق السفن الموجودة بها، ثم اتّجه نحو كوشين *Cochine* وكانانور *Kananore* حيث قبل بالترحاب، ونجح في عقد عدّة اتفاقيات تجارية معهما، ثم عاد إلى ماليندي ثم لشبونة مُحمّلاً بكميّات كبيرة من التوابل⁴.

ج. حملة فاسكو دي غاما الثانية على الهند 1502

بعد حملة كابرال على الهند ظهرت النوايا الحقيقية للبرتغاليين في المنطقة، إذ تخلّوا عن سياسة التودّد التي انتهجوها من قبل وكان هذا لكسب ودّ وثقة الممالك الإسلامية هناك كما أسلفنا الذكر، وأصبحوا يسعون إلى تثبيت وجودهم في شرق إفريقيا والهند عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، وهذا بتحكّمهم في الطّرق التجارية البحرية عبر رأس الرجاء الصالح وتأمينها، واحتلال أية منطقة يرونها ضرورية لتنفيذ مشاريعهم التوسعية⁵.

¹ جيان، ص 212

² Anonyme, *journal of the first voyage of da gama*, op.cit., pp51,53

³ مصلح، ص 43

⁴ الميلباري، ص 165

⁵ بوشرب، ص 185

وفي هذا الإطار كلّف ملك البرتغال إيمانويل، فاسكو ديغاما بقيادة حملة بحريّة جديدة، انطلقت من لشبونة في 2 شعبان 907هـ/10 فيفري 1502م¹، وكانت تختلف عن سابقتها، حيث أنّ فاسكو ديغاما استفاد كثيراً من رحلته الأولى كما أصبحت تربطه علاقات وطيدة مع حُكّام إمارات شرق إفريقيا والهند².

وكان من أهداف البرتغاليين من هذه الحملة، بسط سيطرتهم على المناطق المُكتشفة والتّضيق قدر الإمكان على تجارة المسلمين في المحيط الهندي، وهذا بإغلاق منافذ البحر الأحمر وخليج البصرة أمام السفن الإسلاميّة، وهذا حتّى يتسنى لهم احتكار تجارة الهند، والقضاء نهائياً على الطّريق التجاريّ بين الهند ومصر عبر البحر الأحمر، تمهيداً لتوجيه ضربة قويّة للقوى الإسلاميّة في المنطقة³. وللوصول إلى هذه الأهداف أعطى الملك لقائده دي غاما كافّة الصّلاحيّات بأن يفعل ما يشاء لتحقيقها⁴.

لهذا فبمجرّد وصولهم إلى سواحل شرق إفريقيا أرغموا سكّانها على الخضوع لسيطرتهم- باستثناء ماليندي طبعاً- وأجبروهم على دفع الأتوات، كما أقاموا عدّة مراكز للتّوابل في كلّ من موزمبيق وكلوة، الّتي اعترف حُكّامها بالسيادة البرتغاليّة، وقبلوا هم كذلك بدفع الأتوات⁵.

سمح خضوع كلوة للبرتغاليين بخضوع كلّ الإمارات الإسلاميّة الموالية لها في شرق إفريقيا، وهذا ما ساعدهم على السيطرة على النّشاط التجاريّ في المنطقة، مستعملين في ذلك كلّ أنواع الوحشيّة في التّعامل مع السفن الإسلاميّة⁶.

¹ الميلباري، ص248؛ صونيا هاو، ص212

² Anonyme, *Voyage de Vasco de Gama, relations des expéditions de 1497-1499 / 1502-1503*, traduit par Paul Tessier et Paul valentin, édition chaudière - librairie portugaise, paris 1998, p17

³ الميلباري، ص248

⁴ السّلمان، ص53

⁵ الميلباري، ص835

⁶ سالم، ص835

وأثناء مغادرته ماليندي مُتجهاً إلى الهند في ربيع الثاني 907هـ/أكتوبر 1502م، استولى على سفينة تجارية تابعة لسلطان مصر، كانت مُحمّلة بالتوابل وكان على متنه بعض الحجاج الهنود القاصدين بيت الله الحرام، فأمر جنوده بالاستيلاء على كامل حمولة التوابل، وإحراق السفينة بمن عليها من الركّاب الذين كان عددهم حوالي ثلاثمائة، ثم اتجه إلى ساحل الميلبار حيث حطّ رحاله بمدينة كالكوت¹.

وعند عودته إلى البرتغال ترك جزءاً من أسطوله قرب باب المنذب، لإغلاق البحر الأحمر أمام السفن الإسلامية، وللتضييق على حركة الملاحة الإسلامية في المحيط الهندي والقيام بأعمال القرصنة متى سمحت الفرصة لذلك، ثم عاد إلى البرتغال حاملاً معه كميات كبيرة من التوابل والسلع التي حصل عليها عن طريق السلب والنهب².

وعقب رحلة فاسكو دي غاما هذه، بدأ البرتغاليون يقومون برحلات منتظمة إلى الشرق الأقصى وبدأت أعداد سفنهم تزداد أكثر فأكثر³.

وفي هذا الإطار وصل بين عامي 909-910هـ/1503-1504م إلى شرق إفريقيا أسطول برتغالي آخر بقيادة روي لورانزو رافاسكو *Ruyi Lourenzo Ravasco*، الذي مارس هو الآخر القرصنة على طول سواحل شرق إفريقيا وأرغم حُكّام إماراتها على دفع الأتوات، وعند مُحاصرته لمدينة ممباسا تمكّن من الاستيلاء على سفينة تابعة لبراوة وأسر مجموعة تتكوّن من 12 شيخاً من شيوخ براوة كانوا على متنها، ولم يُطلق سراحهم حتّى قبلوا بخضوع إمارتهم - براوة - للبرتغاليين والقبول بدفع ضريبة سنوية، مع وجوب رفع الراية البرتغالية على سفنهم حتى لا يتعرّضوا لاعتداءاتهم⁴.

¹ لمعرفة المزيد عن ما اقترفه فاسكو دي غاما في حق الحجاج الهنود. انظر: الميلباري، ص 166؛ بوشرب، ص 185

² حنظل، ص 133؛ الحجاجي، ص 48؛ أحمد دراج، ص 132

³ المعمري، ص 55

⁴ الصيرفي، ص 103

وفي هذا الصدد يذكر جيان أنّ لورانزو تحجّج برفض أحد الشيوخ لهذه المطالب، وقام في عام 912هـ/1506م باستباحتها بنهبها ثمّ تدميرها وإحراقها عن آخرها، رغم استبسال سكّانها في الدّفاع عنها، ويعود هذا لاعتمادهم على أسلحة بسيطة في المُقابل استعمل البرتغاليون الأسلحة النّارية¹.

وبعد الدّمار الذي ألحقه البرتغاليّون ببراوّة والهلع الذي أصاب سكّان مدن السّاحل الإفريقيّ، أثّرت إمارة بات الاستسلام بعد وصول الأسطول البرتغاليّ إلى سواحلها، إذ استسلم حاكمها للبوكيرك وأصبحت بعد مرور الزّمن محطة تجاريّة برتغاليّة، أقاموا فيها دارا للجمارك يتقاضون فيها المكوس على البضائع الواردة إليها².

بعدها توجّهوا للاستيلاء على مقديشيو، لكنّهم فشلوا في ذلك بعد مقاومة سكّانها لهم، إذ احتشدوا وبأعداد كبيرة على طول سواحلها استعداداً للدّفاع عنها، عندها قام داكونها بإرسال مبعوث لهم للتّفاوض معهم، وعند وصوله إليهم عند الشّاطئ قاموا بقتله ثمّ تمزيقه تحت أعين البرتغاليّين، هذا ما أثار الفزع في نفوسهم، لهذا اضطرّوا للانسحاب، ويعود هذا الانسحاب إلى أنّ مقديشيو كانت حصينة بموقعها الممتاز بحيث كانت تحيط بها المياه الصّحلة وبالتالي لا يمكن للسّفن الكبيرة الاقتراب منها، ولا بدّ لمن يريد الاقتراب منها ركوب الزوارق، وأمام شجاعة وبأس المقاومين الصّوماليّين كان عملاً كهذا يُعتبر انتحاراً بالنّسبة للبرتغاليّين³.

د. حملة أفنسو البوكيرك الأولى 1503 Aphonsé Albuquerque

قبل عودة فاسكو ديغاما من رحلته الثّانية للهند انطلقت حملة برتغالية أخرى من لشبونة بتاريخ 8 شوال 908هـ/6 أفريل 1503م، كانت مكوّنة من تسع سفن بقيادة فرانسيسكو البوكيرك، مُقسّمة إلى ثلاث مجموعات:

¹ جيان، ص 247-248؛ p30، op. cit., *The book of duaret barbosa*, vol 1,

² الصيرفي، ص105

³ جيان ، ص249

- المجموعة الأولى: وتضم ثلاث سفن بقيادة أفونسو دي البوكيرك نفسه.

- المجموعة الثانية: تتكون هي الأخرى من ثلاث سفن بقيادة فرانسيسكو دي البوكيرك.

المجموعة الثالثة: تتكوّن من ثلاث سفن بقيادة أنطونيو دي سالدانا / *Antonioda*

saldana، توجّهت المجموعتان الأولى والثانية مباشرة إلى الهند، بينما توجّبت المجموعة الثالثة إلى شرق إفريقيا والبحر الأحمر، وعند جزيرة سان توماس عند خط الاستواء انفصل لورانس ودا فاسكو بسفينته عن المجموعة الثالثة، التي وصلت إلى موزمبيق ومنها اتّجه إلى زنجبار، حيث استولى على بعض السفن التجارية التابعة لتجار عرب، وفرض على أصحابها غرامات كبيرة مقابل إعادتها لهم، وكان هذا من أسباب عداة سكانها للبرتغاليين وإعلانهم الحرب ضدهم، لكنهم تمكّنوا من هزيمتهم بسبب استعمالهم للأسلحة النارية، وأخضعوا بذلك زنجبار لهم، وفرضوا على سكانها جزية سنوية¹.

بعدها توجّبت الحملة إلى سواحل ممباسا حيث بقي البوكيرك هناك حتّى لحق به القائد أنطونيو دي سالدانا حيث توجّها معاً إلى الهند². وعند وصوله إلى هناك انتقم البوكيرك من حاكم كاليكوت، وأجبره على السماح له بإقامة قاعدة عسكرية برتغالية على أراضيه، كما أجبره على دفع غرامة مالية كبيرة، ومنعه من التعامل مع التجار المسلمين³.

عاد البوكيرك إلى لشبونة في أواخر صفر 910هـ/جويلية 1504م، تاركاً وراءه مرافقه أنطونيو دي سالدانا في مياه المحيط الهندي، وقد استطاع البوكيرك أثناء إقامته في سواحل المحيط الهندي أن يجمع العديد من المعلومات وأن يُعدّ العديد من الدراسات حول المنطقة، شكّلت فيما بعد مشروعاً ضخماً تبناه ملك البرتغال فيما بعد، لبسط سيطرته على البحار الشرقية، خاصة أمام عجز القوى الإسلامية -المماليك - عن مواجهتهم⁴.

¹ جيان، ص 216

² نفسه، ص 217

³ الحجاجي، ص 48

⁴ الأسطل، ص 145

وانتشرت بذلك الأساطيل والقلاع البرتغالية على سواحل وجزر المحيط الهندي، بما فيها سواحل شرق إفريقيا، في نفس الوقت بدأ البرتغاليون يتطلعون لإيجاد حلفاء لهم في المنطقة، ووجدوا في مملكة الحبشة، وفي الدولة الصفوية ما كانوا يسعون إليه¹.

هـ. حملة بيدرو أنايا 1505Pedro Anaya

عند وصول فاسكو ديغاما إلى شرق إفريقيا في رحلته الثانية إلى الهند، اهتم بإخضاع كلوة و لم يهتم لأمر سفالة ربما بحكم تبعيتها لكلوة، وبالتالي إخضاع كلوة معناه خضوع سفالة، لكن ما لم يكن في الحسبان أن حاكم سفالة أعلن استقلال بلاده عن كلوة، لهذا أرسل ملك البرتغال إمانويل في 910هـ/1505م حملة أخرى بقيادة بيدرو أنايا، لإخضاعها وبناء قلعة ومركز للتأمين بها، وقد خشي حاكمها الذي يدعى يوسف - وكان شيخاً طاعناً في السن - أن يحصل لإمارته ما حصل لكلوة، لهذا أعلن ولاءه للبرتغاليين وتعهّد بمساعدتهم على بناء قلعة لهم على إمارته². عارض سكان الإمارة هذا التصرف الذي قام به حاكمهم خاصة بعدما تضرّروا كثيراً من تواجد البرتغاليين، الذين حرّمهم من ممارسة تجارتهم، لهذا أعلنوا تمردهم، لكن البرتغاليين تمكنوا من إخماد هذا التمرد بفعل تفوقهم العسكري، وقُتل أثناء ذلك معظم المتمردين بمن فيهم حاكم الإمارة، وكان وراء هذا الانتصار البرتغاليّ خيانة حبشيّ كان إلى جانب المتمردين في سفالة ينقل للبرتغاليين كلّ ما كان يدور بينهم، وكمكافأة له عينوه حاكماً على سفالة³.

ولاحكام سيطرتهم على المنطقة ثمّ التّوغل في الدّاخل قاموا ببناء قلعة عند مصبّ نهر الزّمبيزي، لكن ل بسبب تفشّي الأمراض والأوبئة بينهم لم يتمكنوا من ذلك، وهذا ما تسبب في هلاك تسبّب العديد منهم وكان من بينهم قائدهم بيدرو أنايا⁴.

¹ الصيرفي، ص102

² جيان، ص225

³ نفسه، ص 227

⁴ جيان، ص22؛ Diffie Bailey, op. cit., p10

بعد إحكام قبضتهم على سفالة، ظنّ البرتغاليون أنّهم قد سيطروا على مناجم الذهب بها، وأنّها ستعود عليهم بأرباح خياليّة، لكن تبين لهم فيما بعد أنّ مصادر الذهب بسفالة هي المناطق الداخليّة منها، والذي كانت تحتكره بعض القبائل ولم تكن سفالة إلّا وسيطاً تجاريّاً فقط بينها وبين التّجار العرب والهنود، لهذا أعطى ملك البرتغال أوامره بإبعاد التّجار المسلمين ومنعهم من هذه التّجارة، وشرع البرتغاليون في ممارسة القرصنة والنّهب والسّلب بحجّة مخالفة التّجار المسلمين لأوامر الملك البرتغاليّ، إلّا أنّ قبائل البانتو المقيمة في المناطق الداخليّة، والتي كانت تمتلك مناجم الذهب رفضت التّعامل مع البرتغاليين وفضّلت التّعامل مع التّجار المسلمين عبر مناطق بعيدة عن سفالة، وبقي الحال على وضعه حتّى منتصف القرن 16م حيث اكتشف البرتغاليون الطّرق التي يمرّ عليها الذهب فهاجموا قبائل البانتو واستولوا على مناجم الذهب هناك¹.

و. حملة فرانسيسكو دي ألميدا 1505Fransisco de Almeida

بحلول عام 910هـ/1505م بدأت مرحلة جديدة من الصّراع بين البرتغال والقوى الإسلاميّة في المحيط الهنديّ بما فيها الإمارات الإسلاميّة في شرق إفريقيا، وفي هذا الإطار أرسل ملك البرتغال حملة عسكريّة ضخمة قوامها 22 سفينة بقيادة فرانسيسكو دي ألميدا، قصد تدعيم القواعد البرتغاليّة في شرق إفريقيا واحتلال ساحل الملبار، وتثبيت الوجود البرتغاليّ هناك وبصفة دائمة، وهذا بجمع كلّ الحركات المناوئة لهم هناك والمتعاونة مع المماليك². ففي 17 شوال 910هـ/23 مارس 1505م غادرت الحملة لشبونة وكانت متكوّنة من 22 سفينة حربيّة، ومن التّعليمات الصّارمة التي تلقّاها ألميدا من ملكه، هي إنشاء مجموعة من الحصون بالجزر المُحاذية لشرق إفريقيا والبحر

¹ جيان، ص235؛ مارمول كارخال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرّباط، 1984

ج3، ص ص 268، 269

² الحجاجي، ص50

الأحمر، والسيطرة على مدخل هذا الأخير (خليج عدن) وعلى جزيرة سوقطري، وعلى مضيق هرمز لمنع وصول سلع الهند إلى مصر والعراق¹.

وبمجرد وصول الحملة إلى سواحل شرق إفريقيا في 1505مهاجم أميدا إمارة كلوة بحجة تأخرها في تسديد الأتوات التي عليها، وامتناع حاكمها من رفع علم البرتغال، واستغل الصراعات والدسائس داخل البيت الحاكم، وعين عليها أحد شيوخها وهو محمد أنكوني- باسم البرتغاليين طبعاً-، الذي كلفه ببناء أول حصن برتغالي على الساحل السواحي². ثم هاجم ممباسا في 12 ربيع الأول 911هـ/13 أوت 1505م، التي واجهه سكانها بمقاومة عنيفة، لكن البرتغاليين تمكنوا من إخمادها بكل قوة، واضطر حاكمها للاستسلام، وعلى إثر ذلك قاموا بنهب المدينة عن آخرها ثم أحرقوها بعد انسحبوا منها، وكسروا بذلك شوكتها ومنحوا بذلك التفوق لحليفهم كلوة³.

ونفس المصير لقيته إمارة براوة التي استسلم حاكمها بعد أن فشل في مقاومتهم وتعرضت هي الأخرى للنهب⁴. كما تم إخضاع إمارة لامو هي الأخرى لسيطرتهم عام 911هـ/1506م، بعد أن عجز شيخها عن المقاومة فستسلم ووافق على الاعتراف بسيادتهم ودفع جزية سنوية لهم⁵.

وفيما بين عامي 910هـ/1505م و912هـ/1507م تمكن الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك من تدمير وإخضاع معظم مدن ساحل شرق إفريقيا للسيطرة البرتغالية، واستسلمت معظم الإمارات الصغيرة هناك، ومن بينها إمارة بات التي اتخذها البرتغاليون

¹ بوشرب، ص185؛ وانظر أيضاً: De la harpe, op.cit., pp73-74

² سالم، ص15؛ وانظر أيضاً: Diffie Bailey, op. cit., p 835

³ ب.أ. أوغث، شرق إفريقيا: الساحل، في كتاب، تاريخ إفريقيا العام، اليونيسكو، الملخص، لبنان 1992، ج5،

ص835؛ Pedro Alvares Cabrale, op. cit., P110

⁴ سالم، ص835

⁵ الصيرفي، ص105

كمحطة تجارية أقاموا فيها دارا للجمارك يتقاضون فيها مكوس البضائع الواردة إليها¹.

كما احتلوا موزمبيق وسوفالا التي أنشؤوا بها حصناً كبيراً، وأقاموا إلى الداخل منه عدة حصون بين نهري الزمبيزي والمومبو، ومنها أرسلت البعثات لاستكشاف المناطق الداخلية حيث يُستخرج الذهب، بالإضافة إلى حصن موزمبيق الذي أصبح من أهم الحصون التي شيدها البرتغاليون في شرق إفريقيا، واستعملوه كنقطة ارتكاز لحركتهم التجارية بالمنطقة، لهذا منحوا لحاكمه صلاحيات واسعة بحيث أصبح تحت إشراف نائب الملك في الهند، ومنه انطلقت الوفود البرتغالية إلى الممالك الوطنية في الداخل ومنها مونوموتابا² Monomotaba وزمبا Zimba وماكالانجا Makalanga حيث بادلوهم السلع وساعدوهم في حروبهم المحلية³.

ونظراً لبُعد المسافة بين دولة البرتغال وممتلكاتها في البحار الشرقية، والمدة الزمنية الطويلة التي تقطعها السفن بين لشبونة والهند والتي تتجاوز أحياناً السنة، أنشأ ملك البرتغال نيابة له بالهند *Estado da india*، مقرها مدينة غوا وعيّن عليها أليدا حاكماً عاماً ونائباً له عليها *Captain-general and governor of India*⁴.

ولتثبيت الوجود البرتغالي على سواحل المحيط الهندي، كلف الملك إيمانويل نائبه على الهند أليدا، ببناء المزيد من القلاع والحصون تدعى بـ: *Fortalezas* على طول السواحل شرق إفريقيا وهذا لحماية القواعد التجارية التي كانت تُدعى بـ: *Feitorias*⁵ وهذا

¹Anonyme, *A journale of The First voyage of Vasco Dagama*, op. cit., P57

² ظهرت مملكة مونوباتا شمال شرق سوفالا خلال النصف الثاني من القرن 15م، على يد مؤسسها ماتوب Motape.

للمزيد انظر: Robert cornevin, op.cit., pp79, 80

³ زاهر رياض، ص44؛ وانظر أيضاً: Robert cornevin, op.cit., p8

⁴ كانت مدة حكم نائب الملك البرتغالي في الهند تدوم ثلاث سنوات، يتمتع خلالها بسلطات مطلقة، حيث لم يكن مسؤولاً إلا أمام الملك، ومقر إقامته كان في مدينة غوا. انظر: حنظل، ص ص 147-148؛ بوشرب، ص 187؛

Léopold Méry, *Emmanuel, ou la domination portuguese dans les indes orientales au 16^e siècle*, 4^e édition, tours, ad mameyet, c^{ie} imprimeurs- libraires 1854, P38

⁵ *Feitorias*: هي عبارة عن مراكز كبيرة لتجميع السلع الشرقية قبل توجيهها إلى لشبونة. انظر: بوشرب، ص 185

لتأمين الطرق التجارية إلى الهند، وفي هذا الإطار قام ببناء مجموعة من القلاع التجارية التي يُطلق عليها بـ: *Feitorias-Fortalezas* في كلٍّ من كلوة ولمنع التجار المسلمين من الحصول على الذهب من سفالة¹. وحتى يحكموا سيطرتهم على تجارة المحيط الهندي فرض البرتغاليون على كلِّ السفن التجارية تصاريح خاصة تُدعى بـ: *Cartazes* يدفع مقابلها التجار مبالغ مالية للعبور ومنعت السفن الإسلامية من الحصول عليها².

ويبدو لي أنّ اهتمام ألميدا البالغ بهذه الحصون، يعودُ لخشيتِه من احتمال حدوث كارثة إذا ما أُصيب أسطولُه بهزيمة، خاصّة وأنّ دولة البرتغال بعيدة جدًّا، لهذا اتخذ منها قواعد عسكرية لرسوّ سفن أسطولِه ومنها التّوجه لممارسة نشاطاته في البحار الشرقية³.

وحتى يتمكنوا من التّحكم في مدخل خليج البصرة احتلّ البرتغاليّون هرمز، كما احتلوا جزيرة سوقطرى في عام 913هـ/1507م، وهذا حتى يتسنى لهم غلق البحر الأحمر في وجه السفن الإسلامية القادمة من وإلى الهند، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك⁴، حينها حاولوا احتلال عدن عام 919هـ/1513م بعدما أدركوا أنّها مفتاح البحر الأحمر ليس سوقطرى⁵.

وسبّب تداخل الصّلاحيّات والمهامّ بين القائدين البرتغاليّين ألميدا والبوكيرك أن ظهرت الخلافات بينهما، بسبب تباين وجهات النّظر حول السياسة البرتغالية في المنطقة والتي رفعها هذا الأخير إلى ملكه بلشبونة، وعلى إثر ذلك صدر القرار الملكيّ بعزل ألميدا من منصبه وتعيين البوكيرك بدلا عنه⁶.

¹ بوشرب، ص 185؛ زاهر رياض، ص 65

² السّلمان، ص 56

³ الشّاطر بصيلي عبد الجليل، الصّراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق إفريقيا والبحر الأحمر، المجلة التاريخية المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة 1964/1965، من ص 129 إلى ص 139

⁴ العيدروسي، ص 101

⁵ آمال إبراهيم، ص 32

⁶ محمد عبد العزيز عوض، الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، ع: 29، بغداد، العراق 1046هـ/1986م، من ص 17 إلى ص 27، ص 18

هـ. حملة أفسو البوكيرك الثانية 1509

بعد تطوّر الخلافات التي نشبت بين القائدين البرتغاليين ألميدا والبوكيرك حول السياسة البرتغالية في المحيط الهندي، قام هذا الأخير باتخاذ عدّة قراراتٍ هامةٍ دون العودة إلى قائده في الهند ألميدا¹، هذه الخلافات حسمها الملك جون الثاني لصالح البوكيرك وهذا بتعيينه نائباً له في الهند منذ 915هـ/1509م².

اعتبر البوكيرك أنّ سياسة ألميدا التي كانت تعتمد على بناء الحصون والقلاع في المحيط الهندي مكلفة جداً وغير مجدية، ويظهر هذا من خلال رسالته التي بعث بها إلى ملكه :

"... إنّ العدد الكبير من الحصون التي نُقيمها سيكون

له أثره في إضعاف القوة المحاربة، واجعل كلّ الاعتماد

على قوة الأسطول، لأننا إذا لم نكن أقوىاء في البحر

فإنّ كلّ شيء سوف يكون علينا..."³.

لكن بعد تأكّده من أهميّتها أقام المزيد منها فيما بعد، وهذا لإيجاد نقاط ارتكاز للإمبراطورية البرتغالية هناك، ولضمان التّفوّق البحري للبرتغاليين في المنطقة، هذا ما سمح لهم ببسط سيطرتهم على كامل المنطقة الممتدّة من مضيق ملقا إلى شرق إفريقيا، وقسموها إلى أربع مقاطعات كلّ واحدة يحكمها نائب له، وهي: جزيرة هرمز وتوابعها وجزيرة سيلان وملقا وشرق إفريقيا⁴.

بالموازاة مع ذلك شجّع البوكيرك القرصنة ضد السفن الإسلامية، وهذا قصد القضاء على النشاط التجاري العربي من منطقة المحيط الهندي. لكنّ تبين له فيما بعد أنّ هذه

¹ محمد عوض، ص 19

² *Goal* : مدينة تجارية هامة تقع إلى الجنوب الغربي من الهند على بحر العرب احتلها البرتغاليون عام 1510 واتخذوها منذ ذلك التاريخ مقراً لنائب الملك البرتغالي، لدولة الهند البرتغالية. انظر: حنظل، ص 196. وانظر كذلك: Albert-Bouison, op. cit., p 4837

³ حنظل، ص 138

⁴ الميلباري، ص ص 170، 163، 171، 173

السياسة لم تنجح، لأنّ غالبية الغنائم خاصّة الباهظة منها كان يستحوذ عليها الضباط والجنود، وبالتالي لم تستقد منها خزينة البرتغال، لهذا قام بتغيير سياسته، وشرع في إقامة الحصون كما ذكرنا آنفاً في المراكز التجاريّة التابعة له في كلّ من عدن ومصوع وهرمز، وهذا حتّى يؤمّن الوجود البرتغاليّ هناك، ويتمكن من فتح الطريق إلى البحر الأحمر¹.

وبعدما عجز البوكيرك عن تدمير تجارة المسلمين في المحيط الهندي - بسبب امتلاك هؤلاء للكثير من السفن والأموال - فرض رقابة صارمة على تحرّكات سفنهم التجاريّة بالمنطقة حتّى أنّه لم يسمح لأيّة سفينة أن تتحرّك إلّا بإذن خاصّ منه².

وخلال هذه المرحلة عرفت سواحل المحيط الهندي ومنطقة شرق إفريقيا بداية الغزو البرتغاليّ الحقيقيّ لها، حيث أحكم البرتغاليّون سيطرتهم على معظم أجزائها، فاحتلّوا جزيرة سوقطرى وأقاموا عليها تحصينات استخدموها للهجوم على السفن التجاريّة الإسلاميّة والهنديّة التي تحاول الدّخول إلى البحر الأحمر، كما احتلّوا هرمز عند مدخل خليج البصرة، وهذا لمنع ولوج التّجار العرب من إلى المحيط الهنديّ والوصول إلى جزر الهند الشرقيّة³، وبالموازاة مع ذلك احتلّ البرتغاليّون موزمبيق عام 913هـ/1507م، التي أقاموا عليها هي الأخرى تحصينات لتكون قواعد دائمة لهم⁴.

وخلال مدّة قصيرة تمكّن البرتغاليّون من إخضاع كامل المُدن السّاحليّة لشرق إفريقيا، وأبقوا على حُكّامها المحليّين في مناصبهم بعد أن اعترفوا بالسيادة البرتغاليّة، وقبلهم دفع الأتوات، وما يُميّز الحكم البرتغالي لهذه المناطق هي القسوة والمبالغة في استعمال القوّة، واهانة وإذلال سكان المناطق التي خضعت لهم خاصة من المسلمين لهذا

¹ بصيلي، ص 134، 136-137

² نفسه، ص 137

³ فايز صالح، ص 34؛ بصيلي، ص 136

⁴ Joseph François Lafitau, *Histoire des découvertes et conquêtes des portugais dans le nouveau monde*, Jean Patriste coignard fils, Paris s d, T1 ,pp 240-241

كرههم الأهالي ونفروا منهم، حتّى أنّهم أطلقوا على الحاكم البرتغاليّ هناك اسم الشّيطان¹.

بعد أن بلغت معلومات جديدة للبوكيرك تتمثّل في مراسلات بين حاكم عدن وسلطان مصر، تضمّنت مطالبة هذا الأخير من حاكم عدن السّماح له بإقامة قاعدة عسكريّة على أراضيه قصد مهاجمة السفن البرتغاليّة²، راسل ملكه في 19 شوال 918هـ/30 أكتوبر 1512م، يطلبُ منه الإذن باحتلال سواحل البحر الأحمر وخليج عدن، وهرمز وهذا لاحكام قبضته على خليج البصرة والبحر الأحمر، وكان ردّ الملك بالموافقة³.

وأثناء التّحضيرات لحملته لغزو سواحل البحر الأحمر، وصل إلى مدينة غوا سفير ملكة الحبشة هلينا واسمه ماتئوس الأرمينيّ *Mathieu*، يحمل معه رسالتين، الأولى كتابيّة موجّهة إلى الملك إمانويل، والثّانية شفويّة موجّهة إلى القائد البوكيرك تضمّنت كلاهما استعداد الحبشة للتّحالف مع البرتغال للقضاء على نفوذ المماليك في البحر الأحمر⁴.

ثمّ انتقل سفير الحبشة إلى لشبونة حيث استقبله ملكها بحفاوة، وعبر له على استعداده على استعداده للتّحالف مع ملك الحبشة - القديس يوحنا - وبهذا يكون حلمه قد تحقّق. وفي عام 921هـ/1515م عاد ماتئو إلى الحبشة رفقة وفد برتغاليّ بقيادة دورات كالفن *Duarte Galven*، وهذا للاتّفاق على عقد معاهدة بين الطّرفين⁵.

وفي عام 919هـ/1513م انطلقت من غوا حملة برتغاليّة بقيادة البوكيرك - كانت تتألّف من 20 سفينة حربيّة وتحمل 1700 جنديّ -، وهذا قصد السيطرة على عدن ومنها الولوج إلى البحر الأحمر، حيث ينزل جنوده في ميناء ينبع ومنها يتوجّهون إلى الحرم النّبويّ بالمدينة المنورة حيث يقومون بنبش قبر النّبيّ عليه الصلاة والسلام ومساومة

¹ المعمرى، ص ص57، 59.

² عيسى بن لطف الله شرف الدين، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من فتح الفتوح، تح: إبراهيم بن أحمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، اليمن 2003، ص23

³ Diffie Bailey, op .cit., pp18-17

⁴ الحجاجي، ص 60

⁵ Sousa, op. cit., p213

المسلمين برفاته الطاهرة مقابل كنيسة القيامة¹.

فشل البرتغاليون في احتلال عدن وهذا بسبب المقاومة الشرسة التي أبدتها حاميتها، ومقاومة الرياح لها، ولم تتجاوز جزيرة كامران عند مدخل البحر الأحمر، حينها عاد الأسطول البرتغالي باتجاه قواعده في الهند². وفي أثناء ذلك قام البوكيرك بإحراق كل من سواكن، زيلع وبربرة وهذا انتقاماً من سكاّنها الذين رفضوا التعاون معه³.

بعد فشل حملته حاول البوكيرك أن يبرّر لملكه أسباب ذلك، بينما هو كذلك وصل إليه موفد من عند إسماعيل الصفويّ يعرض عليه إرسال موفد عنه إلى تبريز لملاقاة الشّاه قصد عقد تحالف يجمعهما مع بعض الإمارات الهنديّة ضدّ المماليك في مصر⁴.

وافق البوكيرك على هذا العرض وتحمّس له، وبعث هو النخر برسالة إلى الشّاه إسماعيل الصفويّ، جاء فيها:

"... أنا أفونسو دي البوكيرك حاكم الهند والقائد العامّ
والنائب عن ملك البرتغال... وحسب علمي فإنّ ملك
البرتغال سيسرّه أن يرتبط بمعاهدة صداقة مع
جلالتكم... إنّ قوّتي التي أستمدّها من جلالة
الملك قد مكّنتني من تدمير أسطول السلطان في
ديو..."⁵.

¹ محمود شاكر، ص28

² الميلباري، ص 187؛ p18، Diffie Bailey, op. cit.,

³ إيفانوف، مرجع سابق، ص193

⁴ انظر الملحق رقم 6، ص234

⁵ يبدو من خلال هذه الرّسالة أنّ البوكيرك لم يكن يفرّق بين المماليك والعثمانيين، إذ أنّ الصفويين كانوا بحاجة لمساعدة البرتغاليين ضد العثمانيين خاصة بعد هزيمته في تشالدران 1514 وليس ضد المماليك كما يبدو من خلال الرّسالة، لأنّ عدو البرتغاليين خلال هذه المرحلة هم المماليك، وليسوا العثمانيون لأنهم لم يكونوا قد وصلوا إلى المحيط الهندي بعد. انظر: Danvers, op. cit., pp 320-32

وبتاريخ 1 شوال 921هـ/8 نوفمبر 1515م، تلقى البوكيرك قرار بعزله من منصبه وتعيين لوبو سواريز خلفاً له، وعند وصوله إلى غوا في 9 ذي القعدة 921هـ/ديسمبر 1515 وافته المنية¹.

وقبل وفاته بعث برسالة إلى ملكه في لشبونة جاء فيها:

«....إن هذه الرسالة ستصل إلى جلالكم مكتوبة بغير خطّ

يدي، أما الهند فهي تتحدث عن نفسها وعني، وإني أترك

مكاني تحت نظر جلالكم...إني سأترك مقام الرئاسة في

الهند بأمر جلالكم، والأمر الوحيد الذي يجب تنفيذه بعدي

هو إغلاق المضيق (يقصد باب المندب).....»²

ويتفق العديد من المؤرخين لهذه المرحلة أنّ البوكيرك كان من أعظم القادة البرتغاليين في المحيط الهندي، فقد حاول أن يجعل من البرتغال أعظم دولة استعمارية آنذاك، مستعملاً في ذلك العنف والقسوة في أقصى مظاهرها وهذا لفرض سيطرته على العرب والمسلمين، وفي هذا الإطار ارتكب مجازر فضيعة في حق المسلمين، وبذلك يكون قد قدّم خدمات جليلة لدولته، حيث وسّع من ممتلكاتها في المحيط الهندي وشرق إفريقيا وتمكّنت البرتغال في عهده من احتكار تجارة المحيط الهندي كليّة³.

ز. حملة لوبو سواريز *Lopo Soarez de Albegaria* 1516

بعد تعيين لوبو سواريز حاكماً على دولة البرتغال في الهند في عام 1515، انطلق من لشبونة في رأس أسطول مكوّن من ثلاث عشرة سفينة تحمل 1500 جندي⁴.

¹ جيان، ص 260

² إيفانوف، ص 242

³ جيان، ص 243

⁴ الميلباري، ص 174؛ كاريخال، ص 302

وعند وصوله إلى هناك سعى إلى توثيق علاقاته بحلفائه في المنطقة فتقرب أكثر منملك الحبشة لبنا دنجل، وعقد معه تحالفا في عام 1516، ثم واصل سياسة سلفه المُمثلة في التضييق على التجارة الإسلامية في البحار الشرقية، وهذا بإغلاق منافذ خليج البصرة والبحر الأحمر في وجه السفن الإسلامية، والقضاء على الأسطول المملوكي المتواجد هناك، ولتحقيق ذلك كان عليه التوجه لاحتلال مدينتي عدن وجدة¹. وكانت خطة البرتغاليين في ذلك تقضي بمسالمة سكان عدن- رغم ضعف تحصينها- ثم العودة للاستيلاء عليها بعد قضائهم على الأسطول المصري في البحر الأحمر².

وتحقيقاً لذلك رسا في 10 صفر 923هـ/4 مارس 1517م في ميناء عدن، بأسطول ضخم يتكوّن من 40 سفينة تحمل 2000 جندي، حيث استقبله أميرها مرجان الظافري وأمدّه بما يحتاج من مؤن ومن مرشدين للوصول إلى جدة وتدمير الأسطول المملوكي هناك، ويعود هذا الموقف الغريب لحاكم عدن، لعداوته الشديدة للأميرين حسن الكردي وسلمان رابيس اللذان حاولا من قبل احتلال عدن، وتسببا لها في أضرار كبيرة³.

وعلى هذا الأساس عبر الأسطول البرتغالي مضيق باب المندب في 10 شوال 978هـ/7 مارس 1517م متجهاً إلى مدينة جدة، وفي طريقه استولى على العديد من السفن التجارية، لكن عند وصوله إلى هناك عجز عن الرسو في جدة بسبب هبوب قويّة، حينها لاحقه الأسطول المملوكي بقيادة الأمير سلمان حتّى ميناء اللّحية باليمن واستولى على إحدى سفنه وأسر من كان عليها من البرتغاليين وأرسلهم إلى القاهرة، وقد تزامنت هذه

¹ أبي الطيب محمد بن عبد الله بن أحمد بامخزومة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة، 1428هـ/2008م، ج6، ص28؛ عثمان صالح صبي، تاريخ أريتيريا، المكتبة الأريتيرية 1974، ص 128
الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1388هـ / 1968م، ج2، ص658

³ لمعرفة المزيد عن أسباب ترحيب الأمير مرجان الظاهري بالبرتغاليين. انظر: باخرمة، ص ص575-576؛ يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي، غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب الغربي للطباعة والنشر، القاهرة 1388هـ/1968م، ص658

الحادثة مع انتصار العثمانيين على المماليك عام 978هـ / 1517م¹.

بعدها اتجه الأسطول البرتغالي إلى سواكن حيث نزل بها بعض الجنود البرتغاليون، لكنهم لم يجدوا بها لأماء ومؤنا، لهذا انتقلوا إلى جزر دهلوك، حيث مكثوا لمدة شهر، ثم توجهوا إلى كامران التي أحرقوها بعدما نهبوا، ثم انتقلوا إلى زيلع عاصمة عدل التي قاموا بتدميرها بالمدفعية -وهذا تلبية لرغبة ملك الحبشة-². وبعد كل هذا عاد سواريس بأسطوله إلى عدن، ومنها إلى الهند³.

وعموماً يمكن القول إن سياسة سواريز اختلفت عن سياسة سابقه، فقد عمل تشجيع حرية التجارة في البحار الشرقية، وعلى محاولة كسب ود شعوب المنطقة، وكان هذا بسبب وصول الهولنديين والإنجليز إلى المنطقة ومنافستهم للبرتغاليين، واعتمادهم على سياسة المهادنة، لكن يبدو أن محاولة البرتغاليين جاءت متأخرة⁴.

ي. حملة ديوغو لوبيز دي سيكيرا Diogo Lopez de Sequeira 1520

بعد فشل لوبو سواريس في مهامه، استخلفه ملك البرتغال في عام 927هـ / 1520م بـ: ديوغو لوبيز دي سيكيرا ، هذا الأخير توجه على رأس حملة بحرية إلى البحر الأحمر قاصداً الاستيلاء على جدة، لكنه أرغم على التراجع نحو السواحل الحبشية وهذا بسبب ظهور الأسطول العثماني بقيادة حسين الرومي، وهبوب رياح قوية معاكسة⁵. وكان انتقام منه أقدم عند تراجعه على تدمير مينائي دهلوك وزيلع، ثم استولى على مصوع في 10 أبريل 1520، التي رفض أهلها التعامل معه، ورفضهم تزويده بالماء كما رفض

¹ الحجاجي، ص 143

¹ ابن أياس، ج 5، ص 203؛ الميلباري، ص 259

² إيفانوف، ص 193

³ Duarte barbosa, *The book of duaret barbosa*, vol 1, op. cit., pp34 -35

⁴ المشهداني، ص 35

⁵ بن يسعد العربي، ص ص 426، 451

أميرها مساعدته للوصول الى الحبشة¹. لهذا اضطرّت الحملة للعودة إلى هرمز².

استمرّ البرتغاليّون في إرسال حملاتهم البحريّة للتوغّل في البحر الأحمر وبسط سيطرتهم عليه، لكن وبسبب تواجد الأسطول العثمانيّ هناك وقيام سفنه بدوريات منتظمة باءت معظم محاولاتهم بالفشل وأهمّ هذه الحملات:

- حملة دوم لويس *Dom Luis* في عام 1522.
- حملة دي سيلفيرا *De Silveira* في عام 1526.
- حملة أنطونيو دي أميراندا *Antonio De Ameranda* في عام 1528.
- حملة استقاو دي غاما *Estivao De Gama* في عام 1541.

وقد تمكّنت هذه الحملة الأخيرة من الوصول إلى قاعدة السويس على البحر الأحمر، وتهديد مركز بناء السفن العثمانية هناك، لكنها فشلت في تدميرها قاعدة السويس مما اضطرّها للعودة الى قواعده في الهند، لهذا ضاعف العثمانيون من مجهوداتهم لمنع أيّة سفينة برتغالية من الدّخول إلى البحر الأحمر والاتّصال بالحبشة³.

كانت حملات البرتغاليين الاستكشافية مسالمة في بداياتها، لكن بعد ما ثبتوا قواعدهم في البحار الشرقية، أظهروا نواياهم الحقيقية وقاموا بفرض سيطرتهم بالحديد والنار، وارتكبوا عدّة مجازر في حق الإمارات الإسلامية المسالمة في شرق إفريقيا، كما أحكموا قبضتهم على الطرق التجارية الرئيسية، ولجؤوا الى ممارسة القرصنة.

¹ صبي، ص ص 128 - 129

² يحيى بن الحسين، ص 663

³ Sousa, op.cit., p p 21,22

المبحث الثالث

نتائج الغزو البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا

تميّزت سياسة البرتغاليين في شرق إفريقيا والمناطق التي خضعت لهم في سواحل المحيط الهندي بالوحشية، وهذا باستخدامهم لأشدّ أنواع القسوة والعنف، هذا ما أدّى إلى تدمير ونقمة أهالي تلك المناطق منهم¹. ولم يسلم من ذلك حتى حكام الأقاليم المواليين لهم، وهناك العديد من الوثائق والرسائل التي بعث بها هؤلاء إلى ملك البرتغال في لشبونة، تبرز ظلم وتعسف حكام البرتغال المحليين لهم، مثلما هو الحال بالنسبة للرسالة التي بعث بها حاكم موزمبيق حليف البرتغاليين في شرق إفريقيا إلى ملكهم دون إيمانويل بتاريخ 25 شعبان 923هـ/27 ماي 1517م يشكي فيها من المعاملة السيئة والمهينة التي يلقاها من الجند البرتغاليين ويطلب منه توفير الحماية له².

وبناءً على ما تمّ تفصيله يُمكننا الوقوف عند أهمّ النتائج التي ترتّبت على الحملات البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا:

1. النتائج السياسيّة

تمكّن البرتغاليون من ضمّ معظم الإمارات الإسلاميّة في شرق إفريقيا سواء بالقوة أم بالإكراه كما أرغمها على التحالف معه، وأصبحت في مجملها تشكّل جزءاً من دولة الهند « *Estado da India* » التي كان مقرّها في غوا- حيث كانت إقامة نائب الملك -، كما تمّ تعيين حاكم عسكريّ في ماليندي لمراقبة الساحل الشرقيّ لإفريقيا وإصدار التصاريح للسفن وإدارة شؤون الإدارة البرتغالية هناك³.

¹ شوقي الجمل، عبد الله عبد الرزاق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2، دار الزهراء الرياض، 1422هـ/2002م، ص75

² انظر: الملحق رقم 7، ص237

³ كان هذا المصنع يستورد القطن والخرز من الهند، ويقوم بمقايضتها بسلع محلية مثل جوز الهند والعاج. انظر: سالم، ص838

وبذلك يُمكن القول إنّ أهداف البرتغاليين من احتلال شرق إفريقيا كانت ثانوية، على اعتبار أنّ أهدافهم الأساسية كانت الوصول إلى الهند، وتأسيس إمبراطورية استعمارية يكون مقرّها هناك، وأنّ إمارات شرق إفريقيا لم تكن إلّا جزءًا من هذا المشروع، بل واعتبروها نقطة ارتكاز لوصولهم إلى الهند، ولهذا الغرض أنشؤوا فيها مراكز ومحطّات تجارية، تكون في منتصف الطريق بين البرتغال وممتلكاتها بالهند تتموّن منها سفنهم بما تحتاج إليه¹. فقد اتخذوا على سبيل المثال من جزيرة موزمبيق قاعدة بحرية للسفن التي تسير بين البرتغال والهند، كما أرسل البرتغاليون منها البعثات الاستكشافية إلى داخل إفريقيا للاتّصال بحكّامها².

ورغم المجهودات التي بذلها البرتغاليون للسيطرة على سواحل المحيط الهنديّ وشرق إفريقيا، إلّا أنّهم عجزوا عن تأسيس إمبراطورية استعمارية حقيقية، لهذا ركّزوا على بناء الحصون والقلاع والوكالات التجارية على طول السواحل الإفريقية³. وربما يعود هذا إلى بُعد المسافة والنقص الديموغرافيّ الذي كانت تعانيه البرتغال - بحيث لم يكن يتجاوز تعداد سكّانه مع بداية القرن 16م المليون نسمة-، لهذا لم يُنشؤوا مستوطنات في شرق إفريقيا - كما أنّهم عجزوا عن تجنيد السكّان المحليين واستعمالهم في عمليّاتهم العسكرية بسبب نفور هؤلاء من تصرفاتهم الوحشية⁴.

أمّا على صعيد العالم الإسلاميّ، فتُعتبر الفترة التي واكبت الغزو البرتغاليّ لشرق إفريقيا وما بعدها، فترة تحوّل بالغة الأهميّة بالنسبة للقوى الإسلامية التي كانت تتزعم العالم الإسلاميّ، فقد شهدت أُول نجم قوى إسلاميّة كُبرى وظُهور قوى جديدة - الدولة العثمانية والدولة الصفوية-، كما شهدت تغيير العثمانيين لاستراتيجيّتهم باتّجاههم للتوسّع

¹ الميلباري، ص 5، Payot، *Histoire de l'Afrique précoloniale (1500- 1900)*, Robert cornevin, Paris 1966, T2, p230

² سالم، ص ص 42، 44

³ رياض زاهر، ص ص 28- 29

⁴ أوزوتونا، ص 33

شرقاً هذا ما أدى بهم إلى التصادم مع الدولة الصفوية ومع الدولة المملوكية التي كانت قد وصلت إلى حافة الانهيار والتفكك، وفي الفترة نفسها ظهرت الدولة المغولية في الهند، وعوض أن تتحالف هذه القوى فيما بينها، وتكون جبهة إسلامية موحدة لمواجهة هذه التحديات الجديدة دخلت في صراعات فيما بينها، هذا ما شغلها عن مواجهة البرتغاليين الذين تمادوا في اعتداءاتهم على المسلمين في شرق إفريقيا والهند وخليج البصرة¹.

2. النتائج الاقتصادية

كان لاكتشاف البرتغاليين لطريق تجاري جديد عبر رأس الرجاء الصالح، واحتكارهم لتجارة الهند نتائج وخيمة على العالم الإسلامي الذي انهار اقتصاده بشكل كبير، خصوصاً مع أواخر العهد المملوكي وبدايات الحكم العثماني لمصر، فبتراجع دور التوابل في تجارة البحر الأحمر، تراجع ثم اختفى ما كان يُسمى بتجار الكرامية²، إذ أصبح البرتغاليون يستولون على هذه التوابل مجاناً، هذا ما أدى إلى تفرها في أوروبا، وما مكن التجار البرتغاليين من اكتساب ثروات طائلة، فازدهرت موانئهم وتدفقت الأموال على مدنها، وتطورت حياتهم الاقتصادية بشكل كبير³.

في حين ركزت التجارة عبر البحرين الأحمر والأبيض المتوسط⁴. خاصة هذا الأخير الذي فقد نشاطه الاقتصادي والحضاري، وانتقل بذلك مركز التجارة العالمية من حوض البحر الأبيض المتوسط وجنوب أوروبا إلى المحيط الأطلسي ودول غرب أوروبا⁵.

¹ عبيد بطي الشامي، ص 216

² عبد المعطي، ص ص 88، 118

³ المشهداني، ص 36

⁴ نفسه، ص 36

⁵ لمعرفة المزيد عن أثر تحول الطرق التجارية البحرية من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي. انظر:

أباضة، ص ص 47، 137

وكان من نتائج تحكّم البرتغاليين في تجارة التوابل، وتدفّق الذهب والفضّة من قارة أمريكا على إسبانيا أن عرفت أوروبا رخاءاً اقتصادياً كبيراً، وهذا ما يُعرف في تاريخ أوروبا الحديث بالثورة التجاريّة، التي أدّت إلى تطوّر نظرة الأوروبيين للاقتصاد عموماً، وكان من مظاهر ذلك أن ظهرت البورصات، التي كان من أهمّها بورصة أنفرس *Anvres* التي أنشأت عام 1531م وانتقلت بذلك الأهمية الاقتصادية من الأسواق إلى البورصات¹.

لكن خلال النّصف الثّاني من القرن 16م لم يعد للبرتغاليين نفوذ في البحار الشّرقية وشرق إفريقيا كسابق عهدهم خلال النّصف الأوّل منه، وهذا بسبب بُعد المسافة بين البرتغال ومستعمراتها هناك، وقلة أعداد جنودها مقارنة بالتوسّعات الكبيرة التي حققتها هناك، هذا ما سمح لهؤلاء بامتهان التجارة لصالحهم، وسمّحوا بمرور تجارة التّوابل عبر البحر الأحمر مقابل تحصيل عوائد لصالحهم².

وبهذا يمكننا القول أنّ البرتغاليين قد أخفقوا في إيجاد سياسة استعماريّة واضحة المعالم تسمح لهم باستغلال المنطقة تجارياً على المدى البعيد والمتوسط³.

كما عرفت هذه الفترة متغيرات جديدة على الصّعيد العالمي، فقد ظهرت قوتين بحريتين جديدتين منافستين للبرتغال هما هولندا وبريطانيا، اللتان كانتا أكثر إدراكاً للمصالح التجاريّة وتمكّنتا من تأسيس الشّركات التجاريّة الكبرى، التي كان من أبرزها شركة الهند الشّرقية الهولندية *The Dusht India company* وشركة الهند الشّرقية البريطانية، *The East India company*، هذا ما سمح لهما بالتغلغل في البحار الشّرقية على حساب الممتلكات البرتغالية⁴.

¹ زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث، دار الفكر الحديث، القاهرة 1986، ج1، ص ص65-67؛ سعيد بدير الحلواني، التاريخ الإفريقي الحديث، دار الكتب المصرية، القاهرة 1999، ص8

² سالم، شرق إفريقيا: الساحل، ص118

³ نفسه، ص ص836، 838

⁴ المشهداني، ص35

وبالمقابل وبسبب احتكار ملك البرتغال لتجارة الشرق لنفسه وعدم ترك مجال النشاط للبرجوازية، إنتهى الاحتكار البرتغالي لتجارة الشرق مع بداية القرن 17م¹.

3. التأثيرات الحضارية

كان الوجود البرتغالي في شرق إفريقيا بمثابة ضربة عنيفة هزّت النفوذ الإسلامي في البحار الشرقية، كما أثّرت كثيراً على الإمارات الإسلامية هناك بسبب السياسة التعسفية التي اعتمدها في حكمهم للمنطقة وسوء معاملتهم لأهالي هذه المناطق، لهذا لم يكن لهم تأثير كبيراً حضارياً على سكان هذه المناطق في هذا المجال، على اعتبار أنّ المنطقة قد شهدت رخاءاً اقتصادياً وحضارياً قبل وصولهم، بل حتى حلفائهم الأحباش نفروا من تصرفاتهم المتسلطة خاصة بعدما استغلّوا ضعفهم وحاجتهم إليهم وحاولوا فرض مذهبهم الكاثوليكي عليهم بالقوة².

كما أنّ سياسة البرتغاليين هناك تميّزت بالقسوة والعنف والاستعلاء تجاه الأهالي وكل هذا كان تحت غطاء ديني، هذا ما أدّى إلى نفور هؤلاء من البرتغاليين، وبالتالي لم يكن للبرتغاليين تأثير حضاريّ على سكان المناطق التي احتلوها في شرق إفريقيا، مثلما لم يكن لهم تأثير كبير على أهالي المناطق التي احتلوها في الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية، ربما يعود ذلك إلى أنّ تلك المناطق أصلاً كانت تشهد رُقيّاً حضارياً كبيراً قبل وصول البرتغاليين إليها، بل وربما كانوا يتفوقون عليهم في كثير من المجالات الحضارية.

ومجمل القول إنّ البرتغاليين تمكّنوا بفضل تفوّقهم العسكري والتّقنيّ من إخضاع معظم إمارات شرق إفريقيا الإسلامية، واتّخذوا المنطقة نقطة انطلاق لاكتشاف واحتلال مناطق أخرى في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي سواحل الهند الإسلامية.

¹ أباضة، ص ص 132 - 133

² نفسه، ص 80

الفصل الثالث

الصّراع بين مملكة الحبشة وممالك الزيلع والتّدخل البرتغالي - العثماني

المبحث الأول: الصّراع الإسلاميّ المسيحيّ في الحبشة عند وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا

المبحث الثاني: مواجهة سلطة عدل للحبشة قبل ظهور الإمام أحمد بن إبراهيم

المبحث الثالث: جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم ضد الحبشة

المبحث الرابع: تحالف الإمام بن الوزير مع العثمانيين ضدّ الحبشة

المبحث الخامس: طبيعة العلاقات بين البرتغاليين والحبشة

المبحث السادس: تأسيس العثمانيين لإيالة الحبش وتوغّلهم في المناطق الداخلية

المبحث السابع: السياسة العثمانية في شرق إفريقيا والحبشة

تمهيد

نظراً لطبيعة الموقع الجغرافي لمملكة الحبشة المسيحية الفاقد لممر بحريّ، وشعور الأحباش بأنّهم محاصرون سياسياً واقتصادياً من قبل المسلمين، فقد بذلوا كلّ ما بوسعهم لكسر هذا الحصار وإيجاد منافذ لهم على البحر الأحمر، ولأجل ذلك شرعوا في حربهم ضدّ الممالك الإسلاميّة المجاورة وهذا لتوسيع ممتلكاتهم شرقاً على حسابهم¹.

وبذلك يُمكن القول بأنّ الصّراع بين الطّرفين الذي كان يبدو دينياً في ظاهره كان أكثر منه اقتصادياً ولوجيستيكيّاً²، وهو لا يقلّ أهميّة عن ذلك الصّراع الذي كان في غرب البحر الأبيض المتوسط³. وفي هذا الإطار استتجدت مملكة الحبشة المسيحيّة بالبرتغاليين في حين استتجدت ممالك الزّيلع الإسلاميّة بالدولة العثمانيّة⁴.

¹ كانت مملكة الحبشة مع بداية القرن 16م أهمّ مملكة مسيحيّة في شرق إفريقيا، تُحيط بها من الشّرق ومن الجنوب الشرقيّ ممالك الطّراز الإسلاميّ، بينما يُحيط بها السّودان المسلم من الشّمال والغرب. انظر: الصّيرفيّ، ص 163؛ أوغث وآخرون، ص 777، وأنظر كذلك الملحق رقم 3، ص 230

² إبراهيم عليّ طرخان، «الإسلام والممالك الإسلاميّة في الحبشة في العصور الوسطى»، المجلة التّاريخيّة المصريّة، الجمعيّة المصريّة للدراسات التّاريخيّة، القاهرة 1959، مج 8، ص 32، 37، 45

³ يبدو أنّ ذهنية العصور الوسطى بقيت مسيطرة على أذهان الأوروبيين لفترة غير قصيرة من القرن الـ16م، حيث ظلّ الجانب الديني هو المحرك الأساسي لتطوّر الأحداث وظلّ الصراع العنيف قائماً بين المسيحية والإسلام والمتمثل في الحملات "الصليبيّة" المتتالية على العالم الإسلامي وفي "جهاد المسلمين" ضد هؤلاء. انظر: ماكيفيدي، ص 125

⁴ بن خيرة، ص 365

المبحث الأول

الصراع الإسلامي المسيحي في الحبشة عند وصول البرتغاليين

عند وصول البرتغاليين الى الحبشة كانت ممالك الزيلع الإسلامية تعاني من الضعف والتفكك، هذا ما سمح لمملكة الحبشة المسيحية بالتدخل في شؤونها الداخلية.

1. أوضاع سلطنة عدل عند وصول البرتغاليين

تدهورت أوضاع بلاد الزيلع - برّ سعد الدين - مع نهاية القرن 15م وبداية القرن السادس عشر بشكل كبير خاصة إمارة عدل¹، بحيث توالى عليها حُكّام ضعاف خاضعين للحبشة، يؤيّدونهم في ذلك كبار التجّار والمُلاك الذين لم يكن يهمهم مواجهة أعدائهم الأحباش بقدر ما كان يهمهم مصالحهم الشخصية الضيقة، ممّا سمح لملوك الحبشة بالتمادي في تسلّطهم على المسلمين. وأمام هذا الخضوع كانت شريحة واسعة من مسلمي بلاد الزيلع تتجرّع مرارة وتتحسّر هذا الذلّ والخضوع². وكان على رأس هؤلاء مجموعة من الأمراء المحليّين حملوا لواء الجهاد، تدعّمهم في ذلك فئة من العلماء والفقهاء الذين بذلوا جهوداً كبيرة للحفاظ على وحدة الصّف الإسلامي، خاصة بعد أن مال السلاطين الأواخر لإمارة عدل لمهادنة الحبشة والدخول في طاعتها³. وقد شجّعت هذه الظروف زعماء الطائفة الثانية على تشكيل عدة إمارات صغيرة داخل عدل بين هرر وساحل البحر الأحمر⁴.

وفي هذا الصدد يصف عرب فقيه هذه الأوضاع بقوله:

¹ Trimingham. op. cit., pp 82-83

² Ib.id., p47

³ Ib.id., pp 82-83

⁴ عرب فقيه، ص ص 13 - 14

«... وعَادَةُ بَرِّ سَعْدِ الدِّين أن كلَّ أمير يكون له التَّقديم

والتَّأخير والغزو والجهاد وأكثر العساكر إلى وجهه، ولم

يكن للسلطان غير خراج البلد بأكمله...».

ويقول كذلك:

«... السلطان يكون سلطاناً على حاله والأمير يكون

الإمام من تحته، وكلَّ منهم على عادته، والبلد بينهم

بالسَّوية...»¹.

وبعد تولَّى السلطان محمد بن آزر بن أبي بكر - وهو من أسرة سعد الدِّين - الحكم في إمارة عدل عام 894هـ/1488م، زادت أوضاع السلطنة تدهوراً و فضل هذا الأخير مهادنة الأحباش، الأمر الذي أضعف مكانته أمام رعيته الذين اتهموه بالتخاذل، فكان من أثر ذلك أنه فقد تدريجياً سلطته لصالح العلماء والأمراء المحليين الذين زادت شعبيتهم بين الزَّيالة خاصة بعد مناداتهم بالجهاد²، مُستعينين في ذلك بالعلماء والفُقهاء وهذا لتهيئة الأتباع ولإقناع القبائل الصَّومالية المجاورة بخوض حركة الجهاد والمشاركة فيه لفتح جميع بلاد الحبشة وضُمها إلى دار الإسلام³، وليتخلَّصوا بذلك من الخطر الذي كان يهدّد الإسلام والمسلمين في المنطقة⁴.

¹ عرب فقيه، ص 12 - 13

² انقسمت مملكة عدل إلى طائفتين، السَّلمة المركزيَّة الَّتِي كانت إسميَّة فقط، وعلى رأسها الحكَّام من أسرة سعد الدِّين، بالإضافة إلى الأمراء والأعيان، والعلماء الَّذين كانت بيدهم السَّلمة الفعلية في البلادن والَّذين سيقودون حركة الجهاد مستقبلاً، وقد كوَّن هؤلاء إمارات محلّية بين هرر وساحل البحر الأحمر، واقتسموا السَّلمة مع أبناء سعد الدِّين، واتَّخذوا من هرر عاصمة لهم. انظر: نفسه، ص ص 13 - 14

³ بن خيرة، ص 290

⁴ عرب فقيه، ص 12، 14؛ فتحي غيث، ص 149

2. طبيعة العلاقات الحبشيّة الهرريّة عند وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا

تميّزت العلاقات بين مملكة الحبشة وممالك الطّراز الإسلاميّ عموماً بالعداوة الشّديدة، وذلك منذ فترة حكم الأسرة السّليمانية في الحبشة، حيث تسلّطت مملكة الحبشة على هذه الممالك وأصبحت تتدخّل في شؤونها الداخليّة¹. ولعلّ من الأسباب الرّئيسيّة لهذا التّسلّط خوف ملوكها من ازدياد انتشار الإسلام خاصّة بعد اعتناقه من طرف الكثير من القبائل الوثنيّة، الأمر الذي شكّل خطراً على المسيحيّة في بلاد الحبشة². ويمكن إبراز مدى الحقد الذي كان يكتّنه الأحباش لجيرانهم المسلمين، من خلال الرّسالة التي بعث بها ملك الحبشة لبنا دنجل إلى ملك البرتغال مع المبعوث البرتغاليّ الأب فرانسيسكو ألفريس *Father francisco Alvares*³ عام 933هـ/1520م، والتي خاطب من خلالها ملك البرتغال ووصفه بأنّه:

«... صديق المسيحيين الوفيّ وعدوّ العرب والكفّار

وسيد إفريقيا وغينيا وجزر القمر وصاحب البحر

وقاهر العرب والفرس والهنود، والذي يساعده يسوع

المسيح في قتل العرب بدون شفقة وفي طردهم طرد

الكلاب...».

ثمّ أهدى سلامه وتحيّاته لملك البرتغال وشعبه ، وأخبره عن انتصاراته ضدّ الوثنيين والمسلمين، وأنّه لن يستريح له جنب حتّى يأخذ بيت المقدس ويخلّصها من أيدي المسلمين، ممّا يُظهر على الروح الصليبيّة الحاقدة يكتّنها الأحباش للمسلمين⁴.

¹ القلقشندي، ج 8، ص 11

² Trimingham, op. cit., p 65

³ الأب فرانسيسكو ألفريس: هو مبعوث ملك البرتغال ايمانويل الى الحبشة، وصل الى هناك خلال القرن 16م على رأس بعثة تضمّ رسول الملك هلينا. عاصر الهجمات التي تعرّضت لها الحبشة من قبل المسلمين. بقي في الحبشة ستّ سنوات ثمّ عاد إلى البرتغال عام 1526، بعدما شعر الملك الحبشيّ لبنا دنجل بعدم حاجته للبرتغاليين، وكان هذا بعد تمكّنه من القضاء على ثورة الأمير محفوظ. ترك لنا وصفاً دقيقاً للحبشة خلال الفترة المدروسة. انظر: الصّيرفي، ص 163

⁴ سعيد عبد الفتّاح عاشور، الحركة الصليبيّة، مكتبة الأنجلو مصريّة، ط7، القاهرة 1418هـ/1978م، ج2، ص205

ومع بداية القرن السادس عشر زاد عداؤ ملوك الحبشة للإسلام والمسلمين¹، فقد شنّ الملك لبنا دنجل (1510-1508)، حرباً ضروساً ضدّ مملكة أوفات الإسلامية، فأحرق مدنها، وقتل العديد من سكّانها، وهلك الكثير بسبب الجوع والعطش، وكانت الملكة هيلينا – الوصيّة على عرش ابنها لبنا دنجل – توّازر ابنها في كلّ أعماله، رغم أنّها حاولت في البداية التّوفيق بين مسلمي الزليع ومسيحيي الحبشة، ولكن بعد فشلها في ذلك أصبحت من أشدّ الأعداء لهم².

3. حركة الجهاد الإسلامي بقيادة أمراء هرر

كان لتقاعس حُكّام إمارة عدل عن الجهاد، من أهمّ عوامل ظهور أمراء محليّين قادّوه ضدّ انّصارى الحبشة، وهذا ما أدّى إلى ازدياد نفوذهم في كافّة أنحاء البلاد خاصّة بعدما التّفّ حولهم العلماء والفقهاء وعامّة النّاس³، وسعوا إلى ملء الفراغ السّيّاسيّ الذي تركه حكام عدل، متزعمين حركة الجهاد ضدّ ملوك الحبشة، هذا ما هدّد نفوذ هؤلاء الحُكّام ، حتّى أنّ بعض المتأخّرين منهم لم يستجيبوا لنداءات الجهاد وتقاعسوا عن صدّ الهجمات الحبشيّة عن البلاد ، كما لم يسمحوا لهؤلاء الأمراء بقيادته، بل وتواطؤوا مع الأحباش ضدّهم، لهذا تشكّل تيّار شعبيّ ومؤيّد لهؤلاء الأمراء، ومُعارض للحُكّام⁴. وكانت بدايات مواجهات هؤلاء لمملكة الحبشة في شكل هجمات محدودة على حدودها محاولةً منها لفتحها وإدخال سكّانها في الإسلام⁵.

¹ كان من أسباب هذا العداؤ حرمان الإمارات الإسلامية على ساحل البحر الأحمر للحبشة من أيّ منفذ بحري على السّواحل. أنظر: إيفانوف، ص 182

² حاولت هيلينا أن توطّد علاقاتها مع حُكّام الإمارات الإسلاميّة في الحبشة وبالخصوص حُكّام عدل، وهذا حتّى يكون للحبشة منفذ بحريّ على البحر الأحمر، إلّا أنّ مساعيها باءت بالفشل، كما حاولت كذلك ربط علاقات مع مصر لكن دولة المماليك كانت تمرّ بظروف صعبة خاصة بعد هزيمتها أمام البرتغاليين في معركة ديو عام 1509، لهذا عدلت عن هذا المشروع وتحالفت مع البرتغاليين. للمزيد انظر: عبد المجيد عابدين، ص 177؛ الفيتوري، ص 173-174

³ عرب فقيه، ص ص 12 - 13

⁴ نفسه، ص ص 6، 9؛ Trimingham, op. cit., p84

⁵ عرب فقيه، ص 12، 14؛ فتحي غيث، ص 149

أ. مواجهة سلطة عدل للحبشة بقيادة الأمير محفوظ

خاضت إمارة عدل حرباً ضروساً ضدّ الأحباش في عهد سلطان محمد بن آزر بن أبي بكر (1498-1518)، التي كانت تسعى إلى استعادة أراضيها من الحبشة¹. وفي هذا الإطار قام الإمام محفوظ عام 921هـ/1515م بهجمات واسعة عليها، حيث توغل في أراضيها وأسر أعداداً كبيرة من جنودها وأحرق العديد من كنائسها، هذا ما كان يعارضه الملك محمد بن آزر الذي كان يحدّد سياسة المهادنة مع الأحباش². كلّ هذا والإمبراطور الحبشي يراقب الأوضاع عن كثب بواسطة جواسيس له في عدل³.

وبناءً على المعلومات التي قدّموها له تمكن الأحباش من مباغته جيش الأمير محفوظ في كمين نصبوه له وألحقوا به هزيمة ساحقة، أدّت إلى استشهاد وإبادة معظم جيشه، ثمّ واصل الجيش الحبشي الزحف نحو عاصمة عدل دكار التي دمرها عن آخرها، وتبع هذه الهزيمة حملة إبادة وحشية قادها الأحباش ضد المسلمين⁴.

تزامنت هذه الهزيمة مع وصول حملة برتغالية عام 922هـ/1516م بقيادة ليو سواريز إلى زيلع، وتدميرها انتقاماً من حكامها الذين ساندوا الإمام محفوظ في حربه⁵. وعلى إثر ذلك عمّت الفوضى والاضطرابات داخل مملكة عدل، التي كان من نتائجها مقتل حاكمها السلطان محمد بن آزر في عام 924هـ/1518م على يد صهره محمد بن أبي بكر⁶، الذي استولى على الحكم، ليقتل هو الآخر فيما بعد من طرف

¹ الصيرفي، ص 163

² Alvares, op.cit., p 307; Louis.j Morié , op.cit., pp 229- 230

³ ibid., p308

⁴ بعد هزيمة جيش الأمير محفوظ واستشهاده نكل الأحباش بجثته بحيث قطعوا رأسه وطافوا به في كلّ أرجاء الحبشة وأصبحت عادة عندهم أن يطوفوا برأسه في المواسم والأعياد، فقد وصف ألفاريس هذه الظاهرة عند وصوله إلى الحبشة عام 1520: « .. وكان عامّة الناس والغلمان والفتيان يقيمون به (رأس الإمام) مهرجاناً كبيراً كلّ يوم أحد... » انظر: Alvares ,op.cit.,p307; Trimingham, op.cit., pp 328-329

⁵ Trimingham, op. cit., p84

⁶ السلطان أبو بكر محمد بن آزر: هو من سلالة سعد الدّين المعروفة في بلاد الزَّيلع تولّى السلطة في إمارة عدل بعد قتله للأمير أبون، وقد عرفت فترة حكمه الفوضى والظلم، هذا ما أدّى إلى ظهور عدّة معارضين ومنهم الإمام أحمد بن إبراهيم الذي تمكّن من قتله بعد تأييد عامّة الناس والعلماء له. انظر: عرب فقيه، ص 5

الإمام أحمد بن إبراهيم، واستمرَّ الصراع على الحكم بين أبناء سعد الدين حتَّى وصول الجراد أبو بن آدشي إلى السُّلطة¹.

ب. مواجهة سلطنة عدل للحبشة بقيادة الجراد أبون بن آدشي

بعد هذه الهزيمة التي لحقت بمُسلمي سلطنة عدل، دخلت البلاد في فوضى عارمة كان من ضحاياها السُّلطان محمَّد بن آزر عام 924هـ / 1518م، وانتهت بوصول الجراد أبون إلى السُّلطة، الذي دامت فترة حكمه سبع سنوات، عمل خلالها على استتباب الأمن والاستقرار في البلاد، ويصف عرب فقيه أوضاع الإمارة في عهده بقوله:

«... ومَلِك الجراد أبون سبع سنين وأقام الحقَّ

والملك، وأمر بالمعروف ونهى عن المنك، وقتل قُطَاع

الطَّرق وأبطل الخمر واللَّعب والرَّقص بالطَّبُول وعَمَّر

البلاد وأحبَّ الأشراف والفقراء والفقهاء والمشايخ

واستولى على ملكه وأصلح الرِّعيَّة.....»².

وقد تعرَّضت الإمارة في فترة حكمه لعدَّة اعتداءات شتَّها الأحباش بقيادة أحد بطارقتهم ويُدعى فانييل *Faneel*، الذي تمكَّن من أسر أعداد كبيرة من المسلمين ونهب ممتلكاتهم، في هذه الظروف الصَّعبة والمُعقَّدة ظهر الإمام أحمد بن إبراهيم الذي كان من ضمن قادة جيش أبون بن آدشي والذي تمكَّن من هزيمة الأحباش في وادي عقم³.

بعد هذه المعركة ذاع صيت الإمام أحمد، وبان مدى عجز السُّلطان أبي بكر بن محمَّد عن ردِّ العدوان الحبشي عن البلاد، ونتيجة لذلك تدهورت هيئته في نظر السَّكَّان، رغم أنَّه كان يعتبر نفسه السُّلطان الحقيقي وأنَّ الجراد أبون قد اغتصبه منه، لهذا قام في

¹ الجراد: هو بمثابة حاكم عسكري يعيَّنه ملك الحبشة على المقاطعات التابعة له ويخضع له مباشرة، وهذا ليحدَّ من صلاحيات الأمراء المحليين. انظر: الفيتوري، ص 172

² عرب فقيه، ص 6-7

³ هو عبارة مجرى مائي يصل نهر النيل ببجيرة تانا. انظر: نفسه، ص 8، 11، وانظر كذلك الملحق رقم 3،

عام 925هـ/1520م بنقل مقرّ عاصمته من ذكر إلى هرر، وجمع حوله أعدادا كبيرة من معارضي الجراد أبون ومن الصّوماليين، وتوجّه بهم إلى الزَّيْلَع¹.

في هذه الأثناء بدأت تظهر الخلافات بين الإمام إبراهيم والجراد أبون، بسبب خشية هذا الأخير من تعاظم مكانة الإمام بين أتباعه، ومن جهة أخرى رأى الإمام إبراهيم أنّ الجراد أبون وعساكره خارجون عن الكتاب والسنة، فخرج عليه ومن معه من العساكر واجتمعوا في بلاد يقال لها هوبت، وبايعوا الجراد عُمر الدين أميراً عليهم، وانتهت هذه الخلافات بقتل الإمام إبراهيم للجراد أبون في عام 933هـ/1527م، وبهذا دخلت مملكة عدل من جديد في الفوضى².

وعلى إثر تلقي جيش السلطان أبو بكر هزيمة أمام جيش الإمام إبراهيم، فرّ من عاصمته هرر إلى منطقة تسمى كداد في الصومال، حينها أدرك الجميع أنّه من الواجب تولّي شخصيّة جديدة وقويّة قيادة الجهاد³.

أعاد السلطان أبو بكر الكرّة وكوّن جيشاً كبيراً من الصّوماليين، وهاجم به عاصمة الجراد أبون هرر، حيث عجز قائد الجيش عمر عن مجابهته ممّا اضطره أن يُخلي المدينة من أهلها، وفي أثناء ذلك لقي حتفه، فتولّى الإمام إبراهيم قيادة جيش الجراد أبون، وبعد تدخّل العلماء والفقهاء انتهت المواجهة بينهما بالصّلح⁴.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو كيف تمكن أبو بكر بن محمد من تجميع هذه الأعداد الكبيرة من الصّوماليين ضدّ السّلطة المركزيّة في عدل؟ والجواب في اعتقادي أنّه عند التدقيق في سير هذه الأحداث يُلاحظ أنّ الأمر يعود إلى تأييد الصوماليين عموماً له بسبب أحقيته في الحكم لأنّه من أسرة سعد الدين وهو الأحق بالحكم، وكانوا يرون في الجراد أبون أنه جرّده من كلّ صلاحيّاته، كما أنّهم رأوا في الإصلاحات التي قام بها

¹ الفيتوري، ص 177

² عرب فقيه، ص 7

³ نفسه، ص ص 11، 13

⁴ عرب فقيه، ص 13

الجراد أبون تهديداً لأنشطتها التي تقوم على السّلب والنّهب¹.

وبذلك نستنتج أنّ الظروف التي مرّت بها الممالك الإسلامية في الحبشة قبل وصول البرتغاليين كانت على أسوأ حال، فبالإضافة الى ضعفها عسكرياً، عانت من المشاكل الداخلية والصراعات على الحكم، هذا ما استغلّه الاحباش لفرض هيمنتهم عليهم بل وإذلالهم، ومما زاد في تدهور هذه الأوضاع تأمر حكام هذه الممالك مع الحبشة وهذا للحفاظ على مصالحهم الشخصية، مما أدى الى نفور الرعية منهم.

¹ حمدي السيّد سالم، الصّومال قديماً وحديثاً، الدّار القوميّة للطباعة والنّشر، القاهرة 1965، ص 307

المبحث الثاني

جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم للحبشة

تعتبر الحرب المقدسة التي قادها الامام أحمد بن إبراهيم من أعظم الحروب التي شنها المسلمون ضد مملكة الحبشة المسيحية، التي لا طالما مارست عليهم ضغوطات وتدخلت في شؤونهم، وكادت هذه الحرب أن تقضي على المسيحية في الحبشة لولا تدخل البرتغاليين ومساندتهم للأحباش.

1. نبذة عن شخصية الإمام أحمد بن إبراهيم

وُلد الإمام أحمد بن إبراهيم في مطلع القرن 16م¹ والمعروف عند الأحباش بالجران *Gran* - ومعناها بلغتهم الأشول -² في بلدة هوبت بالقرب من هرر من أبٍّ وأمٍّ صوماليين مسلمين على أغلب الظنّ حسب ما يُرجّحه عرب فقيه³. نشأ الإمام أحمد نشأةً متشبعةً بالدين الإسلامي الصحيح، وتربّى منذ صغره على الفروسيّة وحبّ الجهاد، وتعلّم أصول الدّين والفقه في مسقط رأسه ثمّ انتقل إلى زيلع التي كانت من المدن الإسلاميّة الزّاهرة آنذاك، وهناك أخذ مبادئ العلوم الإسلاميّة على أيادي شيوخها⁴، ومنها انتقل إلى هرر موطن آبائه وأجداده، حيث كانت المدينة عامرة

¹ حسب ترمينغهام يعود تاريخ ميلاده إلى الفترة الممتدة بين عامي 906هـ / 1500م أو 916هـ / 1506م. انظر:

Trimingham ,op.cit., p85

² عُرِف عن الإمام أحمد بن إبراهيم ورعه وتقواه لهذا لُقِّبهُ أتباعه بالإمام، وهناك من يُرجع ذلك الى تأثرهم بحكام اليمن الزيديين الذين كانت تربطهم به علاقات وثيقة، كما لُقِّبهُ مؤرخون أوروبّيون بأنثيلا إفريقيا، وقد نسج له أتباعه عدّة أساطير تحكي عن ورعه وتقواه وعن جهاده. للمزيد عن هذا الموضوع انظر: عرب فقيه، 24، 26;

Robert ferry, *Quelques hypothèses sur les origines des conquêtes musulmanes en Abyssinie au 16^e siècle*, in : *cahier d'études Africaines* vo2, n°25, 196, pp24-36, p31; Louis.j Morié, *Histoire de l'Ethiopie (Nubie et Abyssinie): depuis les temps les plus reculées jusqu'à nos jours*, T2 l'Abyssinie, librairie maritime et coloniale, Paris 1904, P228

³ عرب فقيه، ص4

⁴ شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزّاق إبراهيم، تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1996، ص 28

بالفقهاء والعلماء والمكتبات، هذا ما سمح له بالتّفقّه أكثر في الدّين، حتّى أصبح شيخاً ملماً بعلوم الدّين رغم حداثة سنّه¹.

انضمّ في شبابه إلى فرسان جيش الجراد أبون وهو أحد أمراء عدل المشهورين، الذي أصبح من مقربيه فيما بعد، ولمّا أعجب هذا الأخير بخصاله زوّجه حفيدته - ابنة الإمام محفوظ - وكسب بذلك ولاء هذا الأخير وولاء الجراد أبون². كما عُرف عن الإمام أحمد غيرته على دينه وتطلّعه لإصلاح أوضاع المسلمين في إمارة عدل³، ويبتغى هذا في لجوئه إلى استشارة العلماء والفقهاء في كلّ الأمور الهامة، فقد ذكرت بعض المصادر أنّ مفتي المسلمين أبا بكر بن نصر الدّين محمّد المُكنّى بـ"أرشوتة" كان يُرافق الإمام في معظم معاركه ويؤمّ المجاهدين قبل بدء القتال⁴.

وبعد وفاة الجراد أبون دخلت إمارات الزّيلع الإسلاميّة في فوضى عارمة، ممّا سمح للأحباش بالتّدخل في شؤونهم الداخليّة، لهذا عزم الإمام إبراهيم على مواجهتهم⁵، لكن كان عليه قبل ذلك العمل على تثبيت أركان جبهته الداخليّة، فعمل على استباب الأمن في البلاد وهذا تطبيقه لمبادئ الشريعة الإسلاميّة، وفي هذا الصّد سعى إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وإنصاف المظلومين وتوزيع الزّكاة والغنائم على المحتاجين، وضرب بيدٍ من حديد على كلّ من تُسوّل له نفسه العبث بمصير الأُمّة الإسلاميّة، وكلّ هذا في سبيل إعلاء كلمة الله والدّين، كما تمكّن من إدخال الكثير من الأحباش المسيحيّين والوثنيّين في الإسلام⁶.

¹ عرب فقيه، ص 6

² الفيتوري، ص 197

³ عرب فقيه، ص 7، 22، 37؛ Trimingham, op. cit., p 85

⁴ نفسه، ص 43 - 44

⁵ خاض الإمام أحمد بن إبراهيم حربه ضد الأحباش المسيحيين من منطلق دار السلام ودار الحرب. انظر:

Loouis jean marie, op. cit., p132

⁶ عرب فقيه، ص 17

ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا بعد إزاحة أهمّ عقبة أمامه ألا وهي السلطان أبو بكر وحاشيته، الذي حال دونصلاح أوضاع البلاد وتقاعس عن الجهاد وسلم البلاد للأحباش، خاصة بعد أن أعلن ولاءه للإمبراطور الحبشي، ونتيجة لذلك توترت العلاقات بين الطرفين وتمردّ عليه الإمام أحمد، الذي تمكّن من قتله عندما عرف بأنّه بصدّد تدبير مؤامرة للقبض عليه¹.

وبعد أن تمكن الإمام من قتل السلطان أبي بكر في عام 934هـ/1526م ساند السلطان عمر الدين للوصول إلى السلطة في هرر، وبذلك عادت الروح الجهادية للمسلمين وأعاد لهم بذلك ثقتهم²، خاصة بعد إخضاعه لقبائل الزَّيْلَع التي حاولت التمرد عليه بعد مقتل السلطان أبي بكر، كما انضمت إليه العديد من القبائل الصومالية، ومنها قبائل هردي والدناكل والأعفار³، التي متّنت علاقاته ببعضها بعلاقات مُصاهرة، فبعد معركة سامبرا كور Sambra- cur في عام 1529م زوّج أخته فردوسة لمتان بن عثمان Mattan ben otman زعيم قبيلة Geri، كما انضمّ إلى صفوف جيشه العرب والأشراف من سائر بلاد الزَّيْلَع وحتى من اليمينيين الذين أمدهوه بالأسلحة النارية، وتمكّن بذلك من توحيد وتقوية جبهته الداخلية⁴. وممّا زاد في ثقة أتباعه خبرته بالجوانب العسكرية، خاصة فيما تعلّق بإعداده الخطط الحربية وتنظيم الجيش، وحبّ العلماء والفقهاء له⁵.

¹ يورد بعض الباحثين أنّ السلطان أبا بكر تمكّن من استمالة بعض أعوان الإمام للقبض عليه ونقله إلى السلطان ليقّته، فلمّا علم الإمام بالأمر تمكّن من الفرار وأرسل مجموعة تمكّنت من قتل السلطان. انظر: الصيرفي، ص 179؛ الفيتوري، ص 197

² كان بإمكان الإمام إبراهيم بعد قتله للسلطان أبي بكر أن يبعد نهائياً أسرة سعد الدين عن الحكم وينفرد به، خاصة وأنّه كان يحظى بشعبية كبيرة بين الأهالي، إلا أنّه خشي من اندلاع فتنة تشغله عن هدفه الأسمى، ألا وهو فتح جميع أراضي الحبشة وإدخال سكّانها في الإسلام. انظر: عرب فقيه، ص 18

³ نفسه، ص ص7، 9، 17

⁴ Robert ferry, op. cit., p 29

⁵ فتحي غيث، ص 148

2. جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم ضدَّ الحبشة

قضى الإمام أحمد بن إبراهيم السنوات الأولى من نشاطه كما رأينا، في صراع مع السلطان أبي بكر، الذي تمكن في نهاية الأمر من قتله وتنصيبه لشقيقه عمر الدين سلطاناً على هرر، بعدها بدأ يعمل على تحقيق هدفه الأسمى ألا وهو إمامة المسلمين والاستيلاء على الحبشة، خاصة بعدما أدرك أنَّ الأحباش كانوا يسعون للتَّحالف مع البرتغاليين للقضاء عليه، والسيطرة على البلاد الإسلاميَّة، حينها أعلن تمرده على حُكَّام الحبشة ورفض دفع الجزية لهم، كما منع الإمارات الإسلاميَّة الحليفة له من ذلك، محاولاً الاستعانة في صراعه بالدولة العثمانيَّة، التي كانت تسعى هي الأخرى إلى منع البرتغاليين من الوصول إلى الحبشة والقرن الإفريقي¹.

وفي هذا الإطار تلقَّى الإمام مساعدات عسكريَّة من العثمانيين تمثَّلت في بعض الأسلحة النَّاريَّة (المدافع)، وعدد من الجنود الانكشاريَّة المدربين على استعمالها، وقد منحت هذه المساعدات التفوُّق العسكريَّ للإمام في الكثير من المعارك².

أ. بدايات المواجهات بين الإمام إبراهيم والملك لبنا دنجل

لَمَّا شعر الأحباش بزيادة قوَّة المسلمين بقيادة الإمام أحمد سعوا إلى القضاء على حركته في مهدها، لَمَّا كانت تُمثِّله من خطورة عليهم، ففي عام 934هـ/1527م كلَّف الملك لبنا دنجل صهره البطريق دلجلان³ إمارة فطجار بقيادة حملة قوامها ستمائة فارس للإغارة على أجزاء بلاد الزَّيلع الإسلاميَّة، وتمكَّن على إثرها من أن يُلحق بها عدَّة خسائر، فكان ردَّ الإمام سريعاً إذ جهَّز جيشاً وتوجَّه به لملاحقة الأحباش، حيث تمكَّن

¹ نظراً لأهمية لموقع سلطنة عدل على مدخل باب المندب، دَعَم العثمانيون الإمام أحمد بن إبراهيم في جهاده، واتَّخذوها معبراً لهم للتوغُّل في الحبشة، وهذا بتدعيمهم عن طريق مصر بأعداد من الإنكشاريين وكميَّة كبيرة من الأسلحة النَّاريَّة. انظر: إيفانوف، ص 196

² عرب فقيه، ص 73

³ البطريق: لا يُقصد بالبطريق عند الأحباش رجل الدين المسيحي بل يُقصدُ به قائد الجيش والذي غالباً ما يكون حاكماً على إحدى المقاطعات. انظر: الصيرفي، ص 183

من هزيمتهم قرب نهر الدَّير بإمارة أوفات، بعدما قتل وأسر أعدادا كبيرة منهم، وواصل هجومه حتَّى مملكة فِطْجار، ثُمَّ عاد بعدها إلى هرر مُعلنًا انتصاره، واستغلَّ الإمام هذا الانتصار لتعزيز علاقاته بالوالي العثماني في زبيد، الَّذي أرسل له جزءا من الغنائم والأسرى تعبيراً منه عن الاحترام الَّذي يُكَنِّه للدولة العثمانية¹.

يمكن اعتبار هذه الحملة آخر اعتداء حبشيٍّ على مسلمي الزَّيلع، لأنَّ الكفَّة مالت فيما بعد للمسلمين وتحول موقف الحبشة من الهجوم إلى الدِّفاع، وكان من نتائجها عزم الإمام إبراهيم على تخليص الإمارات الإسلامية نهائياً من تسلُّط الحبشة والتَّوغل لفتحها². وبهذا وجد نفسه في مواجهة عسكرية مباشرة معها، مستغلاً الصراع في البحر الأحمر بين العثمانيين والبرتغاليين³. وفي هذا الإطار ألحق هزيمة كبيرة بالأحباش في معركة "شَميري كُوري" في رجب 935هـ/ مارس 1529م، وحرَّر إمارتي دواروا وأوفات في شمال الصومال وما تبقى من الجزء الإسلامي في الحبشة من قبضة الأحباش⁴.

عاد الإمام أحمد بعد تحقيقه لانتصاراته تلك إلى مقرّه بهرر ببلاد الزَّيلع، حيث دعا القبائل الصَّوماليَّة المُسلمة إلى الوحدة والتَّرابط، فجاءته وفود القبائل المسلمة من كافَّة بلاد الزَّيلع والصَّومال، وحتَّى بعض المتطوعين للجهاد من الجزيرة العربيَّة، معلنةً ولاءها له ووقوفها إلى جانبه في حربه المُقدَّسة ضدَّ مملكة الحبشة⁵.

وتجمَّع في هرر آلاف الفرسان والمحاربين من مختلف القبائل العربيَّة والزَّيلعيَّة، ولتلبية حاجيات هؤلاء من الأسلحة اقتنى الإمام أحمد ما يحتاجه منها من اليمن، كما

¹ عرب فقيه، ص ص19، 23

² بن خيرة، ص 315

³ الشَّاطر بصيلي عبد الجليل، معالم تاريخ السودان وادي النيل (من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر)، مطبعة أبو فاضل، القاهرة 1955، ص 16

⁴ كانت مساهمة علماء الدين كبيرة في صناعة الإنتصار في هذه المعركة، وهذا بإذكاء روح الجهاد وتأجيج الشَّعور الدِّيني لدى أنصار الإمام. انظر: عرب فقيه، ص 59؛ الفيتوري، ص 198؛ Trimingham, op.cit, p7, 8.

⁵ عرب فقيه، ص 22- 23

استلم مساعدات عسكريّة أخرى من مصر تتمثل في أسلحة نارية من مدافع وبنادق وبارود وعدات حديثة أخرى¹.

هذا ما سمح له بتشكيل جيشٍ قويٍّ يتكوّن من مختلف القبائل الإريتريّة ومسلمي شرق إفريقيا شبه الجزيرة العربيّة وحتى من ساحل عمان، تمكّن بواسطته من تحرير الإمارات الإسلاميّة من السيطرة الحبشيّة كخطوةٍ أولى ثم بدأ في التوغّل في الحبشة لغزوها².

كان لهذه الانتصارات والإنجازات التي حقّقها الإمام أحمد، أثر كبير على نفسيّة السّلطان عُمر الدّين الذي ما فتئ يحبك ضده المؤامرات والدسائس، وهذا ما أدّى الى توتر العلاقات بينهما خاصة بعدما طلب السّلطان من الإمام مغادرة هرر إلى اليمن أو إلى الحجاز، ولكنّه تراجع عن قراره³.

تمكّن الإمام في بداية جهاده ضدّ الحبشة من التوغّل في أراضيها، حتى أنّه اجتاح قرابة ثلثي مساحتها، وكانت البداية بالإمارات الإسلاميّة الواقعة تحت نفوذها مثل فطجار وداوروا وبالي، ولأوّل مرّة نقل الإمام الأعمال العسكريّة إلى عمق أراضي الحبشة التي أصبحت ميداناً لأعنف المعارك بين الطّرفين، بل وأصبحت جيوش الإمام على مشارف مدينة أمهرة عاصمة الحبشة، التي انهارت جيوشها⁴.

تزامنت هذه الانتصارات مع اعتناق أعداد هائلة من الأحباش المسيحيّين للإسلام⁵ ومنهم سگان أمهرة نفسها وكان من بينهم الكثير من البطارقة، كما انظمّ المسلمين الذين كانوا تحت سيطرة الحبشة لحركته، وتوسّعت بذلك إمارة هرر⁶.

¹ سالم، ص 321

² نفسه، ص ص 340، 348

³ الصّيرفي، ص 181

⁴ بن خيرة، ص 318

⁵ أسلمت على يديه العديد من القبائل الوثنية التي كانت تقطن في جنوب الحبشة مثل أعفار والجالا. انظر: الفيتوري،

ص 181

⁶ عرب فقيه، ص 175

ب. توغل الإمام أحمد بن إبراهيم في الحبشة (937هـ - 940هـ / 1532م - 1535م)

بعد هذه الانتصارات الباهرة، قام الإمام أحمد بإعادة تنظيم جيشه، وتدعيمه بالأسلحة النارية والمدافع، ثم توغل به في بلاد الحبشة، حيث تمكن من الدخول به إلى العاصمة أمهرة والاستيلاء على غنائم كثيرة، لكنه سرعان ما تراجع إلى مراكزه في المناطق الجنوبية، مما سمح بعودة الأحباش إلى مناطقهم في فطجار وبالي وداوروا التي تمركزت بها جيوشهم، وبهذا نلاحظ على الإمام أنه لم يتمكن من استثمار الانتصارات الكبيرة التي حققها، ربما يعود ذلك لقلة خبرته العسكرية¹.

بعدها شرع في مرحلته الثانية من جهاده وهي غزو هضبة الحبشة والتي استعمل خلالها المدفعية، مما مكّنه من سحق جيوش الحبشة، واحتلال إمارة داوروا في رجب 937هـ / فيفري 1531م، وعقد على إثر ذلك صلحاً مع بطارقة الحبشة تضمن دفع الحبشة لجزية سنوية له².

ثم استمرت جيوشه في توغلها حيث استولت على شوا، فطجار وعلى جبرجي التي كان ملك الحبشة قد فر إليها، هذا ما اضطرّ الأحباش إلى التراجع وعبور نهر أواش³.

وفي 16 ربيع الأول 938هـ / 26 نوفمبر 1531م ألحق الإمام هزيمة أخرى بالجيش الحبشي في منطقة واصل، هذا ما سمح له بالسيطرة على العاصمة أمهرة، مما دفع بالملك لبنا دنجل وجيشه إلى التقهقر شمالاً، وعبور نهر النيل الأزرق ثم الهروب إلى جوجام التي اعتصم بجمالها، فتبعته جيوش الإمام إلى هناك واستولت على المدينة⁴.

وبالرغم من الهزائم المتتالية التي مني بها الأحباش، إلا أنهم تمكنوا من تجميع قواهم وألحقوا هزيمة بجيش الإمام في ربيع الثاني 938هـ / 1532م، الأمر الذي دفع به

¹ حمدي سالم، ص 336

² عرب فقيه، المصدر السابق، ص 132

³ نفسه، ص 132

⁴ للإطلاع أكثر على تفاصيل هذه المعركة. انظر: الفيتوري، ص 200؛ الصيرفي، ص 216 - 217 - 218

إلى التّراجع جنوباً لاستكمال وثبيت سيطرته على الأماكن التي سيطر عليها من قبل، وهذا بتعيين وثبيت حُكّام دائمين عليها من قبيله، ودعمهم بقوّاتٍ عسكريّة¹.

ومن أشدّ المعارك التي خاضها جيش الإمام في هذه المرحلة، معركة زلّة بأرض بالي في شهر ذي الحجة من عام 938هـ/ فيفري 1532م، حيث سمحت له ببسط سيطرته على مناطق شاسعة من أرض الحبشة، بعدما تمكّن من قتلٍ وأسرٍ أعداد كبيرة من البطارقة، وفي أثناء ذلك قرّر الإمام الاستقرار نهائياً بأرض الحبشة واتّخاذها موطناً له بدل من هرر، وأرسل إلى السلطان عمر الدين في برّ سعد الدين يُخبره بذلك، ويطلب منه أن يُرسل إليه عائلته وعائلات أتباعه للحاق بهم².

وبصفة عامّة يمكننا القول أنّ الانتصارات التي حقّقها الإمام أحمد بن إبراهيم خلال هذه المرحلة، تعود بالدرجة الأولى إلى شخصيّة القوية وإلى حنكته العسكرية، إذ تمكّن من أن يزرع الحماس بين أتباعه، الذين زادت أعدادهم بشكلٍ كبيرٍ وهذا بعد اعتناق الكثير من المسيحيّين والوثنيّين للإسلام، وتناقص أتباع المسيحيّة بشكلٍ كبير، بالإضافة دعم العثمانيين له عن طريق مصر بالإنكشاريين وبالأسلحة النارية³. وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على الإهتمام الكبير الذي كانت توليه الدولة العثمانية للمنطقة⁴.

ج. فتح الإمام أحمد للأقاليم الجنوبيّة من هضبة الحبشة

في الجهة المتقابلة تمكّن الأحباش بدورهم من الحصول على الأسلحة الناريّة من عند البرتغاليّين، هذا ما صعب على الإمام مواصلة التّوغّل في هضبة الحبشة، لهذا توجّه شمالاً لغزو إقليم التّيجراي⁵، لكنّه فشل في اقتحامه بسبب صعوبة تضاريسه

¹ بن خيرة، ص 323

² الصّيرفي، ص 231؛ Trimingham, op. cit., p 85

³ الصّيرفي، ص 324

⁴ ايفانوف، ص 196

⁵ تيجراي، منطقة تقع في أقصى شمال اثيوبيا، يسكنها شعب التجراي، ويتكلمون اللغة التيجرينية. انظر: كازالي،

ص 193

وامتلاك مُحاربيه للأسلحة النَّارية¹، واقتصرت انتصاراته هناك على فتح بعض المدن، توجّه على إثر ذلك صوب أكسوم التي سيطر عليها رغم استماتة أهالي التَّيجراي في الدِّفاع عنها، ثمّ واصل مطاردته للملك لبنا دنجل حتّى وصل إقليم جودجام².

رغم كلّ هذا تمكّن الإمبراطور لبنا دنجل من تجميع جيشه المشتت في عام 941هـ/1535م، ويهاجم جيش الإمام المرابط شرق بحيرة تانا لكنه هُزم مرّة أخرى، هذا ما سمح لجيش الإمام باقتحام أكسوم، ثم عبور نهر تيكازي واجتياز شمال الهضبة كلّها حتّى وصلت إلى إقليم بيجمدار في شمال جوجام، واستطاع أن يسيطر على شمال الهضبة من الشرق والغرب بعد أن سيطر على جنوبها من قبل³.

واستغلّ الإمام أحمد ضعف وتقهقر الأحباش وعبر بجيوشه جوجام في عام 943هـ/1537م، ثمّ النيل الأزرق، وواصل ملاحقته للملك لبنا دنجل، ففي عام 944هـ/1538م بعث بجيشٍ لتتبعه في إقليم سلامت، وهناك طارده حاكم الإقليم ممّا اضطرّه لعبور نهر تيكازي والفرار إلى إقليم التَّيغري⁴. وبقي بذلك مُطارَدًا إلى أن وافته المنية في 1540⁵. وأصبحت بذلك معظم أجزاء الحبشة خاضعة له بما فيها العاصمة بيت أمهرة⁶.

¹ يذكر ألفريس أنّ التَّيجراي قد اشتروا هذه الأسلحة من عند تجّار عثمانيين، لكن يبدو أنّ هذا الأمر مستبعد بحكم أنّ العثمانيين كانوا يساندون الإمام في حروبه، والأقرب إلى الواقع أنّ هذه الأسلحة يمكن أن يكون التَّيغري قد غنمها بعد حروبهم مع المسلمين أو اشتروها من عند تجّار يهود أو نصارى. انظر: Alvares, op. cit., p 410.

² بن خيرة، ص ص 325-326

³ لمعرفة المزيد على أهم المعارك التي انتصر فيها الامام أحمد بن إبراهيم على الأحباش. انظر الفيتوري، ص 200-201. وانظر كذلك الملحق رقم 4 ص 230

⁴ أوغث، ص 788

⁵ الفيتوري، ص ص 201-20

⁶ بيت أمهرة: هو مركز الحكم الاثيوبي، يقع في اقليم أمهرة الى الشرق من بحيرة تانا. انظر: نسبية عبد العزيز، الموقف العثماني من التحالف الحبشي البرتغالي (1507م - 1555م)، كلية الآداب قسم التاريخ، جامعة الموصل

ص 614؛ Routes Educationale, Volume 6(2), january 2019, university of mosule, p p 602- 628

وقبل وفاته راسل الملك لبنا دنجل ملك البرتغال يستجده، مقابل ربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة البابوية الكاثوليكية وفك ارتباطها بالكنيسة القبطية بالإسكندرية¹.

وبناء على ذلك أصدر ملك البرتغال أوامره إلى نائبه في الهند الدوم جارسيا دي نارونه *Dom garcia de Noronha* بإرسال المساعدات العسكرية اللازمة لمساندة الأحباش في حربهم المقدسة، لكن هذا الأخير تماطل في تنفيذ أوامر ملكه، لهذا تم عزله واستبداله باستيفاو دي غاما *Estevao da gama*².

وبناء على هذه الأوامر وصلت إلى سواحل البحر الأحمر في عام 948هـ/ 1542م الإمدادات التي كان قد طلبها الإمبراطور لبنا دنجل من البرتغاليين، والتي تمثلت في 541 جندياً برتغالياً مجهزين بالأسلحة النارية وبالمدفعية بقيادة دون كريستوفر ديغاما *Don Christopher DeGama*³. لكن قبل وصولها كان الملك لبنا دنجل قد وافته المنية وخلفه على عرش الحبشة ابنه كلاديوس *Galadewos* الذي كان قد شرع في الاستعداد لمواجهة الإمام أحمد مُتخذاً من مدينة شوا عاصمة له⁴.

د. تراجع ونهاية حركة الإمام أحمد

سمحت هذه المساعدات البرتغالية التي وصلت للأحباش، بدخولهم في مناوشات ضدّ القوّات الإسلامية، ولأوّل مرّة تتغيّر موازين القوى لصالحهم بحيث أصبح الأحباش

¹ لم يكن على ما يبدو هذا التحالف مبنياً على أسس متينة، ففي الوقت الذي كان فيه الأحباش يعتقدون أنّ البرتغاليين سيساعدونهم من خلال تحالفهم معهم على تطوير بلادهم، والوقوف بجانبهم في حروبهم ضدّ المسلمين، كان البرتغاليون يسعون لاتخاذ الحبشة قاعدة لهم عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وإلى اقناع الأحباش على اعتناق المذهب الكاثوليكي، وهذا ما رفضه الأحباش، وقام أحد ملوك الحبشة ويسمى ميناو بطرد المبشرين البرتغاليين من البلاد، وحدثت بذلك القطيعة بين. انظر: بابكور، مرجع سابق، ص 217-218؛ وانظر كذلك:

Stéphanie de jesus, *voyages des portugais au seizième siècle : L'image de l'orient dans les récits: vers une nouvelle image mythique de l'orient*, thèse doctorat en études ibérique et ibéro-américaine, université bordeaux Montaigne 2014, pp144- 145

² الصيرفي، ص ص 244 - 245

³ أوغث، ص 790

⁴ صبي، ص 131

هم من يبادرون بالهجوم، وتمكّنوا من الدّخول في معارك كبيرة ضدّ جيوش الإمام، وكانت استراتيجية البرتغاليين في ذلك تهدف إلى الإبقاء على ميزان القوّة في المنطقة لصالح حلفائهم الأحباش، على حساب القوى الإسلامية المحلية¹.

أرغمت هذه الهزائم الإمام أحمد على التّراجع والانسحاب من أجزاء كبيرة من أراضي الحبشة التي كان قد استولى عليها من قبل، والعودة إلى جبال زوبول المطلة على وادي الدّناكل، حيث عمل على إعادة تنظيم صفوفه².

رغم ذلك لم يولِ أهميّة كبيرة لا للهزائم المتتالية التي لحقت به، ولا للمساعدات البرتغاليّة الكبيرة التي وصلت للأحباش، وظنّ أنّه من السّهل عليه هزيمتهم كالمرات السابقة، وكرّد على تلك الهزائم أرسل الإمام جيشاً كبيراً قوامه عشرة آلاف من المُشاة وألف فارس بقيادة ابنه نصر الدّين، الذي حاول التّصدّي للأحباش لكنّه تلقّى هزيمتين متتاليتين كانت الأولى في شوا، والثانية في أوفات³.

شجّعت هاتان الهزيمتان العديد من القبائل الحبشيّة المسيحيّة من إقليم شوا والتّيغري وغيرها على الإنضمام إلى جيش الملك كلاديوس، وكان هذا بمثابة مقدّمة لسلسلة من الهزائم التي ستلحقُ بجيوش المسلمين منذ 949هـ/1543م، وكانت البداية بالهزيمة التي تلقاها في معركة وينا *wayna Dega* بالقرب من بحيرة تانا، والتي كان من نتائجها استشهاد العديد مُساعدي الامام، ممّا اضطرّه للانسحاب من المعركة، وهذا ما كان له تأثير كبير على معنويّات جنوده الذين لم يتلقّو مثل هذه الهزيمة من قبل⁴.

وتعود هذه الهزائم المتتالية إلى جملة من العوامل كان من أهمّها، استخفاف نصر

الدّين قائد جيش الإمام بالأحباش، بحيث لم يبال بالانتصارات التي حقّقوها من قبل

¹ خديجة أحمد الطّناشي، العلاقات بين القوى الإسلاميّة والمسيحيّة في الحبشة خلال النّصف الأوّل من القرن 16م، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضدّ الغزو الإيطالي، سلسلة الدّراسات التّاريخيّة، طرابلس 1996م، ص228؛ أوغث، ص790

² الفيتوري، ص 204؛ الصّيرفي، ص 250

³ الطناشي، ص229

⁴ Trimingham, op. cit ., p89

ولا بأهمية المساعدات البرتغالية التي وصلتهم¹.

أما الانتصارات التي حققها الأحباش وسرعة استعادتهم لقوتهم، فيُرجعها بعض الباحثين بالدرجة الأولى إلى وصول المساعدات البرتغالية، التي استغلها البرتغاليون في توثيق علاقاتهم معهم، حتى يُشغلوا العثمانيين في حربهم هناك عن الخروج إلى المحيط الهندي، والتّحالف مع القوى الإسلامية².

وكانت ثمرة هذه المساعدات تحويل الكنيسة اليعقوبية الأرثوذكسية إلى الكنيسة الغربية الكاثوليكية، وبالتالي لم يعد للكنيسة القبطية في مصر سلطة على نظيرتها اليعقوبية في الحبشة³. وكان هذا تلبية للعرض الذي كان قد قدّمه الملك لبنا دنجل للبرتغاليين من قبل، كعربون صداقة بينهما وثناً لطلب المساعدة من البرتغاليين، ويتّضح من خلال ذلك لنا أنّ عملية حلّ الكنيسة الحبشية لارتباطها بمصر، وتوثيقها بالغرب كان نتيجة ظروف خاصّة عاشتها مملكة الحبشة، وهذا التّحول لن يدوم طويلاً وحتماً ينتهي بانتهاء هذه الظروف التي كانت تتحكّم فيه ظروف سياسيّة بحتة⁴.

بعد توالي هزائم جيش الإمام بفعل المساعدات البرتغالية التي وصلت الى الأحباش استتجد من جديد بالعثمانيين، وطالب المساعدة من والي اليمن **محمد باشا زاده** وحاكم **زبيد مصطفى باشا**، اللّذين أرسلوا له إمدادات عسكريّة تمثّلت في عشرة مدافع وتسعمائة جنديّ انكشاريّ من حملة البنادق، وبواسطة هذه الإمدادات تمكّن الإمام من هزيمة الجيش الحبشيّ في معركة **آفلا Afla** عام 948هـ/1542م، التي تكبّد فيها البرتغاليون خسائر كبيرة وفقدوا نصف قوّاتهم التي كان من بينها قائد الجيش **كريستوفر دا غاما**⁵.

¹ الطناشي، ص 229

² الرمال، مرجع سابق، ص 295

³ لمعرفة للمزيد عن علاقات الكنيسة اليعقوبية بالحبشة بالكنيسة القبطية بالاسكندرية. انظر مؤلف مجهول، **الرهينة**

الحبشية...، ص ص31-32؛ Alvares, op. cit., p151

⁴ بن خيرة، ص 339

⁵ أزوتونا، ص 332؛ الفيتوري، ص 204؛ Trimmigham, op. cit., p 89

وكان من نتائج هذه المعركة أن استعاد الإمام نفوذه على الحبشة ورجح كفة الحرب لصالحه، كما سمحت للعثمانيين بتقوية نفوذهم سياسيًا وعسكريًا داخل بلاد الحبشة، حيث ألزمت الدولة العثمانية المسيحيين هناك بدفع الضرائب السنوية¹.

ظنَّ الإمام أحمد بعد انتصاره في هذه المعركة أنَّ مركزه قد توطّد نهائيًا في الحبشة، فأعاد الجنود الأتراك والعرب إلى بلدانهم وعاد هو إلى مركزه بجوار بحيرة تانا، وهنا يجب التنويه إلى أنَّ الإمام أحمد قد ارتكب خطأ كبيراً، بتسريحه لمعظم الجنود العثمانيين وإبقائه على 200 منهم فقط، وربما يعود ذلك إلى تخوفه من إمكانية بسط العثمانيين سيطرتهم على بلاد الحبشة ثمَّ ساحل شرق إفريقيا، وكان من الأجدر عليه أن يبرم تحالفًا استراتيجيًا طويل المدى مع العثمانيين، يضمن له سلامة المسلمين في بلاد الحبشة، مثل التحالف العسكري الذي عقده الأحباش مع البرتغاليين².

لقد بدا واضحاً تأثير البرتغاليين في مسار الصراع بين الطرفين الإسلامي والحبشي، وهذا بعد إرسالهم المزيد من المساعدات العسكرية للأحباش، بالإضافة إلى ضربهم لحصارٍ مُحكمٍ على سواحل البحر الأحمر لمنع وصول الإمدادات العثمانية إلى القوات الإسلامية، هذا ما ساعد على تطوّر الجيوش الحبشية من حيث الكفاءة ومن حيث التسليح³. شجعت هذه المساعدات الأحباش على استئناف اعتداءاتهم على سواحل زليغ، وأمام هذه التطوّرات الخطيرة لم يطلب المساعدة من العثمانيين⁴.

وأصبح بذلك مُحاصراً برّاً من جهة الشرق من القوى الحبشية وبحراً من جهة الغرب من البرتغاليين، في الوقت الذي قطع علاقاته بحلفائه العثمانيين، ودخلت أطراف الصراع (الحبشي-البرتغالي والهيري) في مواجهة بينهم من خلال معركة وينا *wayna Dega* بالقرب من بحيرة تانا (منبع نهر النيل الأزرق)، وكان هذا في 17 ذي القعدة 949هـ/22

¹ أوغث، ص 790؛ أوزوتونا، ص 332

² أوزوتونا، ص 790

³ Alvares, op. cit., p151

⁴ بن خيرة، ص 340

فيفري عام 1543م، انتهت بهزيمة كبيرة للمسلمين واستشهاد الكثير منهم، وكان من بينهم الإمام أحمد بن إبراهيم، ومُعظم أفراد الحامية العثمانية التي كانت تسانده¹. ونجت بذلك مملكة الحبشة من الانهيار ولم يعد المسلمون بعد ذلك يشكّلون خطراً عليها².

وما يمكن استنتاجه من خلال الحروب التي خاضها الإمام أحمد بن إبراهيم ضدّ الحبشة، أنّه رغم تحالفه مع الدولة العثمانية لم يقدر على الصّمود أمام التحالف الحبشيّ البرتغاليّ، ربّما يعود ذلك إلى عدم وجود نقطة ارتكاز للعثمانيين هناك تكون بمنزلة مقدّمة لهم لإمداد الإمام أحمد بن إبراهيم بما يحتاجه من إمدادات، ولكنّه بالمقابل نبّه العثمانيين لأهميّة الحبشة في صراعها مع البرتغاليين وبضرورة ضمّ الأقاليم الإسلامية هناك إليها، ولم يكن ليتسنى لهم ذلك إلّا بتحالفهم مع القوى الإسلامية المحليّة، هذا ما جعل السّلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ فيما بعد يفكّر في إنشاء إيالة الحبشة³.

كانت هذه الحرب التي خاضها الإمام أحمد ضدّ الحبشة شديدة الصّراوة، ورغم أنّها انتهت لصالح الأحباش إلّا أنّها أنهكت الطّرفين معاً، فقد أحدثت دماراً كبيراً في البلدين وخسائر كبيرة في الأرواح، هذا ما أدّى إلى زعزعة سلطة الحكّام عند الطّرفين كليهما⁴. كما اتّسمت بالطّابع الدّينيّ، إذ ساهمت الانتصارات التي حقّقها الإمام أحمد في الحبشة في اعتناق أعداد كبيرة من النّصرانيّين الأحباش للإسلام، وبالتالي عرف الإسلام انتشاراً واسعاً على حساب النّصرانية⁵.

أمّا من الجانب الحبشيّ فقد رافق قساوستهم ورهبانهم جيوشه التي حملت رايات عليها الصّليبان، في الوقت الذي ظهرت على رايات جيش الإمام الآيات القرآنية⁶.

¹ Trimmigham, op.cit.,p 89

² فتحي غيث، ص ص 104 - 105

³ أوغث، ص 215

⁴ يوسف أحمد، ص 38

⁵ نفسه، ص 38

⁶ الفيتوريّ، ص 202

والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل يمكن التسليم بأن الإمام أحمد بعد استغنائه عن مساعدة العثمانيين له، قد أصابه الغرور بفعل الانتصارات الساحقة التي حققها؟ أم استخف بقوة البرتغاليين الداعمين للحبشة؟ أم خشي من هيمنة العثمانيين على المنطقة بعد قضائهم على التحالف البرتغالي الحبشي؟ يبدو لي من خلال كل هذا أن الإمام لم يكن على دراية بطبيعة الصراع بينه وبين الحبشة ولا بخلفياته، وكانت نظرته إليه ضيقة لا تتعدى صراعا محلياً ذا طابع ديني متعصب تسانده قوى أجنبية خدمة لمصالحها بما فيها الدولة العثمانية. لكن واقع الحال يبين غير ذلك فالصراع كان جزءاً من صراع دولي شديد الضراوة بين الدولة العثمانية ممثلة وحامية لمصالح العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً، والقوى المسيحية الأوروبية وعلى رأسها البرتغال، الطامحة إلى الهيمنة على العالم الإسلامي، وكانت الحبشة جبهة من جبهات هذا الصراع.

كما أن إقدام الإمام أحمد بن إبراهيم على تهديم كنائس المسيحيين وإرغام الأحباش على الدخول في الإسلام يدل على تعصبه الديني وجهله بتعاليم الإسلام التي لا تتوافق مع إرغام غير المسلمين من المسيحيين على الدخول في الإسلام، ولا على تهديم أماكن عبادتهم، وهذا مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة، الآية 256: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميعٌ عليم". بل على العكس كان عليه أن يحسن إليهم ويكرمهم ويتركهم أحراراً في اعتناق الإسلام طواعية، وأن يعتبرهم أهل ذمة بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، كما فعل محمد الفاتح بعد فتحه للقسطنطينية بمنحه الأمان لسكانها والسماح للمسيحيين منهم بممارسة شعائهم الدينية داخل كنائسهم، وهذا من صلب تعاليم الدين الإسلامي التي توصي بأهل الذمة خيراً مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث شريف: "من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنتُ خصمه خصمته يوم القيامة".

3. أوضاع الحبشة بعد استشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم

كان لاستشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم وفشل حركته، تداعيات كبيرة على مستقبل الإسلام والمسلمين ببلاد الحبشة، إذ مالت الكفة لصالح مملكة الحبشة المسيحية وأصبح المسلمون في وضع دفاع يسعون الى الحفاظ على تواجدهم بعدما كانوا على وشك القضاء على الحبشة.

أ. تجدد حركة الجهاد قيادة الوزير عباس

بعد استشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم حاول بعض قادته، وعلى رأسهم الوزير عباس¹ رُفقة ما تبقى من أتباع الإمام إعادة تشكيل وتنظيم الدولة في المناطق الإسلامية ببلاد الحبشة (داوروا وبالي وفكجار)، وأثناء ذلك كان الملك الحبشيّ كلاديوس منهمكاً هو الآخر في إعادة تشكيل دولته وتنظيم جيشه في منطقة أجاي Agay الحبشية².

وخلال شهر أكتوبر من عام 950هـ/1544م وجّه الملك كلاديوس جيشاً ضخماً للقضاء على الوزير عباس، حيث وقعت معركة عنيفة بين الطرفين في منطقة واج Wag، انتهت بهزيمة جيش المسلمين واستشهاد الوزير عباس³.

استغلّ الأحباش هذا الانتصار وأغاروا على المناطق الإسلامية في دوارو وفطجار وبالي، ثمّ احتلّوا إمارة هدية بعدما ارتكبوا فيها مجازر رهيبة، وعيّن عليها الملك كلاديوس حاكماً حبشياً، وأرغم سكّانها على دفع الجزية انتقاماً منهم، هذا ما شجّع على ارتداد الكثير من المسيحيين الأحباش الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام من قبل، وعودة الرّهبان ورجال الدّين المسيحيين إلى نشاطاتهم⁴.

¹ الوزير عباس: هو من بين أهمّ قادة الإمام أحمد بن إبراهيم شارك إلى جانبه في فتح معظم أرجاء بلاد الحبشة،

عيّنه الإمام في عام 1532 وزيراً لديه. للمزيد انظر: عرب فقيه، ص ص 333، 341

² نفسه، ص ص 333، 341

³ نفسه، ص ص 333، 341

⁴ Trimmigham, op.cit., p 90

سمح هذا الفراغ الذي تركه الإمام أحمد بعد استشهاده، والضعف الذي آلت إليه مملكة الحبشة باكتساح قبائل الجالا¹ الوثنية للحبشة، التي بدأت في اكتساحها لأراضي الحبشة في شكل موجات بشرية، ثم دخلت في حروب ضد الأحباش والمسلمين على السواء، وتمكنت خلالها من احتلال مساحات شاسعة، فاستولت من المسلمين على داورو وبالي فيما بين 953هـ/1545م و955هـ/1547م، وعلى هرر في عام 974هـ/1567م، واستمرت في توسعاتها مستغلة اضطراب الأوضاع في مملكة الحبشة المسيحية والممالك الإسلامية المجاورة لها، حتى عبرت نهر أوأش واتجهت إلى الأقاليم المنخفضة بين البحر الأحمر والحافة الشرقية لهضبة الحبشة والمعروفة بإقليم الدناكل، وقطعت بذلك الطريق بين زليغ وهرر التي ساءت أحوالها بشكل كبير².

ب. مساندة العثمانيين للإمام بن الوزير في جهاده ضد الحبشة

بعد فشل محاولة الوزير عباس في إعادة إحياء دولة الإمام أحمد، تولّى السلطة في هرر الإمام نور بن الوزير³ في عام 956هـ/1550م، وأول ما أقدم عليه هذا الأخير هو تحصين إمارته أمام هجمات قبائل الجالا التي انشغل الأحباش بمواجهتها في الجنوب مثلما انشغلوا بمواجهة العثمانيين في الشمال⁴.

كما عرفت هذه الفترة ظهور خلافات بين الأحباش والبرتغاليين، خاصة بعدما تنصل ملك الحبشة كلاديوس من الوعود التي قطعها للبرتغاليين باعتناق الأحباش للمذهب الكاثوليكي، هذا ما أسهم في إضعاف التحالف العسكري بينهما ضد مسلمي

¹ قبائل الجالا: هي قبائل سكنت أجزاء من هضبة الحبشة، تميزت بكثرة أفرادها، وفروعها، التي عرفت صراعاً فيما بينها، لهذا نزحت أعداد كبيرة منها شمالاً إلى داخل الحبشة، وبعد استقرارهم هناك واحتكاكهم بالمسلمين، اعتنق الكثير منهم الإسلام. للمزيد انظر: فتحي غيث، مرجع سابق، ص 162-163-164

² للمزيد انظر: يوسف أحمد، ص 39؛ الفيتوري، ص 179-180-181

³ كان الإمام نور الدين قد تزوج من أرملة الإمام أحمد، التي حاولت في البداية الانتقام لزوجها لكنها فشلت في ذلك.

انظر: فتحي غيث، ص 160

⁴ نفسه، ص 160

الحبشة والدّولة العثمانية¹.

استغلّ الإمام نور بن الوزير هذه الظروف وحاول إعادة الجهاد وإحياء مجد المسلمين، مُتخذاً من الإمام أحمد بن إبراهيم قدوةً له، حتّى لقّبه أتباعه "بصاحب الفتح الثاني"، لكنّ ظروفه كانت تختلف عن ظروف سابقه، ففي أوّل مواجهة له مع الأحباش تلقّى هزيمة في داوروا².

ولكنّ الأمور تغيّرت فيما بعد لصالح الإمام نور الدّين، خاصّة بعدما ظهر خطر قبائل الجالا من جديد الذي أصبح يهدّد الحبشة من الجنوب، وظهور العثمانيين من الشمال، الذين حسّنوا مواقعهم في البحر الأحمر بعدما استولوا على مصوع وحرققيو وبدؤوا يسعون للتوغّل داخل إريتريا³. وساعدوا الإمام نور الدّين على تكوين جيش قويّ مجهّز بالأسلحة النّارية توجّه به لفتح الحبشة، حيث اشتبك في عام 967هـ/1559م مع جيش الأحباش بقيادة الملك كلاديوس في معركة فطجار، أين حقّق المسلمون انتصاراً كبيراً على الأحباش وقتلوا الآلاف منهم وكان من ضمنهم الملك كلاديوس نفسه⁴.

توفّي نور الدّين بن مجاهد في 974هـ/1567م بهرر⁵، وبوفاته انتهى مجد سلطنة هرر الإسلاميّة واتّجهت نحو الضّعف والانحطاط، واعتلى السّلطة بها عثمان وهو أحد العبيد المقربين من الإمام نور الدّين، الذي حاول إعادة إحياء مجدها وعقد معاهدة سلام مع قبائل الجالا، الذين تعهّدوا بمقتضاها بعدم مهاجمة إمارته مقابل السّماح لهم بارتداد أسواقها، حتّى يجعلهم يحتكّون بالمسلمين ويتعرّفون على الإسلام عن كثب، وهذا ما كان سبباً في اعتناق العديد منهم للإسلام⁶.

¹ الصّيرفي، ص 269

² Trimmigham, op. cit., pp, 91, 94

³ فتحي غيث، ص 161

⁴ Trimmigham, op.cit., pp, 92; 203 ص إيفانوف،

⁵ أوغث، ص 794؛ فتحي غيث، ص 160

⁶ الصّيرفي، ص 287

ورغم المجهودات التي بذلها الإمام عثمان - خليفة الإمام نور الدين - من أجل إعادة إحياء مجد سلطنة هرر إلا أنّ فترة حكمه لم تستمرّ طويلاً، إذ ثار عليه أحد أبناء الوزير عبّاس، لكن سرعان ما استعاد عثمان الحكم من جديد، ودخلت الإمارة في الفوضى وعدم الاستقرار، هذا ما أعطى الفرصة للحبشة بالعودة إلى سياستها القديمة المتمثلة في ظلم وإذلال المسلمين، الذين زادت أوضاعهم سوءاً خاصّة بعد اجتياح قبائل الجالا لأراضيهم¹.

خلّفت هذه الحرب التي دامت أكثر من ثلاثين سنة ودارت رحاها بين مملكة الحبشة المسيحية المدعّمة من طرف البرتغاليين والممالك الإسلاميّة وعلى رأسها إمارة هرر آثاراً بليغة، وبالرّغم من ذلك لم تُحسم لأحد الطّرفين².

¹ يوسف أحمد، ص39

² إيفانوف، ص 204

المبحث الثالث

طبيعة العلاقات بين مملكتي البرتغال والحبشة

رغم وجود تحالف استراتيجي بين مملكة الحبشة ودولة البرتغال المسيحيّتين، إلّا أنّ العلاقات بينهما لم تكن مستقرّة على الدّوام، إذ تراوحت بين المودة والتّشنج.

1. التّحالف الحبشيّ البرتغاليّ ضدّ القوى الإسلاميّة في بلاد الزّيلع

تعود فكرة استعانة ملوك الحبشة بالأوروبيّين إلى منتصف القرن 15م، حيث أصبحت فكرة استعانتهم بالباباوات وملوك أوروبا سياسة تكاد تكون رسميّة وثابتة بالنّسبة لهم، وكانت الملكة هيلينا- الوصيّة على ابنها لبنا دنجل (913هـ/1508م-946هـ/1540) أشدّ المتحمّسين إلى ضرورة الاتّصال بالبرتغاليّين والاستعانة بهم لمواجهة المسلمين، لكنّها قبل ذلك حاولت أن توطّد علاقاتها مع حكام الإمارات الإسلاميّة في الحبشة وبالأخصّ حكام عدل، وهذا حتّى يكون للحبشة منفذ بحريّ على البحر الأحمر، إلّا أنّ مساعيها باءت بالفشل، كما حاولت أن تتحالف مع المماليك، لكنّ أوضاع مصر آنذاك حالت دون ذلك، خاصّة بعد هزيمتها في معركة ديو في 974هـ/1509م¹.

لهذا سعت للتّحالف مع البرتغاليّين، وفي هذا الإطار أرسلت مبعوثاً يدعى ماثيو الأرمينيّ إلى ملك البرتغال إمانويل (1495-1521)، وحمّله هدايا ورسالة أبدت من خلالها إعجابها بالانتصارات التي حقّقها البرتغاليّون على المسلمين في البحار الشّرقية، ورغبتها في عقد تحالف بين الدّولتين قصد غزو مكّة المكرّمة والسيطرة على البحر الأحمر، وبقي ماثيو في البرتغال حتّى 920هـ/1515م²، حيث تمكّن من الوصول إلى لشبونة ومقابلة الملك إيمانويل بعد أن قدّم له رسالة ملكته هيلينا³.

¹ الفيتوري، ص ص 173-174

² نسبية عبد العزيز، ص ص 602، 628، p231، op. cit., Louis.j Morié

³ عميداح محمّد فريد السيّد حجّاج، صفحات من تاريخ الصّومال، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص1

وفي عام 926هـ/1520م عاد المبعوث الحبشي إلى الحبشة ضمن بعثة دبلوماسية برتغالية رُفقة السفير البرتغالي رودريغو دي ليما *Rodrigo de lima*، وقد أصيب هذا الأخير بخيبة أمل بسبب الضعف الذي وجد عليه الأحباش¹. بقي السفير البرتغالي في الحبشة مدة خمس سنوات حاول خلالها إقناع الأحباش باعتماد المذهب الكاثوليكي لكن دون جدوى، كما عرض عليهم مشروعاً يتمثل في سيطرة البرتغال على سواحل البحر الأحمر وتولي البرتغال حماية الحبشة، لكن الملك الحبشي رفض المشروع واعتبره شكلاً من أشكال الهيمنة البرتغالية على الحبشة، لهذا عادت البعثة البرتغالية إلى لشبونة عام 1526م دون تحقيق أية نتائج².

ولما اعتلى الملك لبنا دنجل (1540-1507م) عرش الحبشة جدد مطالبه للبرتغاليين بالتحالف معهم ضد المسلمين وطلب منهم العتاد والسلاح وهذا من خلال الرسالة التي بعثها إلى ملك البرتغال، كما بعث برسالة أخرى إلى البابا كليمنت السابع (1523-1534م) أبدى له من خلالها مخاوفه على مستقبل المسيحية في الحبشة، كما طلب منه ضم الكنيسة المسيحية اليقوبية بالحبشة للكنيسة في روما، وتنفيذاً لوعوده عين لبنا دنجل الأسقف البرتغالي برمودز بطريقاً على كنيسة الحبشة³، ثم كلفه بالسفر إلى لشبونة لإطلاع ملك البرتغال جون الثالث على الأوضاع الكارثية التي أصبحت عليها الحبشة، وقد بعث هذا الأخير في عام 1539م برسالة مع برمودز إلى حاكم البرتغال في غوا دون جراسيا، يأمره بتقديم مساعدات عسكرية لملك الحبشة، لكن هذا الأخير وافته المنية بعد تلقيه الرسالة مباشرة، وقام بتنفيذ هذه المهمة خليفته دي غاما⁴.

بيّنت المراسلات بين ملوك الحبشة المسيحية وملوك البرتغال وقادتهم العسكريين أنّ الصراع كان دينياً بحتاً، تمثل في رغبة الأحباش في طرد المسلمين نهائياً من الحبشة

¹ أوليا جليبي، مصدر سابق، ص 481؛ إفانوف، ص 181

² عميداح، ص 132؛ صبي، ص 128

³ نفسه، ص ص 16-17

⁴ نفسه، ص 17

وهذا ما أدّى إلى توثيق العلاقات البرتغاليّة الحبشيّة، حتّى إنّ الملك لبنا دنجل قبل بكتلكة الحبشة كعربون لتوطيد هذه العلاقات، رغم المعارضة الشّديدة الّتي كان يُديها مستشاريه¹.

لكن يبدو لي أنّ التّحالف البرتغاليّ الحبشيّ خلال القرن 16م لم يكن مبنياً على أسسٍ متينة، بحيث كان كلّ طرفٍ يسعى لاستعمال الطّرف الثّاني لتحقيق أهدافه ومصالحه، ففي الوقت الّذي كان الأحباش يعتقدون أنّ البرتغاليّين يسعون إلى مساعدتهم على تطوير بلادهم والوقوف بجانبهم ضدّ تحرّشات الإمارات الإسلاميّة الحبشيّة المجاورة لهم، كان البرتغاليّون يريدون إحكام قبضتهم على الحبشة واتّخاذها قاعدة لهم عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وتحويل الأحباش إلى المذهب الكاثوليكيّ، وهذا ما رفضه الأحباش، وقام أحد ملوكهم ويسمّى ميناى بطرد المبشرين البرتغاليّين من البلاد، وبذلك حدثت القطيعة بين الطّرفين².

2. عودة الخلافات بين الكنيستين الكاثوليكيّة واليعقوبيّة في الحبشة

بعد انتهاء سلسلة الحروب المنهكة الّتي خاضتها مملكة الحبشة ظهرت خلافات بينها وبين حلفائها البرتغاليّين الذين حاولوا كبتكّة الأحباش، هذا ما رفضه هؤلاء رغم وجود اتّفاقٍ دينيّ بينهما، كان قد أبرمه الملك لبنا دنجل، وينصّ على ضمّ الكنيسة الحبشيّة إلى الكنيسة الكاثوليكية مقابل حصولهم على مساعدات لمواجهة ثورة الإمام أحمد، لهذا تدهورت العلاقات بينهما، وهذا ما أسهم في إضعاف هذا التّحالف³.

وكان من نتائج هذه الخلافات أن تتكرّر ملك الحبشة كلاديوس لكلّ الالتزامات الّتي أبرمها والده مع البرتغاليّين عام 1540م، الذين طالبوا بتنصيب الرّاهب الكاثوليكي

¹ عميداح، ص 110

² للاطلاع أكثر على هذا الموضوع. انظر: بابكور، مرجع سابق، ص 217-218؛

Stéphanie de jesus, op. cit., pp144- 145

³ الصّيرفي، ص 269

بارموديز بطريقاً على كنيسة الحبشة، وأن يسمح له بتنصيب جميع رجال الدّين هناك، هذا ما رفضه الملك كلاديوس كما رفض الخضوع هو وشعبه للكنيسة الكاثوليكية، وأمام هذه التّطوّرات هدّد البرتغاليّون بإيقاف جميع مساعداتهم للأحباش، هذا ما أرغم ملك الحبشة على القبول بشروط بارموديز، وأعلن رسمياً انضمام كنيسة الحبشة اليقوبية للكنيسة الكاثوليكية وخضوعه المطلق للبابا في روما¹.

وحتىّ يُخلّص الملك كلاديوس شعبه من السّيطرة البرتغالية، ومن تدخّل في شؤون الحبشة الدّينية طالب من الجيوش البرتغالية التّوجّه لمحاربة قبائل الغالا التي أصبحت تهدّد حدود مملكته، ثمّ قام بعدها بسجن الرّاهب بارمودي².

قام البرتغاليون في عام 1555م بمحاولة أخرى لنفس الغرض، وهذا بإرسال بعثة تبشيرية أخرى يقودها الرّاهب قونزالو رودريجز *Gonzalo Rodriguez* إلى الحبشة³.

وعند وصولها قام المبعوث رودريجو بتقديم الأخطاء الدّينية التي يتضمّنها المذهب اليقوبي الذي يتبنّاه الأحباش من وجهة نظر البرتغاليين، مع تقديم اقتراحات لتصحيح عقيدتهم، هذا ما رفضه الملك كلاديوس ورجال الدّين الأحباش الذين أعلنوا تفضيلهم الدّخول في الإسلام على أن يغيّروا مذهبهم ويرتبطوا بالعقيدة الكاثوليكية، وبذلك فشلت هذه البعثة في مهمّتها وعادت إلى البرتغال في عام 1556م⁴.

وفي عام 1557م قام ملك البرتغال جواو الثالث *Joao III* بإرسال بعثة أخرى للحبشة بقيادة الأسقف أندرو دي أفيدو *Andrew De Ovido* وهذا لإقناع ملك الحبشة كلاديوس على تبني المذهب الكاثوليكي في بلاده⁵، وبعد عدّة لقاءات بين البعثة

¹ نفسه، ص 269

² *Castanhoso, op.cit, pp. 208, 210*

³ الشّناوي، ص 556

⁴ *Jones and Monroe, op. cit., p87*

⁵ الصّيرفي، ص 274

البرتغاليّة ورجال الدّين الأحباش لم تتمكّن البعثة من إقناع الأحباش بالتّخلي عن مذهبهم وعادت هي الأخرى إلى لشبونة دون تحقيق أيّة نتائج¹.

وبعد إحكام العثمانيين لسيطرتهم البحريّة على مياه البحر الأحمر وبحر العرب ومضيق عدن باليمن، وتمردّ القائد بحر النّجش إسحاق وثورة قبائل الجالا، طالب ملك الحبشة سرصا دنجل *Sarsa Dengel* (1563م-1597م) المساعدة من ملك البرتغال الدوم سيباستيان *Dom Sebastian* (1557-1578م)، هذا الأخير رفض بسبب رفض الأحباش التّخلي عن مذهبهم واعتناق المذهب الكاثوليكي².

¹ مكثت البعثة البرتغالية مدة طويلة في الحبشة، بسبب الحصار الذي كان يفرضه العثمانيون على البحر الأحمر وعند عودتها إلى ميناء غوا بالهند، اعترضها أسطول صفر ريس الذي تمكن من السيطرة على السفينة الي كانت على متنها من أصل ثلاث سفن برتغالية. انظر: F Sousa, op. cit., pp 198-199.

² الصيرفي، ص 286

المبحث الرابع

السياسة العثمانية في شرق إفريقيا والحبشة

بعد فشل سياسة العثمانيين في تدعيم القوى المحلية في الحبشة، لجؤوا الى تغيير سياستهم في المنطقة، فبد العتماد على القوى المحلية وتدعيمها أنشؤوا اىالة الحبشة لتكون نقطة ارتكاز لهم في المنطقة.

1. تأسيس العثمانيين لإيالة الحبش وتوغلهم في المناطق الداخلية.

أ. ظروف تأسيس إيالة الحبش (حبشستان)

رغم تلقّي الإمام أحمد بن إبراهيم للمساعدات من الدولة العثمانية خلال حربه ضد مملكة الحبشة وحلفائها البرتغاليين، إلّا أنّه أنّه انهزم في نهاية المطاف، ممّا شجّعهم على التّماذي في اعتداءاتهم على السّواحل الغربيّة للبحر الأحمر، حيث أصبحت الدّويلات الإسلاميّة في السّودان والقرن الإفريقيّ أمام خطر حقيقيّ، حينها قرّرت الدّولة العثمانيّة استباق الأحداث والتّدخل لبسط سيطرتها على هذه المناطق لحمايتها منهم، ولم يكن ليتسنى لها ذلك إلّا بوجود نقطة ارتكاز لها هناك، وهذا بعدما فشلوا في الاعتماد على القوى المحليّة في مواجهتهم للبرتغاليين والأحباش¹.

لهذا وجّه العثمانيّون إلى المنطقة حملتين بحريتين لفتح المنطقة، كانت الأولى بقيادة بيري ريس² عام 955هـ/1549م والثّانية بقيادة سيد عليّ ريس في 959هـ/1553م. لكنّهما فشلا في ذلك، لهذا فكّر السّلطان العثمانيّ سليمان القانونيّ جدّياً في إنشاء إيالة

¹ فاضل البيات، ص453

² محي الدين بيري ريس: هو من أشهر البحّارة العثمانيين، كونه ملاح وجغرافياً، كان ماهراً في رسم الخرائط الجغرافية، اكتسب مهاراته من خلال مرافقته لجده كمال ريس. عينه السّلطان العثمانيّ سليمان القانوني عام 1547 قابوداناً على الأسطول العثماني في المحيط الهندي. له العديد من المؤلّفات من أهمها كتاب بحريّة الذي ضمّنه معلومات وعدّة خرائط، ضمّنه خرائط. أعدمه السّلطان العثمانيّ عام 1554 بعد وشاية من والي البصر. للمزيد انظر: خضير رابحة محمد، من أعلام الجغرافيا البحرية العثمانية (محي الدين بيري ريس)، مجلة التّربية والعلم، مج. 16، ع: 4، قسم التاريخ، جامعة الموصل، العراق، 2009م، ص68؛ سرهنك، ج 2، ص41

الحبش - *Iyalet-i Habeş* - فيما بين 1554 و 1555م¹.

ويعود الفضل في تأسيسها لأزدمير باشا *Özdemir paşa*² الذي كان بايلرباياً على اليمن، قبل أن يكلفه السلطان العثماني بهذه المهمة، والجدير بالذكر أن العثمانيين كانوا قد أحكموا سيطرتهم على اليمن منذ عام 946هـ/1538م، واتخذوه قاعدة متقدمة لهم في مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي وشرق إفريقيا، وبسبب الصراع بين أجنحة³ السلطة في الدولة العثمانية دخل اليمن في فوضى عارمة، انتهت بمقتل واليها مصطفى النشار في عام 956هـ/1548م، وعلى إثر ذلك استتجد نائبه أوزدمير باشا بالسلطات العثمانية في مصر، حيث أمده واليها داود باشا بمساعدات تمكّن بواسطتها من إخماد الأوضاع هناك، وفوّت بذلك الفرصة على البرتغاليين لبسط سيطرتهم على المنطقة، وعلى إثر ذلك تمّ تعيينه بايلرباياً على اليمن منذ عام 956هـ/1548م⁴.

وخلال فترة ولايته التي دامت خمس سنوات أظهر أزدمير باشا مهارة كبيرة في إدارة شؤون البلاد بحيث أعاد لها الأمن والاستقرار، وتمكّن من تحويل اليمن من مجرد مركز حراسة متقدم للدولة العثمانية على المحيط الهندي إلى جزء لا يتجزأ منها⁵.

¹ تمتد إيالة الحبشة من الحدود الجنوبية لمصر حتى القرن الإفريقي في شكل شريط ساحلي زهي بذلك أبعد نقطة في الحدود الجنوبية للدولة العثمانية، اتخذها العثمانيون كقاعدة متقدمة لهم في المنطقة الممتدة بين البحر الأحمر وخليج عدن لمواجهة البرتغاليين. انظر: فاضل البيات، ص 451؛ إيفانوف، ص 202؛ وانظر كذلك الملحق رقم 3، ص 229

² أوزدمير باشا: *Özdemir paşa* هو من جراكسة مصر الذين خدموا الدولة العثمانية بإخلاص في حملة سليمان باشا الخادم على بلاد الهند عام 1538م، كان له الفضل في لفت انتباه الديوان الهمايوني إلى ضرورة ضمّ بلاد الحبشة لآيالة مصر وهذا نظراً لأهميتها الإستراتيجية في ظلّ الصراع العثماني البرتغالي، وفي هذا الإطار عيّنه السلطان سليمان القانوني مستشاراً خاصاً له مختصاً بالأمور الإفريقية، للمزيد انظر: النهروالي، ص 98-120؛ أوزتونا، ص 331

³ بعد أن بلغت الدولة العثمانية مرحلة العالمية عرفت ظهور عدّة أجنحة سياسية متصارعة، ومنها جناح كان يعمل على توجيه اهتمام الدولة العثمانية ناحية المحيط الهندي والسواحل المحيطة به بما فيه شرق إفريقيا وأطلق على أتباعه عصابة المحيط الهندي الذين احتكروا إدارات كل من مصر واليمن وخليج البصرة. انظر: كازالي، ص 18

⁴ نفسه، ص 172

⁵ النهروالي، ص 97-98، 105؛ كازالي 191

ب. حملة أوزدمير الأولى على الحبشة

بعد نهاية خدمته كبايلرباي على اليمن في ربيع الثاني 961هـ/أفريل 1554م استدعي أوزدمير باشا إلى إسطنبول، حيث رتب له الصدر الأعظم قارة أحمد باشا Kara Ahmet paşa لقاءً مباشراً مع السلطان سليمان القانوني¹، وتزامن ذلك مع الإبعاد المؤقت للصدر رستم باشا عن السلطة -وهذا بعد إعدامه لابنه الأمير مصطفى²-، ويعتبر هذا أول لقاء يجمع السلطان العثماني بوالي اليمن، وقد تحادتا خلاله في شؤون مصر واليمن وحبشستان، وفي كيفية مواجهة البرتغاليين في شرق إفريقيا الذين أصبحوا يهددون التجارة الإسلامية هناك وتقديم الدعم لمسلمي الحبشة³.

وكان أوزدمير باشا على دراية كبيرة بخبايا المنطقة، وعرض عليه خلال هذا اللقاء مشروع توسع الدولة العثمانية على السواحل الغربية للبحر الأحمر والمكاسب التي ستجنيها الدولة العثمانية من وراء ذلك، واقتنع السلطان بهذا المشروع، لهذا كلفه بقيادة حملة عسكرية لفتح حبشستان⁴. وعند وصوله إلى مصر شرع أوزدمير باشا في التحضير للحملة بمساعدة واليها سليمان باشا⁵.

بعد إتمام التحضيرات انطلقت الحملة في أواسط سنة 962هـ/1555م جنوباً عبر نهر النيل، وتمكن على إثرها من السيطرة على سواحل الحبشة التي بنى فيها عدة قلاع، وبعد ابتعاده بمسافة بعيدة عن مصر، تعذر عليه مواصلة حملته بعد بسبب قساوة الظروف الطبيعية، وظهور الخلافات بين جنوده مما اضطره إلى العودة إلى مصر بعدما

¹ النهر والي، ص 119-120

² يرجع العديد من المؤرخين قتل السلطان سليمان القانوني للأمير مصطفى بسبب وشاية زوجته الروسية روسكالة، وكان هذا من الأخطاء الفادحة التي ارتكبها السلطان سليمان القانوني خلال فترة حكمه، لمعرفة المزيد عن ظروف وملابسات إعدام السلطان لابنه الأمير مصطفى. انظر: البكري الصديقي، مصدر سابق، ص 171-172

³ Reyhan şahin allahvardi, *Kızıldeniz'de osmanlı hâkimiyeti Özdemiroğlu osman paşa'nın Habeshistan beylarbeyliği (1561 – 1567)* www the studies of ottoman domain .com, cilt:3, sayı:5 agosto2013, s s70-71

⁴ كازالي، ص 192

⁵ يحيى بن الحسين، مصدر سابق، ص 715

وصل الشّلال الثالث على نهر النيل¹.

وكان قد لفت انتباه أوزدمير باشا أثناء حملته أهميّة ميناء سواكن الاستراتيجية في منطقة البحر الأحمر وسواحل إفريقيا الشرقيّة، حيث أراد أن يجعل منه قاعدة حربيّة ثابتة للأسطول العثمانيّ هناك، وتمّ قبول طلبه من طرف الدّيوان العثمانيّ ووزارة الحربيّة بإسطنبول، حيث منحت له كافّة التّسهيلات والصّلاحيّات العسكريّة من دعم عسكريّ، والماديّة من دعم بشريّ لإنجاز هذه المهمّة².

ج. حملة أوزدمير الثانية وتأسيس إيالة الحبش

وفي أثناء ذلك زادت هجمات البرتغاليّين على السّواحل الغربيّة للبحر الأحمر، حتّى أصبحت الدّويلات الإسلاميّة في السودان والقرن الإفريقيّ أمام خطر حقيقيّ، لهذا قرّرت الدّولة العثمانيّة استباق الأحداث وحماية هذه المناطق منهم، فصادق السّلطان سليمان القانونيّ رسمياً بتاريخ 15 شعبان 926هـ/3 أوت 1555م على إنشاء إيالة الحبش، وكلف أوزدمير باشا بمهمة تأسيس هذه الإيالة وتوسيع مساحتها غرباً³.

عاد أوزدمير باشا إلى مصر ليقود حملة عسكريّة جديدة لفتح الحبشة انطلاقاً من السّويس عبر البحر الأحمر، حيث أبحر جنوباً في اتّجاه سواكن التي اتّخذها نقطة انطلاقٍ لعمليّاته العسكريّة⁴، ثمّ شنّ هجوماً واسعاً في اتّجاه الجنوب بمساعدة الأسطول العثمانيّ، فاستولى على كلّ سواحل البحر الأحمر الإفريقيّة بما فيها زيلع ومصوع⁵ في خريف 963هـ/1556م التي اتّخذها كعاصمة كعاصمة له، وكنقطة انطلاق لحملاته العسكريّة، ثمّ احتلّ بلدة حرقيقو وجزيرة دهلك، وتمكّن من قطع الطّريق بين الحبشة

¹ أمجان، مرجع سابق، ص 396. Reyhan şahin allahvardi, op.cit., s 71.

² أوزوتونا، ص 331

³ إيفانوف، ص 202؛ فاضل البيات، ص 453

⁴ أوزوتونا، ص 203

⁵ مصوع: كانت مع مستهلّ القرن 16م قرية صغيرة بها ميناء، تتردّد عليه السّفن من الجزيرة العربيّة ومن سواكن.

انظر: صبي، ص 128

وسواحل البحر الأحمر، وبالتالي منع وصول أية إمدادات برتغالية إلى الأحباش¹. ثم نقل الجنود والمعدات إلى سواكن، ومن هناك شرعت الجيوش العثمانية في التوغل نحو المناطق الداخلية في اتجاه إقليم "تيجراي"، بعدما تقهقرت جيوش الحبشة من أمامها رغم أعدادها الكبيرة وهذا لاستعمالها لأسلحة بسيطة، في حين كان الجيش العثماني يستعمل الأسلحة النارية، لهذا سقطت تيجراي في عام 965هـ/1558م، واستمر الجيش العثماني في التقدم إلى أن وصل إلى داخل أراضي الحبشة واستولى على مدينة "داباردامو"، التي اتخذها مقراً له، وفي أثناء ذلك تمكن من عقد سلسلة من التحالفات مع السكّان المحليين، ومنها توجه إلى شمال شرق السودان حيث تقيم قبائل بوجا². إلا أنّ الظروف الطبيعية القاسية وخاصة الارتفاع الكبير للحرارة بالإضافة إلى انتشار الأمراض اضطره للتراجع إلى داوروه، حيث توفي هناك عام 967هـ/1560م، تاركاً وراءه خليفته ابنه أوغلو عثمان باشا *Özdimiroğlu Osman*³.

تمكن أوزدمير باشا من تأسيس إيالة الحبش التي أصبح بايلربياً عليها⁴، والتي ضمت أجزاء كبيرة من السودان وأريتيريا والصومال، خاصة الأجزاء الساحلية منها، وكل الأراضي الواقعة على شواطئ البحر الأحمر من حدود مصر الجنوبية حتى خليج عدن. واتخذ من مصوع عاصمة لها، ثم قسمها إلى عدّة سناجق أهمّها: مصوع، إبريم، سواكن، حرقيقو وزليغ⁵.

¹ كازالي، ص193؛ إيفانوف، ص202؛ فاضل البيات، ص 451

² أمجان، ص 396-397؛ s 71، op. cit., Reyhan şahin allahvardi

³ عثمان باشا بن أوزدمير: وُلد بمصر ونشأ بها، تولى إدارة إيالة الحبشة بعد وفاة والده أوزدمير باشا، توفي عام 933هـ / 1585م. للمزيد انظر. حاجي خليفة، ص ص 384، 385

⁴ انظر: الملحق رقم 9، ص243

⁵ بعد الانتصارات التي حققها أوزدمير باشا في بلاد الحبشة والسودان استدعاه الديوان العثماني إلى إسطنبول ليتم ترقيته ويصبح هو المستشار السري الأول للسلطان سليمان القانوني في تسيير شؤون حكم إفريقيا وبلاد الحبشة أين مُنحت له صلاحيات واسعة حيث بقي أوزدمير باشا لسنوات عديدة دون أن يكلفه السلطان العثماني بأية مهمة رسمية، إلى غاية عودته إلى تسيير شؤون بلاد الحبشة للمرة الثانية. انظر: أوزوتونا، ص 332

وبعد سيطرة أوزدمير باشا على أريتريا أصبحت سيطرة العثمانيين كاملة على مدخل البحر الأحمر، وبهذا لم يعد بمقدور السفن البرتغالية ملاحقة السفن الإسلامية في البحر بل ولا حتى الاقتراب من مضيق باب المندب¹. وقد أطلق العثمانيون اسم إيالة الحبشة رغم عدم سيطرتهم الكاملة على أراضي الحبشة وهذا لمغالطة الأوروبيين وإيهامهم بخضوع الحبشة لهم، وهناك وجه آخر لهذا الادعاء²، وهو أن مصر استمرت بعد 1517 في إرسال مطران الكنيسة الحبشية وهذا معناه تبعية الحبشة للإدارة المصرية العثمانية، كما أن السلطان العثماني كان يسمح للأحباش المسيحيين بالحج إلى بيت المقدس باعتبار سكانها من رعايا، وليس من حق القناصل الأجانب التحدث باسمهم³.

د. الأوضاع في إيالة الحبش بعد وفاة أوزدمير باشا

بعد وفاة أوزدمير باشا عام 967هـ/1560م عرفت القوات العثمانية بإيالة الحبش عدّة اضطرابات، ممّا شجّع ملك الحبشة على القيام بهجوم مفاجئ عليها، هذا ما أدّى إلى تراجعها إلى الورا حيث تمركزت في حرقيقو ومصوع، وعلى إثر سيطر ذلك الأحباش على دباروا، وحتى تتمكن الدولة العثمانية من احكام قبضتها على المنطقة عيّنت في عام 967هـ/1561م عثمان باشا نجل أوزدمير باشا على رأس بايلربكية الحبش⁴. واصل هذا الأخير قتال الأحباش وتمكّن من هزيمتهم في معركة أندرتا في منطقة تيجراي بتاريخ 15 شعبان 969هـ/20 أفريل 1562م، وعلى إثرها تمكن من استعادة الأراضي التي استولوا عليها بعد وفاة والده، كما استعاد العثمانيون سيطرتهم على إيالة الحبش، رغم ذلك رفضت القبائل العربية القاطنة بشمال غرب الأيالة الخضوع لهم وفضلوا الخضوع للفونج. وبتاريخ 16 جانفي 1567م عُزل عثمان باشا من منصبه⁵.

¹ كازالي، ص 220

² أنظر: الملحق رقم 3، ص 229

³ غالي عودة، إريتريا بلاد المسلمين وصراع النفوذ، دار البشير، عمان الأردن 1409هـ/1989م، ص 29

⁴ النهروالي، ص 120؛ Reyhan şahin allahvardi, op.cit., s 72

⁵ فاضل البيات، ص 453

2. توسُّع العثمانيين على حساب مملكة الفونج

رفض ملك الفونج على مملكة سنار في السودان عمارة دنقس (910-940هـ/ 1505-1534م) انضمام بلاده للدولة العثمانية، وفي آن وحد خشي من توسُّعها على حساب بلاده من ناحية البحر، لهذا بعث إلى السلطان السلطان سليم الأول برسالة يذكره فيها بأن دولته إسلامية ورعاياه عرب بدو لا يملكون ما يدفعونه له من ضرائب:

«..... إني لا أعلم ما يملكك على حربي وامتلاك بلادي،
فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فإني وأهل مملكتي
عرب مسلمون، وإن كان لغرض مادي فاعلم أن أكثر أهل
مملكتي عرب بادية وقد هاجروا إلى هذه البلاد لطلب
الرزق ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية.....».

ولما بلغ هذا الكتاب إلى السلطان العثماني تراجع عن السيطرة على سنار¹. وكان الفونج قد استغلوا انشغال العثمانيين بمساندتهم للإمام أحمد بن إبراهيم في حربه ضدّ الأحباش، وتوسَّعوا حتى النوبة السفلى حيث تنتشر قبائل البجة² والتي كانت تابعة في دولة العبدلاب³، أين اصطدموا بالعثمانيين الذين هزموهم وأنشؤوا ولاية الفونج⁴.

¹ نعوم شقير، تاريخ السودان، تحقيق وتقديم، محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل بيروت 1981، ص 100؛ محمد سعد، مرجع سابق، ص 195.

² قبائل البجة: يُعرف سكَّانها بالبُجاة، وتمتدّ أراضيهم من أسوان شمالاً في جنوب مصر إلى الأطراف الشماليّة لهضبة الحبشة، ومن نهر النيل غرباً، إلى سواحل البحر الأحمر شرقاً. انظر: القلقشندي، مصدر سابق، ص 273

³ دولة العبدلاب: خلال النصف الثاني من القرن 15م نجح تحالف ضمّ مجموعة من القبائل العربية من السيطرة على عدّة مناطق من شرق السودان، وقد تمكّن أحد زعماء هذه القبائل العربية واسمه عبد الله الجماع وذريته من إدارة هذه المناطق وبهذا الشكل تأسست دولة العبدلاب التي لم يدم استقلالها مدّة زمنيّة طويلة بحيث تعرّضت مع بداية

القرن 16م لغزو قبائل الفونج. انظر: أغوث، ص ص 211- 212

⁴ تُعرف بلاد الفونج (النوبة السفلى) عند العثمانيين باسم فونجستان أو ببربرستان (أرض البرابرة أو النوبيين) و تمتد بين بين الشلالين الأول والثاني لنهر النيل، وكان المسؤول عن إدارتها يُعرف بالكاشف. انظر: أغوث، ج5، ص 214

رغم هذا لم يُلحق العثمانيون فونجستان ولا النّوبة العليا بولاية الحبش، بل احتفظت بحكمها الذاتي وبتبعيّتها مباشرة للبواب العالي، وعُرف عن سلاطينها تطبيقهم للشريعة الإسلامية وتعاونهم بإخلاص مع العثمانيين¹.

وبعد عام 966هـ/1559م وافقت كلّ من أريتريا والسّودان على الخضوع للحكم العثماني، ثمّ أخضعت غالبية المناطق الإسلامية في شمال شرق إفريقيا لإيالة الحبشة، التي ضمّت السّناجق التّالية: أبريم – وسواكن – وحرقيقو – ومصوع – وزيلع، وضمت كذلك النّوبة السّفلى وجميع الأراضي الواقعة على شواطئ البحر الأحمر من حدود مصر الجنوبيّة حتّى خليج عدن، أمّا إمارة هرر فقد بقيت تمارس سلطتها في الأجزاء الشرقيّة من الحبشة في حين بقيت مملكة الحبشة تمارسها في الأجزاء الغربيّة منها².

3. السياسة العثمانية في شرق إفريقيا والحبشة

كانت بداية تدخّل العثمانيين في ساحل شرق إفريقيا عامة وفي بلاد الحبشة خاصّة، بتدعيمها للقوى المحليّة ويتجلى هذا بوضوح في مساندتهم لثورة الإمام أحمد بن إبراهيم لتنتقل فيما بعد إلى سياسة التّحالفات والدّعم المباشر ويظهر ذلك من خلال موقفهم من ثورة الإمام نور بن الوزير حاكم مملكة هرر الذي دعّموه في ثورته ضدّ الملك كلاديوس عام 966هـ/1559م التي أعقبت ثورة الإمام ابن إبراهيم³.

وخلال النّصف الثّاني القرن السادس عشر غيّر العثمانيون من استراتيجيّتهم في المنطقة، وهذا من خلال انتقالهم من سياسة التّحالفات الدّاخلية مع الرّعاء المحليّين تحت قيادة عثمانية، إلى سياسة الإدارة المحليّة التي يقودها الرّعاء المحليّون أنفسهم بإدارة لامركزيّة للعثمانيين هناك، وانتقلت السّلطة الفعلية من أيدي العثمانيين إلى نواب البر

¹ إيفانوف، ص 183

² نفسه، ص 204

³ الصيرفي، ص 306

المحلِّيَّين، وتحوّلت سلطة العثمانيّين هناك إلى سلطة إسميّة طالما اعترفت هذه القيادات المحليّة بسيادة وسيطرة الدّولة العثمانيّة عليها¹.

وفي هذا الإطار استحدث العثمانيّون في المنطقة منصب "نائب البر"² يكون من الرّعاء المحليّين مقرّه في حرقيقو، مهمّته إدارة شؤون الدّولة العثمانيّة في السّاحل الشرقيّ لإفريقيا الذي ويتمّ تعيينه من قبل الحاكم العثمانيّ بجدة عن طريق فرمان يرسل إليه، ومن بين مهامّ نائب البرّ في مصوع وحرقيقو جمع الضّرائب وتحصيل الزّكاة هناك، بالإضافة إلى جمع رسوم مرور القوافل وحلّ النزاعات حول مناطق الرّعي بين القبائل³. وكان أوّل نائب عثماني في مصوع هو البلويّ الذي كان قد مُنحت له كافّة الصّلاحيّات ليتصرّف في شؤونها الدّاخليّة، على أن تبقى بها حامية عثمانيّة لحمايتها من الأخطار الخارجيّة⁴.

من جهة أخرى عمل العثمانيون بعد إنشائهم لإيالة الحبش على الدّفع بمملكة الحبشة المسيحيّة إلى المناطق الدّاخليّة وإبعادها عن السّواحل المطّلة على البحر الأحمر وقطع علاقاتها بالبرتغاليّين مستغلين في ذلك خلافاتها الدينيّة المذهبيّة بين الكنيستين الكاثوليكيّة واليعقوبيّة، ثمّ التّوغّل في الدّاخل بمساعدة الإمارات الإسلاميّة المحيطة بها، ففيما بين عامي 964هـ/1557م و966هـ/1559م نزلت قوات عثمانية في مصوع وزيلع لمنع وصول المساعدات البرتغاليّة إلى الأحباش⁴.

كما استغلّ العثمانيون مرحلة نشوب الصراع العسكريّ-السّياسيّ بين ملك الحبشة "ميناس" Minas (1559م-1563م)، وبين قائد جيوشه "بحر النجش إسحاق" الذي تمرّد

¹ نادية محمود مصطفى وآخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة 1417هـ/1996م، ص 49

² كانت الأسرة الحاكمة في مصوع تحمل لقب نائب الذي اتّخذ من حرقيقو مقراً له. انظر: صبي، ص 133

³ نفسه، ص 134

⁴ أوزوتونا، موسوعة تاريخ الإمبراطوريّة العثمانيّة، ص 331

على ملكه وقرّر الاستقلال بسلطته في الهضبة الأرترية، وأصبح يسعى للتّوسع في المنطقة وضمّ إقليم التّيغري¹، وتحالفوا معه وزوّدوه بالأسلحة النّارية، وأصبح بذلك تحت حمايتهم².

لكنّ طموحات العثمانيين في المنطقة اصطدمت بهزيمة حليفهم بحر نجش إسحاق على يد ملك الحبشة ميناوس في معركة وجرا عام 967هـ/1561م، وعلى إثرها فرّ إلى مصوع وتحالف مع عثمان باشا بن ازدمير باشا، وقد تضمّن هذا التّحالف مساعدة العثمانيين لإسحاق على استرجاع مملكته في مقابل تنازله لهم على دبروا والأقاليم الواقعة بينها وبين مصوع³.

ثمّ زحفت القوّات المتحالفة إلى هضبة تيغراي واحتلّت منطقة دبرا دامو، وفي هذا الصّدّد كتب إسحاق بحر النّجش إلى ملك الحبشة رسالة يُعرب فيها عن تحدّيه له ويقول:

«...لم يكن تحالفي مع الباشا التّركيّ بواسطة

سفراء، ولكنّه تحالف بالجلوس مع الباشا في

مائدة واحدة وعلى قدم المساواة....».

وفي نهاية المطاف تمكّن الأحباش بمساعدة البرتغاليين من هزيمة بحر النّجش وحلفائه العثمانيين في معركة عدي كورو Addi Qorro في إقليم التّيغري سنة 986هـ/1578م⁴.

وبناءً على ما تقدّم نستنتج أنّ الصّراع بين القوى الإسلاميّة المحليّة المتمثّلة في إمارة عدل ثمّ إمارة هرر فيما بعد، كان عبارة عن جبهة من جبهات الصّراع العالمي الذي شهدته هذه الفترة بين العالمين الإسلاميّ والمسيحيّ، كما نسجّل الدور الكبير الذي لعبه العثمانيون في تدعيم القوى الإسلاميّة في المنطقة ضدّ مملكة الحبشة المسيحيّة،

¹ التّيغري: هو إقليم يقع شرق دولة إرتيريا، ويختلف عن إقليم تيغراي الذي يقع في اثيوبيا. انظر: كازالي، ص 193

² الصّيرفي، ص 306؛ Reyhan şahin allahvardi, op. cit., s74

³ نفسه، ص 306

⁴ كان من نتائج هذه المعركة مقتل بحر النّجش. انظر: صبي، ص 134

التي كانت بدورها تلقى كلّ الدّعم من البرتغاليين رغم الاختلافات الدّينية التي كانت بينهما. وزاد اهتمام العثمانيين بمنطقة ساحل شرق إفريقيا خاصّة بعد التّهديد البرتغالي بالسيطرة على السّواحل الشّرقية للبحر الأحمر والتّهديد باحتلال الأماكن المقدّسة في مكّة المكرمة والمدينة المنوّرة، لهذا رأوا أنّه من الضّروري أن تكون لهم نقطة ارتكاز هناك، ولن يتسنى لهم ذلك إلّا بتأسيس إيالة الحبشة على السّواحل الغربية للبحر الأحمر، ومنها يمكنهم التّوغل في المناطق الدّاخلية لشرق إفريقيا التي كانت تشكّل أهميّة اقتصادية كبيرة بالنّسبة لهم (تجارة الذهب والعاج) وبحكم مملكة بورنو الإسلاميّة إدريس ألوما الذي أبدى استعداداه للتّعامل اقتصاديّاً مع العثمانيين في شرق إفريقيا¹.

¹ كازالي، ص ص 239 - 240

الفصل الرابع

الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

المبحث الأول: بدايات المواجهات بين البرتغاليين والعثمانيين في البحر الأحمر

المبحث الثاني: الصدام العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

المبحث الثالث: محاولات الصلح بين العثمانيين والبرتغاليين

المبحث الرابع: نهاية الصراع العثماني البرتغالي في شرق إفريقيا

تمهيد

عند وصول البرتغاليين إلى مياه البحار الشّرقية مع نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م، كانوا يسعون للانتقام من المسلمين على الحروب الصليبية، وهذا بالاستيلاء على منافذ البحر الأحمر وخليج البصرة، وبالتالي تطويق العالم الإسلامي والسيطرة على تجارة التوابل، ولن يتسنى لهم ذلك إلا بعد تحطيم القوة البحريّة للمماليك.

وبحكم الموقع الجغرافي للدولة العثمانية آنذاك، لم يكن لها دور مباشر في هذا الصّراع واقتصر في البداية على مساندتها للمماليك في حربهم ضدّ البرتغاليين، لكن بعد عجز هؤلاء عن ذلك بسبب الانهيار الذي آلت إليه دولتهم، وبالتالي كان يستحيل عليهم مواجهتهم خاصّة بعد تحالف البرتغاليين مع الصفويين، وتهديدهم باحتلال الأماكن المقدّسة في الحجاز، وجّه السّلطان العثماني سليم الأوّل أنظار دولته صوب المشرق العربي والإسلامي، وتمكّن من القضاء أولاً على الدولة الصفوية في 1514، ثمّ القضاء على دولة المماليك في 1517م وضمّ مصر والشّام لدولته، وبذلك أصبح للدولة للعثمانية منفذ على البحر الأحمر، وآخر على خليج البصرة وأصبحت بذلك في مواجهة مباشرة مع البرتغاليين في البحر الأحمر والخليج العربيّ وشرق إفريقيا وهذا لحماية المسلمين هناك¹.

¹ ابن زنبيل، مصدر سابق، ص 153، 157

المبحث الأول

بدايات المواجهات بين البرتغاليين والعثمانيين في البحر الأحمر

لم يكن التدخل العثماني مباشر في مواجهة البرتغاليين في البحر الأحمر، بل كان في بدايته عبارة عن مساعدات عسكرية قدّمتها الدولة العثمانية للمماليك في مصر، وبعد عجز هؤلاء عن مواجهة المماليك بسبب الضعف الذي آلت إليه دولتهم، تدخلت الدولة العثمانية مباشرة وهذا بضمها لمصر في عام 1517، وبذلك أصبحت المواجهات مباشرة بين الطرفين.

1. مؤازرة العثمانيين للمماليك في مواجهتهم البرتغاليين

تُبرز العديد من الدّراسات التّاريخيّة التي تناولت الصّراع المملوكيّ البرتغاليّ في البحر الأحمر خلال القرن 16م، أنّه منذ أن بدأت هذه المواجهة لقي المماليك دعماً ومساندةً من طرف العثمانيين، لأنّهم كانوا على دراية بما قد يشكّله التّواجد البرتغالي من خطورة هناك، كما أنّهم كانوا يدركون الأوضاع المزريّة التي آلت إليها دولة المماليك، واستحالة مواجهتها للبرتغاليين بمفردها، والأهمّ من ذلك كلّهم كانوا على أتمّ الإدراك بالمستجدّات الدوليّة وبالتغيّرات التي عرفها العالم والخطر الذي أصبح يهدّد العالم الإسلاميّ، خاصّة بعد وصول البرتغاليين إلى البحار الشّرقية¹.

وفي هذا الإطار بعثت الدّولة العثمانيّة في عام 913هـ/1507م أوّل شحنة من المساعدات العسكريّة إلى المماليك بمصر، تمثّلت في مدافع وبارود وحبال، وعدداً من الصّناع المهرة للمساعدة لبناء وتجديد الأسطول المملوكيّ، وتمكّنوا بواسطتها من تجهيز

¹ إدريس بستان، أهمية ترسانة السويس جدة وموفا في الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر، بحوث النّدوة الدوليّة حول اليمن في العهد الدّولة العثمانية، صنعاء 16، 17 ديسمبر 2009، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، اسطنبول 2011، من 37 إلى ص 42 ص 37-38

وتوجيه حملة عسكرية إلى الهند في نفس السنة أُسندت قيادتها لحسن الكردي¹.

لكنها باءت بالفشل بعد الهزيمة التي تلقاها أسطولهم أمام نظيره البرتغالي في معركة ديو عام 915هـ/1509م، رغم ذلك استمرّ تدفّق المساعدات العُثمانيّة على مصر، إذ شعر السلطان العثماني بايزيد الثاني بحجم الخطورة التي أصبحت تهدّد العالم الإسلامي والمسؤولية المُلقاة على عاتقه في حمايته، خاصة بعد عجزه عن تقديم دعم جدّي لمسلمي الأندلس بعد استغاثتهم به²، وتهديد الأساطيل البرتغالية للممالك الإسلامية بالهند وجنوب شبه الجزيرة العربيّة، واستتجاد حكامها بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري، ومنهم حاكم كاجرات مظفر شاه، وحاكم اليمن عامر بن عبد الوهاب، الذي عجز عن نصرتهم³.

لهذا أقدم السلطان العثماني على تلبية طلب المماليك بإمدادهم بمساعدات عسكريّة أخرى⁴، تمثّلت في كمّيّات كبيرة من الأخشاب والحديد والأسلحة والبارود، ومعدات حربيّة أخرى، بالإضافة إلى ألفين من البحّارة العثمانيّين وهذا لإعادة بناء الأسطول المملوكي، وموا جهة نظيره البرتغالي في الهند⁵، وكلّ هذا الدّعم العسكريّ كان دون مُقابل، إذ رفض السلطان العثماني بايزيد الثاني أن يتقاضى ثمن هذه المساعدات من المماليك، وقام برّد المال الذي كان يحمله السفير المملوكي في اسطنبول يونس عادل⁶.

¹ صالح شهاب، ص82

² إدريس بستان، ص37-38

³ النّهروالي، ص19

⁴ في عام 1510 أرسل العثمانيون حملات كبيرة من الأخشاب، تلبية لطلب المماليك لإعادة بناء الأسطول المصري إلّا أنّ قراصنة جزيرة رودس ببحر ايجة قاموا بالاستيلاء على السفن التي كانت تحمل هذه الأخشاب، وإغراقها في البحر. وما يلفت الإنتباه في كلّ هذا هو التنسيق بين القوى البحرية المسيحية في شرق البحر الأبيض المتوسط والمتمثلة في فرسان رودس في البحر الأبيض المتوسط والبرتغاليين في المحيط الهندي. أنظر: صالح شهاب، ص82؛ أحمد

دراج، إدريس بستان، ص142-143

⁵ ابن اياس، ج4، ص201

⁶ أنظر: إدريس بستان، ص324؛ إفانوف، ص56

لم تتوقف المساعدات العثمانية للمماليك عند هذا الحدّ، بل استمرّت بعد تولّي السّلطان العثماني سليم الأوّل السلطة عام 917هـ/1512م، الذي عمل هو الآخر على تقديم الدّعم لهم، بحيث وصلت في عهده الدّفعة الثالثة من المساعدات والمتمثلة في لوازم صناعة السّفن والبنادق والبارود، وهذا حتّى يتسنى لهم مواجهة البرتغاليين¹.

كما شهدت سنوات 918هـ-1513م، و919هـ-1514م، و920هـ-1515م هي الأخرى وصول مساعدات أخرى قدّمتها لهم السّلطان العثماني سليم الأوّل تتمثل في سفن وذخيرة، وهذا إدراكاً منه لخطورة التواجد البرتغالي في المحيط الهندي ولعدم قدرة المماليك عن مواجهتهم بمفردهم، وقد تمكّنوا بفضل هذه المساعدات في عام 1515 من تجهيز حملة كبيرة كانت مشتركة مملوكيّة عثمانيّة - عُرفت بحملة الهند الثّانية -، أسندت قيادتها لكلّ من الأمير حسن الكردي، ونائبه سلمان رايس وهذا لمواجهة حملة البوكيرك التي كانت تستهدف البحر الأحمر².

وبعد إتمام التجهيزات انطلقت الحملة من ميناء السويس³، وفي طريقها إلى الهند توقّفت بميناء جدّة حيث أقام حسين الكردي تحصينات منيعة حولها، وهذا لحمايتها من أيّة اعتداءات برتغالية⁴.

بعدها غادرت مدينة جدّة في اتّجاه اليمن، لتستقرّ بتاريخ 17 ذي القعدة 921هـ/23 ديسمبر 1515م في جزيرة كامران على البحر الأحمر، وهذا للتنسيق مع اليمنيين، ولأجل ذلك منحوه عدن وبعض الموانئ المجاورة، لاستعمالها كقواعد حربية متقدمة لمواجهة

¹ إدريس بستان، ص 38

² في عام 1515م خرجت حملة برتغالية بقيادة البوكيرك قصد غزو عدن، ولما بلغته أنباء تقيّد بخروج حملة مملوكية من السويس لمواجهته، تراجع وتوجه صوب هرمز. للمزيد انظر: حسن صالح شهاب، ص 90

³ شرع المماليك في التحضير لهذه الحملة منذ هزيمتهم في ديو عام 915هـ/1509م، لكنها لم تتطوّر حتى عام 921هـ/1515م، وهذا بعد وصول المساعدات من العثمانيين. انظر: نفسه، ص 89

⁴ النّهروالي، ص 19

الفصل الرابع: الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

الأساطيل البرتغالية المتواجدة في سوقطرى وفي شرق إفريقيا¹.

وحسب الوعود اليمينية كان من المفروض أن يجد المماليك كلّ التسهيلات هناك، إلا أنّ السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري² أخلّ بوعده ورفض التعاون مع قادة الحملة، هذا ما أثار حفيظة حسن الكرديّ الذي دخل في صراع معه³. وبقي الأسطول المملوكي راسياً بجزر كامران، وأثناء ذلك توافدت الرّسل على معسكر المماليك من قبل القوى المحليّة المعارضة للطاهريين بمن فيهم الزيديين، مطالبين المساعدة من الكردي⁴.

وانصرفت الحملة عن هدفها الأساسي، المتمثّل في منع البرتغاليين من الدّخول إلى البحر الأحمر وتحوّل إلى صراع بين المماليك والطاهريين في اليمن، وهذا ما سهّل للبرتغاليين من الولوج إلى البحر الأحمر⁵.

ووجد بذلك المماليك أنفسهم متورّطين في مشاكل اليمن الداخليّة، حتّى أصبح حسن الكردي في مواجهة مباشرة مع الطاهريين، الذي تمكّن من هزيمتهم وتشتيتهم بسهولة بفضل استخدامه للأسلحة الناريّة، ودخل العاصمة زبيد في 19 جمادى الأولى 922هـ/20 جوان 1516م، وضمّ على إثر ذلك كامل المناطق المجاورة له، كتعز ومخا وما جاورهما للمماليك، لكنّه لم يتمكّن من الاستيلاء على عدن، وخلال ذلك ارتكب عدّة تجاوزات في

¹ النهروالي، ص 20

² عامر بن عبد الوهاب الطاهري: هو آخر أمراء الدولة الطاهرية باليمن، واجه التحالف الحبشي البرتغالي للسيطرة على عدن. قُتل من طرف مماليك مصر في عام 923هـ. انظر: يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي، غاية الأمان في أخبار القطر اليمني، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1388هـ/1968م، ص 650 - 655

³ عندما وصلت الحملة المملوكية إلى جزيرة كامران شرع المماليك في تحصينها، وعليه ضنّ السلطان عامر بن عبد الوهاب أنهم جاؤوا للإستقرار بسواحل اليمن نهائياً. انظر: صالح شهاب، ص 81

⁴ أبي الضياء الربيع الشيباني، مصدر سابق، ص 464؛ النهروالي، ص 20

⁵ تعود أسباب الخلافات إلى الشكوك التي زرعها مستشارو عامر بن عبد الوهاب في النوايا الحقيقية للمماليك بحيث خشي من مطامعهم، وبذلك يكون قد خالف التزامات تحالفه معهم. للمزيد أنظر: النهروالي، ص 21؛ أحمد محمود، ص 227-228، 230

حق اليمنيين، الذين تأكّدوا من نواياه العدوانية، بعدها عاد رفقة سلمان رايس إلى جدّة¹.

أثارت أعمال حسن الكرديّ في اليمن استياءً كبيراً لدى حكامه، الذين اتّهموه بإشعال الحرب هناك ونهب ثروات البلاد، في الوقت الذي كانوا هم يعانون تسلّط البرتغاليين وينتظرون منه المساعدة، كما تسبّبت هذه التصرّفات في وقوع خلافات بينه وبين مساعده سلمان رايس². وانتهت بذلك حملة الهند الثانية دون أن تحقّق الأهداف المرجوة منها، بل على العكس من ذلك، زادت من وكرهية اليمنيين للمماليك الذين أصبحوا يُفضّلون التّعامل مع البرتغاليين³.

وبعد عودتهما إلى جدّة في عام 1517، وصلت الأنباء بسقوط دولة المماليك وسيطرة العثمانيين على مصر، فاغتنم أمير مكّة الشريف بركات- الذي كان قد أعلن ولاءه للعثمانيين - تواجد القائدين، وأقدم على إلقاء القبض على حسين الكردي وأعدمه بإغراقه في ميناء جدّة، انتقاماً منه لما اقترفه من ظلم وتجاوزات في حقّ أهالي جدّة⁴.

وفي عام 932هـ/1517م، وخلال المواجهات بين المماليك والعثمانيين وصلت حملة برتغالية بحرية كبرى بقيادة لوبو سواريز (نائب الملك في الهند) إلى البحر الأحمر بهدف تدمير الأسطول المملوكيّ العثماني هناك، ثمّ السيطرة على عدن وعلى جدّة وتدمير مكّة المكرمة، وتدعيم الأحباش في صراعهم مع ممالك الطّراز الإسلامي⁵.

وعند اقتراب البرتغاليين من سواحل اليمن، سلّم لهم حاكم عدن الأمير مرجان المدينة، وسمح لهم بعبور مضيق باب المندب في 13 صفر 923هـ/7 مارس 1517، وهذا

¹ بعد هذه الإنتصارات التي حقّقها الأمير بريساي في اليمن، تزايدت أطماعه وأراد أن يستوليّ على اليمن مستعيناً بالأعراب وبطائفة الزيدية. أنظر: النّهروالي، ص21، 24؛ محمد كريم إبراهيم، ص 393-394

² الميلباري، ص46

³ صالح شهاب، ص91

⁴ لمعرفة المزيد عن ظروف إعدام حسن الكردي. أنظر: النّهروالي، ص ص 26-27

⁵ للمزيد. انظر: سعد العرابي، ص ص426-425

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

كفايةً لشُرهم وانتقاماً ممّا اقترفه حسن الكردي في حقّهم¹.

تزامن ذلك مع هزيمة المماليك في حربهم ضدّ العثمانيين، هذا ما استغلّه لبو سوريّز وحاول تدمير ما تبقى من الأسطول المملوكي هناك، والسيطرة على مدينة جدّة².

لكنّ محاولته فشلت بفعل المقاومة التي أبدّاها سكّانها، وممّا ساعدهم على ذلك التّحصينات التي كان قد أقامها حسن الكرديّ حول المدينة من قبل، هذا ما أرغمه على التّراجع، حينها وصل الأسطول المملوكي بقيادة سلمان رايس إلى سواحل جدّة ممّا اضطرّ الأسطول البرتغاليّ إلى التّراجع إلى جزيرة كامران، حيث مكث هناك ثلاثة أشهر ثمّ غادرها إلى عدن، لكنّه وجدها مستعدّة لمواجهته لهذا عاد خائباً إلى الهند³.

إثر ذلك أعلن أمير مكّة انضمام الحجاز للسلطة العثمانية، مع الإبقاء على الرّوابط الاقتصادية التي تربطه بمصر، واستلم زمام الأمور هناك بمساعدة الأمير سلمان ريس⁴.

أمّا اليمن ونظراً لأهمّية موقعه بالنّسبة للاستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر فقد حاول السّلطان سليم الأوّل في عام 1517 ضمّه سلمياً لدولته مثلما ضمّ الحجاز من قبل، غير أنّ بعض قادة المماليك الذين كانوا هناك رفضوا هذه المطالب وتمسّكوا باستقلالهم، وكان على رأسهم قائدهم باربساوي الذي تحالف مع الزّيديّين، والتحق بهم ما تبقى من المماليك ممّن جاؤوا مع حسين الكردي والذين بقوا على ولائهم للنّظام المملوكي القديم، وتحوّلوا إلى عصاباتٍ عاثت في أرض اليمن فساداً، وكان منهم من أعلن ولاءه للعثمانيين⁵.

¹ لمعرفة المزيد عن أسباب ترحيب الأمير مرجان بالبرتغاليّين. انظر: بامخزّمة، ج6، ص575-576

² حسن شهاب، ص 92؛ فيصل عبد الله أحمد الكندري، تقرير سلمان ريس، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج:12، ع:48، جامعة الكويت، الكويت 1994، من ص116 إلى ص 145، ص ص118-119

³ حسن شهاب، ص92

⁴ حنظل، ص 266

⁵ للمزيد أنظر: النّهروالي، ص 26؛ حنظل، ص266؛ كريم إبراهيم، ص 393-394؛ فاروق أبابضة، الحكم العثماني لليمن (1872 - 1918)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986، ص21

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

وأمام هذه التّهديدات البرتغاليّة الخطيرة على منطقة البحر الأحمر، شرع السلطان سليم الأوّل في الإعداد لبسط السّيطرة عليه، فكّلف الصّدر الأعظم أحمد باشا¹ بالتّحضير لمواجهتهم هناك، وتنفيذاً لهذه الأوامر اتّخذ هذا الأخير من ميناء السويس قاعدة بحريّة عثمانيّة رئيسيّة له على البحر الأحمر وعيّن عليها سلمان رايس قابودانا²، الذي أرسل بدوره حملة بحريّة بقيادة سنان باشا لمواجهة الأسطول البرتغالي هناك، وبعد التّحام الاسطولين تمكن الاسطول العثماني من هزيمة نظيره البرتغالي، هذا ما سمح له باحتلال زيلع ومصوع وسواكن التي اتّخذها قاعدة عسكريّة عثمانيّة متقدّمة في البحر الأحمر بالإضافة إلى زبيد ومخا والحديدة باليمن³.

شعر السلطان عامر بن عبد الوهاب بالخطأ الذي ارتكبه بتحالفه مع البرتغاليين، وبعث برسالة استعطاف إلى السلطان سليم الأوّل تضمّنت اعتذاره عن تأييده للبرتغاليين وشكواه من تصرّفات حسين وسلمان في نشر الفساد والمظالم في اليمن، وأنّه ما كان له أن يتّخذ موقفه هذا لولا تصرّفهما بهذا الشّكل⁴.

¹ الصّدر الأعظم أحمد باشا الهرکسي: وُلد عام 1459 بالجبل الأسود، وتوفي عام 1517م. تولّى الصّدارة العظمى في الدّولة العثمانية أربع مرّات في عهد كل من السلطانين بايزيد وسليم الأوّل فيما بين (1497-1516م) ما مجموعه سبع سنوات تقريباً. انظر: حاجي خليفة، تاريخ ملوك آل عثمان، تحقيق وتقديم سيد محمد السيد، جامعة جنوب الوادي، سوهاج، مصر، د ت ش، ص 379

² قابودان باشا: هي رتبة عسكرية بحرية وتعني أمير البحر الأعلى، وهي كلمة مأخوذة من الإيطالية (قبطان)، وهو بمثابة القائد العام لقوات البحرية العثمانية، يُقابلها في اللغة العربية أمّال (Admirale)، أمّا قابودان داريا فهو منصب إداري يكلف صاحبه بإدارة مراكز صناعة السفن، وتوظيف عوائد ضرائب الولاية التي كُلف بإدارتها في تجهيز الحملات البحرية. للمزيد انظر: محمد دراج، ص 44؛ ليلي عبد اللطيف، ص ص 452-453؛ القيسي، ص 13

³ صلاح ضرار، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، مرجع سابق، ص 52

⁴ للإطّلاع أكثر على ما اقترفه سلمان رايس من جرائم في حق اليمنيين ونشره للفتن ونفوضى والفتن. أنظر: النّهروالي، ص 28-29-30؛ وانظر كذلك نصّ الرسالة التي بعث بها إلى لسلطان سليم الأوّل في الملحق رقم 8، ص 239

2. الإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر

بعد سيطرة العثمانيين على مصر والحجاز عام 923هـ/1517م، انتهى دور المماليك في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ووجدوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع البرتغاليين هناك، واعتبر سلاطين الدولة العثمانية أنفسهم حُماة للعالم الإسلامي، لهذا كان عليهم حماية البحر الأحمر والأماكن المقدسة بالحجاز¹، وانتهجوا لذلك استراتيجية تمحورت حول أربع نقاط رئيسية، تمثلت فيما يلي:

أ. إغلاق البحر الأحمر في وجه السفن الأجنبية المسيحية وخاصة البرتغالية، ولن يتسنى لهم ذلك إلا ببسط سيطرتهم على ضفتيه وعلى اليمن وعدن وجعلهما خطاً دفاعياً متقدماً عليه، معتمدين في ذلك على ما تبقى من القوات البحرية الموروثة عن المماليك، التي تمكنوا بواسطتها من إحكام قبضتهم عليه والدفاع عن سواحله، وهذا تحضيراً لولوجهم مستقبلاً في المحيط الهندي فيما بعد². كما أولوا عناية خاصة بسواحل الحجاز بتحصينها وهذا حمايةً للحرمين الشريفين من الخطر البرتغالي، كما منعوا السفن البرتغالية، غيرها من المسيحية المسيحية من الإبحار في البحر الأحمر واعتبروه بحيرة إسلامية³.

ب. وحتى يتسنى لهم ذلك كان عليهم الاهتمام بشؤون مصر البحرية، واتخذوا لذلك كلاً من السويس في شمال البحر الأحمر وجدة قاعدتين بحريتين متقدمتين لنشاط الأسطول العثماني في البحر الأحمر وتثبيت تواجدهم في سواحله الغربية⁴. كما أراد سلاطين الدولة

¹ Pascuale jean- paul. Baque grammont (jean louis) et kroell(anne), *Mamlouks, ottoman et portugais en mer rouge, l'affaire de Djedda en 1517*. in : R.o.m.m , n° 55-56 1990, p292

² محمد محمود السروجي، المقاومة العربية الإسلامية للبرتغاليين في الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد 17، 9 ذو الحجة 1401هـ/ يوليو 1990م، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، من 59 إلى 69، ص 64؛ أندرو هوس، "الفتح العثماني لمصر عام 1517 وبداية الحرب العالمية للقرن السادس عشر"، تر وت.ع. أحمد سالم علي، دورية كان التاريخية، ع: 21، سبتمبر 2013، من 127، 147؛ Pascuale jean- paul ,op.cit., p292

³ السروجي، من ص 58 - 67، ص 59

⁴ الرمال، ص 229

العثمانية أن يُعيدوا لمصر أهميّتها الاقتصادية، باعتبارها من أغنى مراكز التجارة والعبور في العالم وهذا بإحياء الطّريق التّجاريّ عبر البحر الأحمر، الذي فقد أهميّته بعد سيطرة البرتغاليين على البحار الشّرقية¹.

ج. التّدخل في الصّراع القائم بين إمارات الزّيلع الإسلاميّة ومملكة الحبشة المسيحيّة، التي ساعدت البرتغاليين على بناء قواعد عسكريّة في مصوع وسواكن، لهذا عمل العثمانيون على خلخلة هذا التّحالف الحبشيّ البرتغاليّ الذي كان يستهدف التّواجد الإسلاميّ بمنطقة الحبشة والقرن الإفريقيّ، وهذا بمساندتهم لإمارات الزّيلع بإمدادهم بالأسلحة النّاريّة وبالرّجال، وفي هذا الإطار عملوا على تكثيف اتّصالاتهم بالإمام أحمد ابن إبراهيم بتدعيمه في حربه ضدّ مملكة الحبشة المسيحيّة وتوسيع نفوذه في الحبشة، بعدما قطعوا خطوط الإمداد البرتغاليّة عن الأحباش². وكإجراء وقائيّ عمل العثمانيون على مراقبة قوافل الحجيج الأحباش المسيحيين المتّجهين إلى بيت المقدس³.

د. مهاجمة السّفن البرتغاليّة في عرض المحيط الهنديّ والإغارة على القلاع والحصون التي على سواحلها، وهذا حتّى يتسنى لهم التّخفيف من المراقبة الصّارمة التي فرضها البرتغاليون على حركة السّفن التّجاريّة الإسلاميّة⁴.

وبسبب عدم وجود منفذ بحريّ بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر، عملت القيادة العثمانية المصريّة الجديدة ، على بناء قوّتها البحريّة في البحر الأحمر، واتّخذت من أمراية السّويس قاعدة بحريّة متقدّمة لها فيه، وأسندت قيادتها للقابودان سلمان رايس، الذي تمّ تكليفه بقيادة أسطول البحر الأحمر *Deniz kırmızı Donanması* المتمركز

¹ كريم إبراهيم، ص 226

² أزوتونا، ص 332؛ Trimmigham, op. cit., p 89

³ الرمال، ص ص 92-93

⁴ الشّاطر بصيلي عبد الجليل، الصّراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق إفريقيا والبحر الأحمر، المجلة التاريخية المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة 1964/ 1965 من ص 129 إلى 139،

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

هناك أو أسطول السويس *Suveys Donanmasi*، وأصبح هذا الأخير مسؤولاً عن حماية البحر الأحمر وجميع البحار المتّصلة به¹.

لكنّ افتقار مصر للأخشاب صعب من هذه المهمّة، إذ كان على العثمانيين نقلها من الأناضول إلى ميناء الإسكندريّة ثمّ نقلها برّاً إلى السويس، لهذا أرادوا ربط البحرين الأحمر بالأبيض المتوسط بواسطة قناة، لكنّهم لم يتمكّنوا من ذلك بسبب ارتفاع تكاليف المشروع والصّعوبات التّقنيّة التي واجهتهم في ذلك².

اعتمد العثمانيون في بداية مواجهتهم للبرتغاليين في البحر الأحمر على نفس الاستراتيجية التي اعتمدها المماليك من قبل، واتّخذوا لأجل ذلك من السويس قاعدة بحريّة أساسيّة لهم، مع الاستعانة بالقواعد العسكريّة المتواجدة في الطّور والعقبة والقصير وجدة ومصوع وعدن وزيلع وسواكن التي اتّخذوا منها كقاعدة عسكريّة متقدّمة على السّاحل الغربيّ للبحر الأحمر لهم هناك، قبل أن يستولي عليها البرتغاليون ويتّخذوها قاعدة لهم³.

وما يمكن ملاحظته على النّشاط البحريّ للدولة العثمانيّة في البحر الأحمر خلال هذه الفترة أنّه كان ضعيفاً، بالنّظر إلى الخطر الكبير الذي أصبح يشكّله البرتغاليون في سواحل المحيط الهنديّ والبحر الأحمر، إذ لم يدخل العثمانيون خلال هذه الفترة في مواجهات بحريّة كبرى ضدّ البرتغاليين، ويعود ذلك إلى عدّة عوامل نذكر منها: انشغال الدولة العثمانيّة بحروبها البريّة في أوروبا والعراق وشرق الأناضول⁴، وبتقوية نفوذها

¹ أوزوتونا، ص 325؛ *Hadım süleyman Paşa'nın 1538 yılındaki hindistan seferi*, Otam Ankara üniversitesi osmanlı tarihi Araştırma ve uygulama Merkezi Dergisi, Yıl2008, cilt23, sayı 23, 10/06/2008, ss 195-235; Edward Alpers, op.cit., p5

² استفاد العثمانيون لإنجاز هذا المشروع من دراسة كان قد أقامها الفراعنة من قبل. للمزيد انظر: Giancarlo casale, *the ottoman age of exploration*, Oxford university express 2010, p P 50

³ السروجي، ص 64؛ محمد الرمال، ص 229

⁴ أولى السّلطان العثماني سليم الأوّل أهمية كبيرة لتقوية الدولة العثمانية عسكرياً، لكن تركيزه كان على الجيش البري "الإنكشارية" أكثر من الأساطيل البحرية. أنظر: أنيس عبد الخالق محمود القيسي، النشاط البحري العثماني في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة بغداد، 1429هـ / 2008م، ص 87

الفصل الرابع: الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

البحري في البحر الأبيض المتوسط، خاصة أمام انعدام وجود منفذ بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، وانشغالها بصراعها مع القوى المسيحية المتحالفة في هذا الأخير¹، والتي أصبحت تهدد دويلات المغرب العربي، بالإضافة إلى ذلك تهديد القراصنة الأوربيين هناك ونخص بالذكر فرسان القديس يوحنا² في رودس الذين أعاقوا الاتصالات بين مركز الخلافة في إسطنبول ومصر³، وشكل هذا الأمر شوكة في حلق الدولة العثمانية. لهذا حاول السلطان سليم الأول فتحها لكنه لم يتسن له ذلك، وعمل السلطان سليمان القانوني بعده على إتمام المشروع - المتمثل في فتح جزيرة رودس-، التي كانت تعتبر آخر قلعة مسيحية في شرق المتوسط، وتمكن في عام 928هـ/1522م من طرد قراصنة فرسان القديس يوحنا، الذين انتقلوا إلى مالطة⁴.

هذا ما سمح للعثمانيين باتخاذ رودس كهزمة وصل بين عاصمة الخلافة ومصر والشام، وبالتالي تأمين المواصلات فيما بينها، كما سمحت للبحرية العثمانية باستكمال تفوقها في شرق البحر الأبيض المتوسط⁵.

¹ شهدت سنة 945هـ/1538م هزيمة الأسطول المسيحي المشترك بقيادة أندري دوريا أمام نظيره العثماني بقيادة خير الدين باشا، هذا ما مكّن العثمانيين من إحكام سيطرتهم البحرية على البحر الأبيض المتوسط. للمزيد أنظر: محمد دراج، مرجع سابق، ص 299 - 306

² فرسان القديس يوحنا: اتخذ هؤلاء الفرسان المؤيدين الكنيسة في روما من جزيرة رودس قاعدة لهم وأصبحوا يعترضون السفن الإسلامية. وفي عام 929هـ/1522م تمكن السلطان سليمان القانوني من فتحها وطردهم منها. وعلى إثر ذلك منحهم ملك اسبانيا شارل كوينت في عام 1530 جزيرة ماطة ليعقيموا فيها وحتى يواصلوا أعمالهم العدائية ضد السفن الإسلامية. لمعرفة المزيد. أنظر: أوزوتونا، ج1، ص262، 263، 264 - 319؛ القيسي، ص 90

³ كان السلطان العثماني يعدّ العدة لمهاجمة جزيرة رودس بحراً لأنها كانت تشكل عقبة تحول بين مركز الدولة العثمانية ومصر، بالإضافة إلى خشيته من ظهور الصفويين من جديد وتهديدهم للحدود الشرقية للأناضول خاصة بعدما أبرزوا نواياهم للتحالف مع البرتغاليين بالإضافة إلى مشاكلها في أوروبا الوسطى وغرب البحر الأبيض المتوسط. أنظر: الرمال، ص 231

⁴ للمزيد أنظر: يلماز أوزوتونا، ج 1، ص 262 - 263 - 264، 319؛ القيسي، ص 90، 92

⁵ نادية محمود مصطفى وآخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة 1417هـ/1996م، ص 35

وبعد أن تمكّن العثمانيّون من تثبيت تواجدهم في سواحل غرب البحر الأحمر، وضمّهم لليمن بعد 1538، أصبحوا يكتفّون من دورياتهم البحريّة هناك، وهذا لمنع السفن البرتغاليّة من الإبحار فيه، بذلك أصبح تواجدهم هناك يشكّل تهديداً واضحاً للمصالح البرتغاليّة بالمنطقة، هذا ما زاد في اشتعال نار العداوة بين الطّرفين وأصبح كلّ طرف يسعى إلى السّيطرة على شرق إفريقيا، ونخصّ بالذّكر الحبشة والقرن الإفريقيّ، هذا من جهة ومن جهة أخرى أصبح كلّ طرفٍ منهما يسعى إلى ملء الفراغ الذي تركه المماليك في البحر الأحمر والمحيط الهندي عقب سقوط دولتهم¹.

نجحت هذه الاستراتيجية في تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلاميّة عثمانيّة، خاصّة بعد استيلاء العثمانيّين على مصوع وسواكن 964هـ/1557م، وتعاونهم مع مسلمي الزيلع في بلاد الحبشة الذين خاضوا حروباً ضدّ مملكة الحبشة، كما استولوا على ميناء زيلع على إثر حملة أوزدمير باشا على الحبشة، وعلى إثرها تمّ تأسيس إيالة الحبشة التّابعة للدولة العثمانيّة، ومنه أصبح للعثمانيّين قاعدة متقدّمة ثابتة في شرق إفريقيا، بعدما فشلوا في التّغلغل في المنطقة من قبل، على إثر مساندتهم لثورة الإمام أحمد بن إبراهيم².

¹ الفيتوري، ص175

² الشناوي، ج1، ص 21

المبحث الثاني

المواجهات بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر

مع تزايد الهجمات البرتغالية على سواحل البحر الأحمر أدرك العثمانيون أنه لن تتحقق لهم السيطرة عليه إلا بضمّ اليمن واتّخاذ قاعدة حربية متقدّمة، وهذا لمنع السفن البرتغالية وغيرها من السفن المسيحية من الولوج إليه، على اعتبار أنه يطلّ على البقاع المقدّسة وبالتالي يجب ألا تُدنّس هذه السفن المسيحية مياهه، - وقد ظلّ هذا الحظر معمولاً به حتّى القرن 18م¹-. كما اهتمّ السلطان سليمان القانوني بعد اعتلائه عرش الدولة العثمانية في عام 926هـ/1520م بمصر، التي أرسل إليها في عام 930هـ/1524م الصّدر الأعظم إبراهيم باشا² وكلفه بتنظيم الأمور الإدارية والاقتصادية بها، وتجديد أسطولها البحريّ قصد بناء قوّة بحريّة فيه، واتّخذ لذلك من أماليّة السويس قاعدة للأسطول العثمانيّ في البحر الأحمر³.

¹ الشناوي، ص148؛ آمال إبراهيم محمّد، مرجع سابق، ص36

² إبراهيم باشا الفرنجي (1494-1536): هو من الكابو كالورو أصله من مدينة بارغا *parga* اليونانية، وُلد من أبوين مسيحيين، وفي عام 1523 نصّبه السلطان سليمان القانوني في منصب الصدر الأعظم. اكتسب شهرته من ارتقائه السريع في مناصب الدولة ودوره إبّان ذروة توسعها. تزوّج إبراهيم بشا من شقيقة السلطان "السلطانة خديجة". أرسله السلطان لإخماد الفتنة في مصر وإعادة ترتيب أمورها الإدارية. وبقيت ظروف إعدامه في عام 1536م غامضة. انظر: فريدون أمجان، ص64

³ الميلاري إسماعيل سرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1312هـ، ج2، ص 3

1. مراحل المواجهات بين العثمانيين البرتغاليين في البحر الأحمر

يمكن تقسيم المواجهات بين البرتغاليين والعثمانيين في البحار الشرقية خلال الفترة المدروسة إلى مرحلتين رئيسيتين:

أ. المرحلة الأولى (945-920هـ / 1515-1538م)

تمتدّ هذه المرحلة من تولّي سلمان رايس قيادة الأسطول العثماني في البحر الأحمر، حتّى تولّي سليمان باشا الخادم *Hadim süleymane paşa*¹ نفس المهمة، وقد تصدّى العثمانيون خلالها لعدّة حملات برتغاليّة، استهدفت السيطرة على البحر الأحمر.

1. أ. التّصديّ لحملة لوبو سواريز *Lopo Soarez de Albegaria* 1515

تمكّن حاكم الهند الجديد لوبو سواريز بعد تعيينه في 1515م من توثيق صلاته بحلفائه في الحبشة، وهذا بتحالفه عام 1516 مع الملك لبنا دنجل، بعدها عمل على التّضييق على التجارة الإسلاميّة في البحار الشّرقية وهذا بإغلاق منافذ خليج البصرة والبحر الأحمر في وجه الأسطول المملوكيّ العثمانيّ المتواجد هناك، ثمّ توجّه لاحتلال عدن ثمّ جدّة².

¹ سليمان باشا الخادم: هو الوزير سليمان باشا الأرناؤوطي، كان في خدمة السلطان سليم الأول، ثم السلطان سليمان القانوني من بعده، تمّ تعيينه أميرالا للأسطول العثماني الجديد في البحر الأحمر والمحيط الهندي عام 926هـ / 1531، بعدما أثبت إخلاصه للدولة العثمانية. تمّ تعيينه عام 933هـ / 1540م والياً على مصر مدة قاربت العشر سنوات، حاول خلالها إنجاز قناة تربط بين البحرين الأبيض المتوسط والأحمر عبر نهر النيل لكنه فشل. تمّ تكليفه عام 944هـ / 1538م بقيادة حملة الهند، بعدما أعيد إلى منصبه وفي عام 947هـ. عينه السلطان سليمان القانوني في منصب الصدر الأعظم. ويعتبر بذلك أول قائد للأسطول العثماني في البحر الأحمر يتمّ تعيينه صدر أعظم. اشتهر بقسوته ووحشيته. للمزيد أنظر: أنظر: جرجي زيدان، مرجع سابق، ص121؛ أحمد بن فضل بن علي بن محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، المطبعة السلفية ومكتبتها، اليمن 1351هـ، ص96؛ حاجي خليفة، فذلكة أقوال الاخبار في علم التاريخ والأخبار، تح: سيد محمد سيد، جامعة جنوب الوادي، سوهاج، مصر، د ت ش، ص382

² بامخرمة الهجراني، ج6، ص28؛ عثمان صالح صبي، تاريخ أريتيريا، المكتبة الأريتيرية 1974، ص 128

وصل الأسطول البرتغاليّ أولاً إلى عدن حيث استقبله حاكمها مرجان الظافريّ وزوّده بما يحتاجه من مؤن ومن مرشدين للوصول إلى جدّة وتدمير الأسطول المملوكيّ هناك، ويعود هذا لعدائه الشّديد للأميرين حسن الكرديّ وسلمان رايس اللّذين حاولا من قبل احتلال عدن، لكنّهما فشلا في ذلك وتسبّبا في إلحاق أضرار كبيرة بالمدينة¹.

ثمّ عبر الأسطول البرتغالي مضيق باب المندب في 10 شوال 978هـ/7 مارس 1517م متّجهاً إلى مدينة جدّة، وفي طريقه استولى على العديد من السفن التّجاريّة، وعند وصوله إلى هناك واجهه الأسطول المُشترك المملوكي العثماني بقيادة الأمير سلمان، ممّا اضطرّه إلى الانسحاب بعدما عجز عن الرّسو في جدّة بسبب هبوب رياح قويّة، فلاحقه الأسطول المملوكي حتّى ميناء اللّحية باليمن واستولى على إحدى سفنه وأسر من كان عليها من البرتغاليّين وأرسلهم إلى القاهرة، وقد تزامن مع هذه الحادثة دخول العثمانيين إلى مصر وسقوط دولة المماليك لهذا قام الأمير سليمان بقتل حسين الكردي².

بعدها اتّجه الأسطول البرتغالي إلى كامران لكّنه ضلّ الطّريق ووصل إلى سواكن، حيث نزل بها البرتغاليون هناك، ثمّ توجّهوا إلى جزر دهلك ومنها إلى كامران التي نهبوا ثمّ أحرّقوها³. بعد كلّ هذا قفل سواريس عائداً بأسطوله إلى عدن، لكّنه وجد أنّ أميرها قد أعاد تحصينها، لهذا لم يُغامر بالاقتراب منها، على إثر ذلك عاد الأسطول البرتغالي إلى قواعده بالهند⁴.

أ.2. التّصديّ للحملة البرتغاليّة لاحتلال جدّة عام 926هـ/1520م

بتاريخ 1 جمادى الأولى 926هـ/19 أفريل 1520 وصلت إلى البحر الأحمر حملة برتغاليّة قادمة من الهند بقيادة الحاكم العامّ في غوا لوبيز دي سيكيرا *Diego loper segueira*

¹ الحسين بن القاسم، ج2، ص658.

² ابن أياس، ج 5، ص203؛ الميلباري، ص 259

³ إيفانوف، ص193

⁴ Duarte barbosa, *The book of duaret barbosa*, vol1, op.cit., pp 34- 35

استقرّت أولاً في كامران التي اتخذتها قاعدة لها¹. ثمّ توجّهت لاحتلال جدة²، لكنّ المحاولة فشلت بسبب التّحصينات التي كان قد أقامها المماليك حول المدينة من قبل، وهبوب رياح شماليّة قويّة هذا ما أجبر الأسطول البرتغاليّ على التّراجع، فلاحقه الأسطول المملوكيّ العثمانيّ بقيادة سلمان رايس حتّى ميناء اللّحية باليمن³، ممّا اضطرّ الأسطول البرتغاليّ إلى التّراجع إلى قاعدته في كامران⁴، حيث لاحقه الأسطول العثمانيّ ومن هناك عاد إلى عدن، حيث زوّدهم أميرها مرجان الظّافريّ بما يحتاجونه من مؤن، وبعدها عاد إلى قواعده في غوا بالهند في رمضان 926هـ/سبتمبر 1520م بعد أن ألحقت به خسائر كبيرة⁵. أمّا كامران فقد استرجعها العثمانيّون وأنشؤوا بها قاعدة بحريّة لهم أسندت قيادتها لسفر ريس⁶.

وفي كتابه قلادة النّحر يصف المؤرّخ اليمنيّ باخرمة هذه الحملة بما يلي:

«..... وأما الفرنج فإنّهم توجّهوا إلى جدة، فلمّا

كانوا بالقرب منها، علموا أنّ بها عسكرياً كثيفاً من

الترك والأروام والمغاربة وغيرهم فدخلهم الفشل

والخذلان فديروا إلى مصوع وأقاموا بها، ثمّ رجعوا من

926هـ/1520م مظهرين المسالمة، فأمدّهم الأمير

مرجان بالماء والزّاد واستفكّ من أيديهم بعض الأسرى

ثمّ عزموا إلى هرمز....»⁷.

¹ النهروالي، ص ص38- 39

² يذكر عبد العزيز الشناوي أنّ هذه الحملة كان لها هدفين، يتمثل الأول في احتلال جدة، والثاني في إنزال بعثة دبلوماسية إلى بلاد الحبشة، وقد تعرّضت لرياحٍ شديدةٍ قرب جدة فعادت من حيث جاءت. أنظر: عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مطبعة جامع القاهرة 1980، ج2، ص 665

³ بعد استيلاء سلمان رايس على إحدى السفن البرتغالية، وأسر بحارتها أرسلهم إلى القسطنطينية. أنظر: عبد العزيز الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، الدوحة، 1976، ج2، ص665

⁴ باخرمة، ص ص 584- 585

⁵ Danvers, op.cit., pp 334- 335

⁶ أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص326

⁷ باخرمة، ص592

وعند تولّي السلطان سليمان القانونيّ عرش الدّولة العثمانيّة، أولى عناية كبيرة لجبهة البحر الأحمر، وهذا رغم تعدّد جبهات الدّولة العثمانيّة في مواجهتها للقوى الأوروبيّة، وفي هذا الإطار أرسل في عام 930هـ/1524م الصّدر الأعظم إبراهيم باشا *Ibrahim Paşa* (929-943هـ/1523-1536م) في مهمّة تفتيش إلى مصر وتنظيم شؤونها بعد تمرّد أحمد باشا، وكان برفقته البحّار بيرى رايى، الذي نبّهه إلى نقطة مهمّة، وهي وجوب الاهتمام بقاعدة السويس حتّى تكون محطةً سياسيّة للأعمال الحربيّة العثمانيّة في البحار الشرقيّة، ووجوب مبادرة العثمانيّين بالهجوم على البرتغاليّين هناك¹.

والى غاية عام 932هـ/1526م كان اعتماد العثمانيّين في البحر الأحمر على ما تبقى من الأسطول المملوكيّ هناك، وهي عبارة عن سفن قديمة من بقايا حملة قانصو الغوريّ الثّانية على الهند²، والذي ضاع منه العديد من السفن استولى عليها البحّارة المماليك المتبقّين تحت سلطة بربساي، بالإضافة إلى نقل السلطان سليم الأوّل أمهر الحرفيّين في بناء السفن إلى القسطنطينيّة، هذا ما أدّى إلى إغلاق العديد من دور بناء السفن في مصر وبطبيعة الحال توقّف الإنتاج بها³.

أمّا بالنّسبة للبرتغاليّين فقد كان وصول العثمانيّين إلى اليمن عند مدخل البحر الأحمر تهديداً حقيقيّاً لخطّهم المتمثّلة في السّيطرة عليه، مثلما سيطروا على خليج البصرة من قبل، لهذا متّوا علاقتهم مع مملكة الحبشة المسيحيّة، حتّى تكون لهم نقطة ارتكاز عند مدخله الجنوبيّ - باب المندب - وبالتالي مراقبة تحركات العثمانيّين من هناك، وهذا بعد ما تبين لهم استحالة ذلك انطلاقاً من سوقطرى⁴.

¹ نسيبة عبد العزيز، ص ص 613 - 614

² كريم إبراهيم، ص 6

³ سرهنك، ج 1، ص 37

⁴ صالح شهاب، ص 92

أ.3. الحملة العثمانية على البحر الأحمر بقيادة سلمان ريس 932هـ / 1526م

تمكّن سلمان ريس حين تواجده باليمن من إخضاع المماليك بزيد 930هـ/1524م وهذا بمساعدة والي جدة حسين الرّومي، لكن سرعان ما ظهرت الخلافات بينهما¹.

ودخل بذلك اليمن من جديد في دوامة من الصّراعات، هذا ما جعل سلمان ريس يستجد بالصّدر الأعظم إبراهيم باشا الذي كان حينها في مصر، وأقنعه بإرسال حملة إلى اليمن قصد ترتيب الأمور بها، وإعادة ربط موانئها الواقعة تحت نفوذ الزيّديين بحظيرة العثمانيين في مصر ثمّ تعقب البرتغاليين هناك².

وبناءً على هذا جهّز ابراهيم باشا بتاريخ 932هـ/1526م حملة بحرية أسندت قيادتها لكلّ من خير الدّين حمزة وسلمان ريس³. إلّا أنّها لم تتمكن لا من فرض السّيادة العثمانية الفعلية على موانئ اليمن، ولا هي نجحت في مواجهة البرتغاليين، الذين ازداد نشاطهم العسكري والتّجاري في موانئ البحر الأحمر وموانئ شرق إفريقيا⁴.

أ.4. التّصدي للحملة البرتغالية على عدن 936هـ / 1530م

شجّع فشل حملة سلمان ريس على اليمن البرتغاليين على إرسال حملة بحرية في 11 شعبان 936هـ/10 أفريل 1530م، بقيادة ايتور دا سيلفيرا *Da silvera* وهذا قصد

¹ من خلال التقرير الذي قدمه سلمان ريس لابراهيم باشا أعطى الأولوية للسيطرة على اليمن على طرد البرتغاليين من الهند. انظر: ابن إياس، المصدر السابق، ج 4، ص195؛ الكندري، مرجع سابق ص116 إلى ص 14، ص ص 126-127

² اغتتم سلمان ريس تواجد الصدر الأعظم إبراهيم باشا في القاهرة في مهمة تفتيشية واتّصل به وقّدّم له تقريره المشهور عن الأوضاع في البحر الأحمر وتهديد البرتغاليين للسفن الاسلامية، وحالة الأسطول المملوكي في جدة، وطلب منه أن يرسله على رأس حملة بحرية لضم اليمن وطرد البرتغاليين من الهند. للمزيد انظر: أحمد الكندري، مرجع سابق ص116 إلى ص 145، ص ص 119 - 120

³ 2 النهروالي، ص ص 42- 43

⁴ تُعتبر هذه الحملة أوّل حملة عثمانية استهدفت اليمن. انظر: النهروالي، ص 66

⁴ حاجي خليفة، تحفة الكبار في أسفار البحار، تح وتر: محمد حرب، تنسيق حرب، دار البشير للثقافة والعلوم، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 1438هـ/2017م، ص 83

غزو عدن، حيث تمكّنوا من إرغام حاكمها على إمضاء معاهدة تنصّ على اعترافه بسيادتهم عليها، ودفعه الجزية لهم، وسماحه لهم باستعمال مينائها، وبالمقابل عدم تعرّضهم للسفن التجاريّة القادمة من وإلى عدن، وحجّته في ذلك خشيته منهم¹.

واستمرّ الحال على هذا النّحو - دون مواجهة حقيقة بين العثمانيين والبرتغاليين - وكان كلّ منهما في حالة ترقّب، ينتظر الفرصة للانقضاض على الآخر، لهذا يبدو لي أنّ هذه الفترة كانت لجسّ النّبض بين الطّرفين ليس إلّا، وهذا لعدم معرفة البرتغاليين بمدى قوّة العثمانيين، ولا بأسلوبهم العسكريّ، وعموماً يمكن القول إنّ مجهودات العثمانيين خلال هذه الفترة لا تتناسب مع ما حقّقه البرتغاليون من نجاحات في المنطقة².

ب. المرحلة الثانية (973-945هـ / 1538-1566م)

تميّزت خطوات العثمانيين في بسط هيمنتهم على البحر الأحمر بعد 1517 بالبطؤ والتّردّد كما ذكرنا سابقاً، لكن بعد عام 944هـ/1537م تغيّرت أساليبهم وأصبحت مشاريعهم أكثر جدّيّة، وكانت البداية بأن كلّف الباب العالي بإيلرباي مصر سليمان باشا الخادم بتجهيز أسطول بحريّ من أمرالية السّويس والتّوجه به للإستيلاء على اليمن، حتى يستخدموه كقاعدة متقدمة لهم في المحيط الهندي، ثم الوصول إلى الهند لمساندة المسلمين هناك، فكانت هذه الحملة بداية لهذه الفترة³.

ب.1. حملة سليمان باشا على اليمن والهند وتدايعاتها (945هـ/1538م)

بعد احتكاكهم بالبرتغاليين الذين تآمر معهم بعض حكام اليمن المحليّين، أدرك العثمانيون أنّه في غير مقدورهم التّحكم في البحر الأحمر والولوج إلى المحيط الهندي إلّا

¹ للمزيد أنظر: صالح شهاب، ص 98

² سالم، ص 144 - 145

³ آمال إبراهيم، ص 37

الفصل الرابع: الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

بعد ضمّهم لليمن¹. اغتتم السلطان العثماني سليمان القانوني نداء الاستغاثة الذي وجهه له حاكم كاجرات بالهند باهادر شاه²، لحمايته من تحرّشات البرتغاليين، وقرّر الشروع في تنفيذ مشروعه³.

- وفي هذا الإطار كلّف سليمان باشا الخادم بتجهيز حملة بحرية كبيرة تنطلق من قاعدة السويس للسيطرة على اليمن وتقوية الوجود العسكري العثماني في المحيط الهندي، ومنه التوجّه نحو الهند لمواجهة البرتغاليين هناك⁴، وتعود أسباب هذه الحملة إلى ما يلي:
- تمادي البرتغاليين في اعتداءاتهم على السفن الإسلامية، واستخفافهم بالعثمانيين⁵.
 - تدعيم البرتغاليين للصّفيين وهذا بتقديمهم لهم لمساعدات عسكرية، خاصّة بعد استيلاء العثمانيين على بغداد في عام 940هـ/1534م ووصولهم إلى خليج البصرة فيما بعد⁶.
 - انتشار الفوضى في اليمن وتفاقم الخطر البرتغالي في جنوب شبه الجزيرة العربية.
 - قتل البرتغاليين لحاكم كجرات عام 944هـ/1537م بعد استجاده بالعثمانيين⁷.

¹ كان اليمن قد انظمّ سلمياً للدولة العثمانية منذ 924هـ/1518م، إلا أن الوجود العثماني به بقي مضطرباً فيه. انظر: النهر والي، ص ص21، 27

² باهادر شاه: هو أحد السلاطين الكبار لكجرات بالهند الفترة الممتدة من 932 - 943هـ / 1526 - 1537م، واجه خلالها خطرين، يتمثّل الأول في خطر المغول المتمركز من جهة البر وخطر البرتغاليين المتمركز من جهة البحر، هذا ما جعله يستنجد في عام 1535م بالسلطان العثماني سليمان القانوني، ووضع مقابل هذا 300 صندوق من الذهب لتجهيز حملة لنجدة المسلمين في الهند. للمزيد انظر: الميلباري، ص59؛ حنظل، ص ص33؛ أحمد محمود السداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الأداب، القاهرة 1377هـ/1957م، ص ص76-77-78

³ لمعرفة المزيد عن المراسلات التي تمّت بين كاكم كجرات بهادر شاه والسلطان سليمان القانوني. انظر: نسيبة عبد العزيز حاج علاوي، البحار العثمانية بيري راييس حياته وجهاده البحري (1465 - 1554)، مجلة التريية، ع:4، جامعة الموصل، 1990، المجلد 16 من ص 75 إلى ص 91، ص81

⁴ يمكن اعتبار هذه الحملة الأكبر من نوعها، والتي استهدف من خلالها العثمانيون الوجود البرتغالي في الهند واليمن، ضمت حوالي 80 سفينة تحمل 20 ألف جندي. لمعرفة المزيد عن تحضيرات العثمانيين لهذه الحملة. انظر: سرهنك، ج2، ص38؛ Etuğrul Önlap, op. cit., ss201-202-203

⁵ نفسه، ج2، ص38

⁶ كانت مدينة بغداد تمثل أهمية خاصة بالنسبة للعثمانيين فقد كانت عاصمة الخلافة العباسية، خاصة عند الحديث على صراع العثمانيين مع الفرس الصفويين.

⁷ باقيه، ص ص 97، 99؛ Etuğrul Önlap, op. cit., s 201

بعد الانتهاء من تجهيزها انطلقت هذه الحملة - التي يمكن اعتبارها من أضخم الحملات التي أعدها العثمانيون - في 5 محرم 945هـ/ 13 جوان 1538م من ميناء السويس بقيادة سليمان باشا الخادم في اتجاه الهند¹. وهذا بعد أن تمكّن هذا الأخير من إقامة تحالف كبير في المحيط الهندي، ضمّ إلى جانب الدولة العثمانية القوى الإسلامية الكبرى في الهند (كجرات وكاليكوت)².

وبعد سبعة أيّام من الإبحار وصلت الحملة إلى ميناء جدّة، ثمّ توجّهت إلى عدن وفي طريقها إلى هناك استولى سليمان باشا على المناطق الساحلية المطلة على البحر الأحمر، ليتوقّف بجزيرة كامران حيث اتّصل به أطراف الصّراع في اليمن كلّ على حدى، وكلّ واحد يستنصره على الآخر، وبتاريخ 7 ربيع الأوّل 945هـ/ 5 أوت 1538م وصلت الحملة إلى عدن، التي استولى عليها العثمانيون كما استولوا على معظم أجزاء اليمن واتّخذوا من موانئه قواعد عسكرية على المحيط الهندي³.

وفي أثناء ذلك أقدم على إعدام أميرها عامر بن داود الطّاهريّ بحجّة تعاونه مع البرتغاليين مُنهيّاً بذلك حكم الأسرة الطّاهريّة⁴.

ثمّ واصلت الحملة سيرها إلى الهند مروراً بالمكلا والشّحر، حيث استولى العثمانيّون على أسطول برتغاليّ متكوّن من ستّ سفن كان متواجداً هناك، حتّى وصلت الحملة إلى الهند ورسّت بالقرب من قاعدة ديو البرتغالية بالهند، التي حاصرتها مدّة عشرين يوماً كاملة استعداداً لفتحها، إلّا أنّ حلفاء سليمان باشا من الهنود رفضوا التعاون معه، وهذا

¹ سبق انطلاق حملة الهند، انطلاق أسطول عثماني ضخم بقيادة خير الدين بربروس من إسطنبول قاصداً بروزة ببحر إيجة لمواجهة الأسطول الأوروبي المسيحي المشترك هناك. للمزيد. انظر: النهروالي، ص71؛ أروتونا، ص327

² حاجي خليفة، ص120؛ سرهنك، ج2، ص38، 89؛ Etuğrul Önlap, op.cit., s 203

³ النهروالي، ص80؛ شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل الموزعي اليمني، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت عدالة آل عثمان، تح عبد الله محمد الحبشي، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت 1407هـ/ 1986م ص24، 15

⁴ حنظل، "معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي"، ص34؛ وانظر أيضاً: Etuğrul Önlap, op. cit., s208

خوفاً من غدره وانتقامه، لهذا أمر برفع الحصار عن ديو رغم أنّها كانت على وشك الاستسلام، وهذا بعد تلقّيه أخباراً تفيد بقرب وصول إمدادات عسكريّة لمساندة القوّات البرتغاليّة هناك¹.

هذا ما اضطرّ بسليمان باشا إلى إعطاء أوامره بعودة الأسطول العثماني إلى عدن بعد أن بقائه أكثر من شهرين في سواحل الهند².

وفي الخامس نوفمبر من السنّة نفسها عادت الحملة إلى مصر، دون أن تشتبك مع البرتغاليين في أيّة معركة³.

وتبخر بذلك حلم العثمانيين والممالك الإسلامية في الهند في عقد تحالف إسلامي بينهم، وهذا بعدما سبقت أخبار ما اقترفه سليمان باشا في اليمن إلى الهند، وبالتالي خشي الأمراء الهنود من غدر وبطش سليمان باشا، ومما زاد في تخوّفهم كذلك معاملة العثمانيين بعد وصولهم إلى المياه الهنديّة للأهالي بخشونة وباستعلاء، هذا ما جعل هؤلاء ينفرون منهم. وحسب ما تناولته بعض المصادر التاريخيّة أنّ حكام هذه الممالك كانوا فعلاً يستعدّون للتّحالف مع العثمانيين ومنهم الخواجة صفر حاكم ديو، إلّا أنّ أحد مساعديه نصحه بعدم الوثوق بسليمان الخادم وذكره بما اقترفه في اليمن، لهذا لم يرض ملاقاته خوفاً منه، ونفس الموقف اتّخذه حاكم كاجرات السّلطان محمود، لهذا عوض التّحالف معه دبّروا له حيلة حتّى يطردوه من المنطقة بحيث قاموا بكتابة رسالة وادّعوا أنّها من عند نائب الملك في غاو، إلى قائد الحامية البرتغاليّة في ديو، جاء فيها:

¹ بعد حصار دام لأكثر من عشرين يوماً، كادت أن تسقط ديو في يد العثمانيين، وكانت الحامية البرتغالية بها تحتضر بعد أن نفذت كامل ذخائرها ولم يبق منها سوى أربعون جندي فقط. للمزيد انظر: Giancarlo casale, op.cit., p60

² Hulüci yayuz, *Asir Islam dünyasında Osmanli- Portikiz mücâdelisinin sebepleri*, Marmara üniversitesi İlâhiyate facültesi, sayı 3, Istanbul 1985, pp72; 91، ص 87، ص 91

³ لمعرفة المزيد عن انجازات حملة سليمان باشا في المحيط الهندي وفي ديو 1538. أنظر الدراسة القيمة التي أنجزها: Etuğrul Önlap, op.cit., ss195, 235.

«.... أنا قد جمعنا الجموع، وتهيئنا في ثلاثمائة

غراب، وخمسين برشة، وقد فرغنا من مصالحنا،

ونحن متجهون إلى دفع عسكر الروم، فإذا ظهرنا من

البحر فابرزوا أنتم أيضاً من قلعة ديو للقتال.....»

وأشاع أمير ديو أنّه ألقى القبض على رسول برتغاليّ وبحوزته هذه الرّسالة، هذا ما اضطره للعودة إلى اليمن¹.

وفي أثناء ذلك، تمكّن من إخضاع موانئ كلّ من الشّحر ومخا وحضرموت، وتسوّى له القضاء نهائياً على الحكم الطّاهريّ في اليمن، ثمّ استولى على مقرّ حكم المماليك في زبيد في عام 946هـ/1539م، كما سعى إلى القضاء على حكم الزّيديّين في شمال اليمن لكنّه فشل في ذلك بسبب مقاومتهم الشّرسية، وبالتالي لم يتسنى له توحيد اليمن تحت سلطة الدّولة العثمانية كما كان يأمل².

وعند توقّف الحملة العثمانية باليمن قدّم الباشا سليمان الخادم إلى مسلمي الحبشة مساعدات عسكريّة تمثّلت في بعض الأسلحة النّارية من بنادق ومدافع، الّذين كانوا في حرب ضروس ضدّ مملكة الحبشة المسيحيّة وحليفهم البرتغال³. وقبل مغادرته المنطقة أنشأ سليمان باشا في عام 946هـ/1539م إيالة اليمن واتّخذ من زبيد مركزاً لها، ثمّ عاد إلى جدّة في 13 مارس 1539 ومنها إلى القاهرة ثمّ إسطنبول⁴.

رغم فشل حملة سليمان باشا الخادم على الهند إلّا أنّها كانت جريئة بحيث تمكّنت من تهديد الوجود البرتغاليّ في البحار الشّرقية، ولو تحقّقت أهدافها وتحالفت معها القوى

¹ للمزيد. انظر: النهروالي، ص ص 82-83-84؛ حسن شهاب، ص 106

² يعود هذه العداء الشّديد الّذي يكنّه الزّيديّون للعثمانيّين إلى العلاقة الوطيدة بينهم وبين الصّفويّين الّذين زرعوا في نفوسهم الحقد ضدّ العثمانيّين. انظر: نادية محمود، ص 49

³ أزوتونا، ص 32

⁴ حاجي خليفة، ص 121؛ أزوتونا، ص 329

الإسلامية في المحيط الهندي، لربما تغيّرت كلّ موازين القوى هناك، وبالتالي كان البرتغاليون سيفقدون نفوذهم بالمنطقة، وهذا ما تنبّه له ملك البرتغال¹.

لهذا كان ردّ فعلهم على ذلك سريعاً، إذ استغلّوا فرصة تراجع العثمانيين وانسحابهم وقام أسطولهم بالتوغّل في البحر الأحمر وإحراق العديد من الموانئ هناك ومنها سواكن، وبعدها حاول إحراق مدينة جدّة لكنّه فشل في تحقيق ذلك، بعد هزيمته على يد الأسطول العثماني في معركة مصوع البحرية عام 947هـ/1540م².

وممّا لا شكّ فيه أنّ ما اقترفه سليمان باشا الخادم من أعمال في اليمن كان تلطيخاً لسمعة العثمانيين هناك، فقد كانت له آثار وخيمة على مستقبل الوجود العثمانيّ ليس في اليمن فقط، وإنّما في المنطقة برمتها وصعّبت من احتمال قيام تحالف بينهم وبين القوى الإسلامية في المحيط الهندي مستقبلاً³.

رغم هذا نجد هناك تضارباً في المواقف بين المصادر العثمانية واليمنية المعاصرة لتلك الحقبة، حول ما أنجزته حملة سليمان باشا الخادم، فالنهرواليّ يشير في كتابه إلى حفاوة الاستقبال التي خصّ بها حاكمُ عدن قائد الحملة العثمانية، الذي أمّده بما يحتاجه من مؤن، لكن هذا الأخير غدر به وأقدم على صلبه بعدها أمر جنوده بنهب المدينة، هذا ما زرع الخوف والرغبة في الانتقام عند أهالي اليمن، وفي ذلك يقول:

«... لما توجّه سليمان باشا من جدّة قصد المرور

بعدن، وكان صاحبها يومئذٍ عامر بن داود... فلمّا بلغه

وصول سليمان باشا للغزو في سبيل الله وقطع جادة

الإفرنج... فتح له باب عدن وجمع له من البلاد ما أراد

¹ النهروالي، ص 84

² نفسه، ص 85؛ محمد عبد العزيز عوض، الإحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية، مجلة المؤرخ العربي، ع: 29، بغداد، العراق 1406هـ / 1986م، من ص 17 الى ص 27، ص 21

³ محمد أنيس، ص 133

من الإزواد... فبمجرد أن رأى سليمان باشا باب عدن
قد فُتح أمر عسكره بدخول عدن وأخذها ولما وصل
إليه عامر ألبسه ومن معه خلعا، ثم أمر بصلبهم على
الصاري... وتوجه إلى الهند لقتال الفرنج الذين في
ديو.. وشاع غدره بصاحب عدن في أطراف البلاد...
ولما بلغ أهل الهند فعله بعامر زاد نفورهم منه وكان
ذلك سببا لعدم مساعدتهم له على الفرقتال...»¹.

في حين يرى الموزعي وهو مؤرخ يمني معاصر لحملة سليمان باشا، أن سبب غدر
سليمان باشا بالسلطان عامر بن داود هو وشاية الإمام شرف الدين به على أنه عميل
للبرتغاليين حيث يقول:

«..... فعرج مولانا سليمان باشا بعساكره خلال ذهابه
إلى عدن فهياً له السلطان عامر بن داود الضيافة
وسائر أنواع الإتحاف، وقد كان الإمام شرف الدين
وولده مطهر حاولا قتل السلطان عامر بن داود، فلم
يتمكّن أحد منهما، فلما بلغهما وصول سليمان باشا
إلى عدن كتب له: عامر بن داود مدهن للإفرنج فوق
كلاهما في قلب سليمان.....»².

كما أولى المؤرخ إسماعيل سرهنك هو الآخر اهتماما كبيرا لهذه الحملة، واهتم بكل
تفاصيلها وأطوارها، إلا أنه عندما يصل إلى ما اقتطفه سليمان باشا الخادم في حق اليمن
وغدره بعامر بن داود يمرّ مرور الكرام على، كما لم يتعرّض للصفات الذميمة التي كان
يتحلّى بها سليمان باشا، والتي أشار إليها العديد من المؤرخين اليمنيين المعاصرين لهذه

¹النهروالي، ص ص 80 - 81

² الموزعي، ص 26

الحملة، كالغدر والظلم والخوف، وفي هذا بقوله:

«....في عام 944هـ/1537م استغاث بهادر شاه حاكم كاجرات من بلاد الهند بالسلطان سليمان القانوني، لتعديّات أساطيل البرتغال على بلاده ومنعها للمواصلات التجاريّة التي كانت بينها وبين الديار المصريّة فأصدر السلطان أوامره إلى الخادم سليمان باشا والي مصر وكان السلطان يثق به كثيراً بتجهيز دونما (أسطول) في البحر الأحمر. ومرّ في ذهابه إلى الهند بعدن وقتل أميرها عامر بن داود وستّة نفر من أصحابه ونصب عليها أحد ضبّاطه المسمّى بهرام بك وترك معه بعض الجنود والمدافع ثمّ أقلع إلى الهند، ومع ما بذله من مجهود بجهات ديو لم يتمكّن من طرد البرتغاليّين عن تلك الأطراف...»¹.

وما يمكن استخلاصه من هذه الحملة هو فشلها في تحقيق أهدافها - تلبية نداء الاستغاثة الذي وجهه الهنود للسلطان سليمان القانوني-، وهذا رغم الاستعدادات الكبيرة التي سبقتها ورغم ما تمّ تعبئته لها من إمكانيّات، رغم ذلك يحاول المؤرّخون الأتراك التّباهي بالانتصارات التي حققها سليمان باشا الخادم، ويظهرونه على أنّه ذكيّ بل وداهية ومليء بالحيويّة رغم تقدّمه في السنّ، وأنّ ما قام به في اليمن والهند يعتبر إنجازاً كبيراً². ويستندون في ذلك إلى أنّ الظروف الدّوليّة آنذاك كانت لا تسمح بالتّساهل مع الذين يتعاملون مع الكفّار والأعداء، ففي الوقت الذي كانت فيه الدّولة العثمانيّة في مواجهات عديدة على مختلف الجبهات ضدّ المسيحيّين وتسعى لتثبيت حزام الأمن حول شبه الجزيرة

¹ سرهنك، ج2، ص548

² أزوتونا، ص330؛ النهروالي، ص 128

العربيّة لحماية الأماكن المقدّسة من البرتغاليّين، نجد سلطان عدن (عامر بن داود) يعقد عدّة اتفاقيّات مع البرتغاليين ويعترف بسيادتهم على بلاده¹. كما أنّ إضطراب الأوضاع الداخليّة في اليمن وكثرة الفتن به، جعل السلطان سليمان القانونيّ يعطي أوامره لسليمان باشا الخادم بتثبيت الأمن والاستقرار به².

والسّؤال الذي يطرح نفسه، هو ما هي أسباب عداوة القوى المحليّة في اليمن للدولة العثمانيّة، رغم أنّ سبب وجودها هناك كان لحمايتها من الاعتداءات البرتغاليّة؟

ربّما يعود هذا العداء إلى السياسة التي انتهجها القادة العثمانيّون في اليمن عموماً، والتي تميّزت بالقسوة والعنف تجاه القوى السياسيّة المحليّة على اختلاف مذاهبها، كما أنّ تواجدهم لم يقتصر على المناطق السّاحليّة فحسب كما كانوا يدّعون، بل حاولوا التّوغل إلى الدّاخل حيث صعوبة التّضاريس، هذا ما أوقعهم في مواجهات مع القوى المحليّة خاصّة مع الإسماعليّين والزّيديّين الذين تربطهم علاقات وطيدة بالصّوفيّين³. كما أنّ غالبية الولاة العثمانيّين الذين تولّوا إدارة اليمن كان حرصهم شديداً على جمع الغنائم، ووصل بهم الأمر أحياناً إلى مصادرة أموال بعض الأثرياء بعدما لَقّقوا لهم التّهم⁴.

ب.2. تصدي العثمانيين للحملة البرتغاليّة على السّويس (948هـ/1541م)

بعدما تمكّن العثمانيّون من إحكام سيطرتهم على البحر الأحمر، وجعلوا منه بحيرة عثمانيّة مغلقة، منعوا السفن البرتغاليّة وحتى الأوروبيّة من الإبحار فيه، على أساس أنّه يطلّ على الأماكن المقدّسة بالحجاز، ثمّ واصلوا نشاطهم في المحيط الهندي حيث تمكنوا من تهديد التواجد البرتغالي في الهند، بعدما وصلت حملة سليمان باشا الخادم إلى هناك،

¹ إفانوف، ص 122

² كريم إبراهيم، ص 398

³ نادية محمود، ص 49

⁴ الرمال، ص 229

وهَدَدُوا بذلك قلب الإمبراطورية البرتغالية في المحيط الهندي¹.

لهذا وجّه ملك البرتغال تعليمات لقادته بالهند بضرورة التصدّي للقوة البحرية العثمانية المتنامية في المنطقة، وضرورة القضاء على قواعدها بالسويس بمصر، وفي هذا الإطار حشد البرتغاليون عام 948هـ/1541م أسطولاً ضخماً بقاعدتهم البحرية في غوا بالهند، ضمّ أكثر من 40 سفينة من مختلف الأنواع تحمل أكثر من 2300 جندي، أسندت قيادته لـ: إستيفودا غاما *Estevado de gama*، وهذا قصد تدمير الأسطول العثماني المتواجد بالبحر الأحمر، وتدمير جميع القواعد العسكرية العثمانية على سواحله والإغارة على القاعدة البحرية العثمانية بالسويس وتدمير الترسانة وحوض البناء بها².

وصل الأسطول البرتغالي إلى مصوع على البحر الأحمر في ربيع عام 947هـ/1541م، حينها تبين لقائده أن أسطوله كبير جداً وثقيل الحركة وبالتالي كان يصعب عليه المناورة، لهذا قسمه إلى قسمين، القسم الأول: أسند قيادته لأخيه كريستوفر ديغاما *Cristofer de gama*³ الذي تمكّن من إنزال 400 جندي برتغالي في مصوع لمساعدة الأحباش في مواجهتهم لثورة الإمام ابن إبراهيم⁴. والقسم الثاني: يضمّ بقية السفن الشراعية الخفيفة⁵ بقيادته هو - إستيفو دا غاما-، التي واصلت سفنه إبحارها تجاه قاعدة السويس، وفي طريقها إلى هناك اقتربت من مدينة سواكن بتاريخ 25 شوال 947هـ/22 فيفري 1541م لكن حاكمها رفض التعاون مع البرتغاليين لهذا أقدموا على الانتقام منه وهذا باحراق المدينة إحراقها، بما فيها من سفن متواجدة بها بعد أن

¹ آمال إبراهيم، ص36

² كازالي، ص ص140-141؛ الحنفي، ص17

³ هو أصغر أبناء الرحالة البرتغالي المعروف فاسكو ديغاما. انظر: أوغث، ص789

⁴ حنظل، ص359

⁵ كان من الممارسات الشائعة في العصر الحديث أن تتخذ الدولة من أسرى الدول المعادية مجدفين ملزمين على ظهر سفنها الحربية، وكانوا يوضعون مكبلين بسلاسل أمام المجاديف عرف عبر التاريخ بعبيد القوادس *galley slaves*.

انظر: كازالي، ص 150

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

هرب منها سكّانها¹. وعلى إثر ذلك أقدمت الحامية العثمانية هناك على إرسال تحذيرات إلى السّلاطات العثمانية بمصر².

وعند اقتراب الحملة من مشارف السويس في 29 ذي القعدة 947هـ/26 أبريل 1541، وجدتھا محصنة تحصيناً محكماً يصعب اختراقها، حينها واجههم العثمانيون بقصف عنيف بالمدفعية، ممّا اضطرّهم للانسحاب في 2 محرم 948هـ/28 أبريل 1541م، وعادت الحملة البرتغالية إلى مصوع، ومنها توجّهت إلى عدن ومنها التحقت بقواعدها في غوا بالهند³.

أمّا بقية الحملة التي كانت بقيادة كريستوفر ديغاما، فقد دخلت في مواجهات عنيفة مع جيش الإمام أحمد بن إبراهيم، الذي كان متواجداً بجزيرة دهلك الذي اضطرّ إلى التّراجع وطلب المساعدة من حاكم اليمن مصطفى النّشار الذي أمده بمساعدات سمحت له بالانتصار على البرتغاليين وأسر كريستوفر ديغاما وإعدامه وفشلت بذلك الحملة⁴.

يمكن إرجاع أسباب إخفاق هذه الحملة، إلى عدّة عوامل، منها وصول أخبار الحملة إلى مصر، وبالتالي عدم تمكّن الأسطول البرتغالي في مباغته نظيره العثماني، ممّا سمح للعثمانيين بإتمام استعداداتهم هناك، وباغتوا هم بدورهم الأسطول البرتغالي البطيء الحركة، بالإضافة إلى امتناع الموانئ الإسلامية على طول سواحل البحر الأحمر من التّعامل مع البرتغاليين، كما كان لقساوة الظروف الطّبيعية دورها في هزيمة البرتغاليين والمتمثلة في الارتفاع الشديد للحرارة⁵.

¹ Danvers, op. cit., p 451

² كازالي، ص 140

³ Danvers, op. cit., p 451

⁴ حنظل، ص 361

⁵ للمزيد. انظر: بابكور، ص ص 284 - 285

وكان من نتائج فشل هذه الحملة أن أقدم العثمانيون على إغلاق البحر الأحمر نهائياً في وجه السفن البرتغالية، وبالتالي قطع المواصلات بينهم وبين حلفائهم في الحبشة، كما تمكّنوا من مدّ نفوذهم أكثر في سواحل المحيط الهنديّ حيث مناطق نفوذ البرتغاليين، حتّى أنّه لوحظ حضور قويّ لسفنهم التجاريّة في العديد من الموانئ وحتى ميناء هرمز الخاضع للبرتغاليين، وهذا ما زاد في طموحاتهم في تحقيق المزيد من الإنجازات في المنطقة. ويمكن ملاحظة هذا من خلال الأسماء الفخمة التي أصبحوا يستعملونها، فمثلاً تمّ تغيير تسمية أسطول البحر الأحمر المتمركز في السّويس *Bahr-i ahmer Filosu* إلى أسطول الهند *Hind donamase* كما تمّ تغيير لقب القائد البحريّ المسؤول عن هذا الأسطول من قبطان مصر *Misir kapatini* إلى قابودان الهند (أمير بحر جزر الهند الشرقيّة) *Kapudan-i hind*¹.

وأمام هذه التّحدّيات أدرك البرتغاليون أنّه لا مناص لهم من مهادنة العثمانيين وطلب المفاوضات معهم، كما سيأتي ذكره². لكنّ هذا لا يعني تفوّق العثمانيين على البرتغاليين الذين بقيت هيمنتهم على المحيط الهنديّ، لأنّ تركيز العثمانيين كان أكثر على سواحل البحر الأحمر، فقد عملوا على تزويد الإمارات الإسلاميّة التي تقع على سواحله الغربيّة بما تحتاجه من مساعدات والتي كانت في مواجهة مع الأحباش وحلفائهم البرتغاليين، هذه الإمارات بدورها قدمت المساعدة للعثمانيين، تمكّن بواسطتها الأسطول العثمانيّ من بسط سيطرته على البحر الأحمر، وهذا ما ساعدهم في وقتٍ لاحق على إنشاء إيالة الحبش التي أصبحت كقاعدة متقدّمة لهم في البحر الأحمر وشرق إفريقيا³.

¹ أوزوتونا، ص 325؛ الشّاطر بصيلي، من ص 129 إلى 139؛ Edward Alpers, op. cit., pp58, 64

² كازالي، ص 147

³ آمال محمد، ص 36؛ عثمان صبي، ص 24

ب.3. حملة بيرى ريس الأولى على ميناء عدن(955هـ/ 1549م)

فشلت حملة سليمان باشا الخادم على الهند بسبب عدم مساند الهنود لها، رغم هذا استجدوا ثانية بالسلطان العثماني عام 954هـ/1547م، ولم يخيب هذا الأخير ظنهم واستجاب لنداء استغاثنهم، لكنّ قبل ذلك كان عليه أن يقوم بتثبيت وتهدئة الأوضاع في اليمن ونخضّ بالذّكر عدن، وبهذا يتسنى له تثبيت التواجد العثماني في المياه الجنوبيّة¹.

لهذا الغرض كلّف السلطان العثمانيّ في عام 955هـ/1548م محيي الدّين بيرى ريس ببناء أسطول في قاعدة السّويس، والتّوجّه به لاستعادة عدن من البرتغاليين، والرّد على تهديداتهم على البصرة ولنجدة مسلمي الهند².

وصل الأسطول العثمانيّ إلى سواحل عدن، التي حاصرها ثمّ قصفها بالمدفعية ليتمكّن في نهاية المطاف من استردادها من البرتغاليين بتاريخ 5 محرم 956هـ/3 فيفري 1549م³. وفي هذه الأثناء وصل أسطول برتغالي كبير متكوّن من 23 سفينة إلى سواحل عدن لمساندة حليفهم حاكمها عليّ بن سليمان الطّولقيّ، إلّا أنّ العثمانيين تمكنوا من صدّ هذا الهجوم ممّا حال دون وصول البرتغاليين إليها⁴.

وبذلك يكون بيرى ريس قد أنجز مهمّته على أحسن وجه باسترجاعه لعدن، سواكن ومصوع وبالتالي السيطرة على المدخل الجنوبيّ للبحر الأحمر، ثمّ عاد الأسطول العثمانيّ إلى قواعده في السّويس⁵.

¹ بعد أن تمكّن سليمان باشا الخادم من تثبيت الحكم العثماني في اليمن، أقدم أحد شيوخ القبائل المجاورة لعدن واسمه علي بن سليمان الطولقي على التّحالف مع البرتغاليين والاستيلاء عليه عام 954هـ/1543م ثمّ. انظر: حاجي خليفة،

ص 125؛ حسن شهاب، ص ص 107-108

² للمزيد انظر: الدّراسة القيمة التي قدّمتها نسيبة عبد العزيز، ص 83

³ حاجي خليفة، ص 125

⁴ حسن شهاب، ص ص 107-108

⁵ نفسه، ص ص 107-108

ب. 4. حملة سنان باشا *Sinan paşa* عام 962هـ/1554م

بعد أن فقد العثمانيون اليمن منذ منتصف القرن 16م، تمكّن البرتغاليون من احتلال بعض سواحل البحر الأحمر الغربيّة، ومنها قدّموا إمداداتهم لنصارى الحبشة، لهذا عاد العثمانيون للاهتمام من جديد بالمنطقة، وهذا حتّى يتسنى لهم إحكام قبضتهم على مداخل البحر الأحمر، وإيقاف أيّ تعاون عسكريّ بين البرتغاليين والأحباش والتّخفيف من حدّة المضايقات التي كان يمارسها البرتغاليون على القوى العربيّة والإسلاميّة في المنطقة¹.

وحثّى يتمكّنوا من ذلك جهّز العثمانيون في عام 962هـ/1554م أسطولاً بقيادة سنان باشا²، الذي انطلق من قاعدة السّويس في اتّجاه سواكن، وتمكّن من هزيمته نظيره البرتغالي في موقعة بين سواكن ومصوع عام 1554م³. واستولى على إثرها على المدينتين المذكورتين، بالإضافة إلى زيلع والحديدة ومخا باليمن وبقية سواحل البحر الأحمر، وهذا بعد أن طردوا منها البرتغاليين، وضمت كامل المنطقة إلى إيالة الحبشة، ونصبوا حاكمين من قبلهم على كلّ من مصوع وسواكن، وفي مناطق أخرى نصبوا حُكّام لمحليّين يكونون تابعين إمّا لحاكم سواكن وإمّا لحاكم مصوع كما كان الحال في حرقيقو⁴.

ب. 5. حملة سفر ريس *Sefer reis* 971هـ/1564م

في عام 967هـ/1560م تمّ تعيين سفر ريس⁵ قابوداناً على الأسطول العثمانيّ في المحيط الهنديّ، وهذا مكافأة له على الانتصارات الكبيرة التي حقّقها على البرتغاليين في

¹ النّهروالي، ص ص 126، 133

² سنان باشا: هو كرواتي الأصل وشقيق الصدر الأعظم رستم باشا، ومن كبار رياس البحر العثمانيين في البحر الأحمر، كان قد اشترك في عدة حملات بحرية في البحر الأبيض المتوسط، تولّى قيادة الاسطول العثماني في المحيط الهندي في عهد السلطان سليمان القانوني من 1550 إلى 1553م

³ صبي، الصّراع في حوض البحر الأحمر عبر التاريخ، ص 24؛ صبي، تاريخ أريتيريا، ص 133

⁴ نفسه، ص 133

⁵ سفر ريس: هو من كبار رياس البحر العثمانيين في المحيط الهندي خلال القرن 16م، يكاد لا يُعرف الشيء الكثير عن أصوله سوى أنّه من أصول ألبانية، شارك في حملة سليمان باشا على الهند عام 1538، وقد تمت ترقيته الى قيادة الأسطول العثماني بالمحيط الهندي، توفي عام 1546. انظر: *cazale, op. cit., p112*.

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

البحر الأحمر وهذا باستهدافه لسفنهم التّجاريّة¹.

وعلى خلاف رياس البحر العثمانيّين الذين سبقوه، كان سفر ريس منذ البداية يدرك أنّ أسلوب مواجهة العثمانيّين للبرتغاليّين في البحار الشّرقية يجب أن يكون مُختلفاً عن مواجهتهم لأساطيل الدّول الأوروبيّة الأخرى في البحر الأبيض المتوسّط، حيث كانت المواجهات بين الطّرفين هناك برّمائيّة، تستهدف الإستيلاء على مدن أو على قلاع، وقد اتّبع القادة العثمانيّون في المحيط الهنديّ نفس الأسلوب، وتجلّى هذا بوضوح خلال حملة سليمان الخادم على ديو عام 1538م وأثناء حصار بيري ريس لهرمز، وهذا ما لم يكن متلائماً مع طبيعة الحروب البحريّة في المحيط الهنديّ، ولعلّ هذا ما يُفسّر تواضع الانتصارات التي حقّقها العثمانيّون في هذه الفترة رغم ضخامة الأساطيل².

بالمقابل كان اعتماد البرتغاليّين في البحار الشرقية على قوّة أساطيلهم وعلى قلاعهم المُحصّنة بإحكام، لهذا لم يحاول سفر ريس أن يقتحم قلعة أو يُنزل قوّاته إلى البرّ، وإنّما ارتكزت نشاطاته على استهداف السفن البرتغالية والاستيلاء عليها، وقد سبّب هذا الأسلوب في خسائر كبيرة للبرتغاليّين، ممّا أضعف من تحرّكاتهم ومن سيطرتهم على حركات السفن التّجاريّة الإسلاميّة هناك³.

وفي عام 971هـ/ 1564م أبحر سفر ريس على رأس أسطول بحريّ من السّويس في اتّجاه مخا باليمن التي اتّخذها قاعدة متقدّمة له، ومنها قام بعدّة هجمات على السفن البرتغاليّة هناك، هذا ما سمح للعثمانيّين من تحقيق بعض التّفوق في المحيط الهنديّ، وتهديد المصالح البرتغاليّة هناك⁴.

¹ كازالي، ص 179

² نفسه، ص ص 198 - 199

³ نفسه، ص ص 198 - 199

⁴ كازالي، ص 220؛ وانظر كذلك: الملحق رقم 10، ص 244

وقد علّق السّفير البرتغاليّ في روما لورنزو بيريز Lourenco pires على ذلك بقوله:

« بالنّظر إلى خبرة ذلك القبطان بكامل السّاحل

السّواحيّ حتّى موزمبيق جنوباً، فلا ريب أنّ

العثمانيّين سيشرعون في عمل كبير على أحد هذين

السّاحلين... يجب على نائب الملك في الهند أن يظلّ

على أهبة الاستعداد لكلّ الاحتمالات...»¹.

وبعد هذه الانجازات التي حقّقها سفر ريس كلّفه الصّدر الأعظم محمّد صوكولو باشا Mehmet Sokullo paşa² بالإبحار جنوباً، والتّقدّم جنوباً الى السّاحل السّواحيّ حتّى موزمبيق، والاعارة على السّفن البرتغاليّة، القادمة من البرتغال في اتّجاه الهند، وقد شكّل هذا النّشاط تهديداً حقيقياً للوجود البرتغاليّ بالبحار الشّرقية، خاصة وأنّه تزامن بداية تواجد القراصنة الفرنسيّين، وتهديديهم للقواعد البرتغالية في المحيط الأطلسي³.

وفي غُمرة هذه الانتصارات الباهرة التي حقّقها سفر ريس في البحار الشّرقية وافته المنية فجأة، هذا ما أجبر قيادة الأسطول العثمانيّ على التّراجع إلى السّويس⁴.

¹ نفسه، ص 196

² صوكولو محمد باشا: (1506-1579) هو أهمّ الصدور العظام الذين أداروا شؤون الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني، وهذا بعد أن ترك له هذا الأخير أمورها. تخرّج من نظام قابو قالورو ليترقى بعدها في الجهاز العسكري للدولة. عُرف عنه كفاءته العالية، وحسن قيادته. بعد وفاة خير الدين بربروس في عام 1546 تمّ تعيينه قائداً للأسطول العثماني،؛ تولّى بعدها منصب الصدارة العظمى في الدولة العثمانية منذ 1565، كان يلقي معارضة من العلماء في الدولة لأنّه كان مستبد برأيه. توفي صوكولو محمد باشا مقتولاً في عام 1579م، في قاعة الديوان العثماني في عهد السلطان مراد الثالث. أنظر: أوزتونا، ص ص، 431، 361

³ في عام 973هـ/1566م هاجم قراصنة فرنسيون القاعدة البرتغالية في مديرا التي كانت محطةً أطلسية مهمة بين الهند والبرتغال. انظر: Mehmet Kuru, op.cit., p p 73 – 74

⁴ كازالي، ص 220

2. المشاريع العثمانية لربط أجزاء العالم الإسلامي الشرقيّة بمركز الخلافة

حتى يتسنى للعثمانيين ربط أجزاء دولتهم ببعضها البعض وهذا لتسهيل المواصلات فيما بينها أقاموا عدّ دراسات لإنجاز مشاريع كبيرة في هذا الميدان.

أ. مشروع ربط البحرين الأحمر بالأبيض المتوسط

كان أوّل من فكّر من العثمانيين في ربط البحرين الأحمر بالأبيض المتوسط السلطان سليم الأوّل بعد سيطرته على مصر، وهذا لحاجته إلى إرسال الأسطول العثماني إلى البحر الأحمر لمواجهة البرتغاليين هناك، لكنّه لم يتمكّن من ذلك، كما حاول السلطان سليمان القانوني كذلك انجاز هذا المشروع، وهذا لاعادة الاعتبار للطريق التجاري عبر البحر الأحمر، وكانت هناك محاولتين جادتين لحفر هذه القناة، كانت أوّلاهما عام 935هـ/1529م عندما حاول والي مصر سليمان باشا حفر قناة تربط بين البحرين، وهذا لربط أسطولي الدولة العثمانية في البحرين ببعضها البعض، إلّا أنّ المشروع لم يكتب له النّجاح. وفي عام 974هـ/1566م كلّف السلطان سليمان القانوني وزيره سمير علي باشا بدراسة الموضوع لكنّ أجل السلطان كان أسبق إذ توفي في نفس السنة¹. وبوفاته توقّف النّشاط الحربيّ للدولة العثمانية مؤقتاً، بسبب المشاكل الماليّة التي سبّبتها الحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة العثمانية في عهده، وتوقّف بذلك الإهتمام بهذا المشروع².

وفي عام 975هـ/1567م توجه أسطول عثماني من السويس إلى المحيط الهندي، من جهة للقضاء على تمرد كان قد اندلع في اليمن ضدّ التواجد العثماني، ومن جهة أخرى لمساعدة المسلمين في آتشي الذين ثاروا ضدّ التواجد البرتغالي، وعندئذٍ أصبحت الدولة العثمانية بحاجة ماسّة إلى أسطول البحر الأبيض المتوسط، لكن وبسبب استحالة ذلك برزت فكرة في الديوان روج لها الصّدر الأعظم صوكولو محمد سوكولو، تقول بحفر قناة

¹ أوزوتونا، ص 365

² محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط8، تح: إحسان حقّي، دار النّفائس، بيروت 1988،

تربط بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط، وفي هذا الصدد كلّ السلطان العثماني في عام 976 هـ/1568م والي مصر بإنجاز دراسة دقيقة للقيام بالمشروع، إلّا أنّ المسّاحين أكّدوا استحالة إنجاز المشروع لاعتقادهم بوجود اختلاف في مستوى البحرين¹.

ب. مشروع قناة الفولغا

وبالموازاة مع ذلك، أراد الصّدر الأعظم صوكولو كذلك ربط مسلمي أواسط آسيا من سمرقند وبخارى وخوارزم، بإخوانهم في البلاد العربية والمحيط الهندي، خاصة بعد التّهديدات الصّفويّة والرّوسيّة لقوافل الحجاج من قازان *Kazan* وأسترخان *Astarhan*، لهذا كان مشروعه هو أن يتجنبوا الطّرق التقليدية المحفوفة بالمخاطر والنتقل من القرم عبر البحر الأسود إلى موانئ شمال الأناضول، لكن سرعان ما توسّعت طموحات صوكولو ومشاريعه منذ 977هـ/1569م خاصة مع وفرة الموارد المالية واليد العاملة الفنية، إلى التّفكير في إنجاز قناة مائيّة تربط بين نهري الدّون والفولغا، وبهذا نجد أنّ طموحاته وآفاقه كانت كبيرة، ولو تجسّدت على أرض الواقع لتمكن من ربط الأجزاء الشرقية من العالم الاسلامي ببعضها البعض، ولتجسّد مشروع الأمّة الإسلاميّة على أرض الواقع، وهذا بإنجاز شبكة نقل عالميّة تُحيط بالدّولة العثمانيّة تمتدّ إلى أبعد أنحاء العالم².

¹ لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع. انظر: إدريس بستان، ص ص 41-42؛ انجلو ساماركو، قناة السويس تاريخها ومشكلاتها وفقاً للوثائق المصرية والأوروبية الغير منشورة، تر: ولاء غفيفي عبد الصّمد وآخرون، مطبعة دار الكتب والوثائق القوميّة القاهرة 2015، ص ص 52-53؛ Hulüci yayuz, op. cit., pp 74-75

² أوزوتونا، ص 367؛ إينالجيك، مرجع سابق، ص 64

المبحث الثالث

محاولات الصّـلح بين العثمانيين والبرتغاليين ونهاية الصّـراع بينهما

بعد طول صراع بينهما لم يتمكّن الطرفان البرتغاليّ ولا العثمانيّ من تحقيق نصرٍ حاسمٍ على الطرف الآخر، لهذا اقتتعا بعدم جدوى المواجهات العسكريّة بينهما التي كان فيها المنتصر خاسراً والمنهزم أشدّ خسراناً، فالكثير من المواجهات بينهما لم تحسم لأحد منهما وتشابهت نتائجها في الكثير من الأحيان¹. ومن جانبٍ آخر تحمّل العثمانيّون نفقات باهظة من مشروع السّيطرة على البحار الشّرقية، لكنّ في نهاية المطاف لم يتسنى لهم تحقيق النّتائج المسطّرة لهم، كما أنّ نفقات البرتغاليين على حملاتهم مكلفة هي الأخرى، هذا ما جعل الطرفين يفكّران في محاولة إعادة النظر في علاقاتهما وتسوية خلافاتهما سلمياً، وكان البرتغاليّون السّباقيين إلى ذلك، ووجدت الإدارة العثمانية استجابة لذلك².

1. محاولات الصّـلح بين العثمانيين والبرتغاليين

بدأ هذا التّحوّل في العلاقات بين الطرفين منذ حملة سليمان باشا الخادم على اليمن والهند عام 945هـ/1538م، وبداية الحرب المفتوحة بين البرتغاليين والعثمانيين في البحار الشّرقية، خاصّة بعد أن وصلت أخبار هذه الحملة إلى العاصمة لشبونة، وتحوّفت السّلطات هناك من الخطر الذي يمكن أن يشكّله العثمانيّون على الوجود البرتغالي في المنطقة³، خاصّة إذا ما توصّلوا إلى عقد تحالفات مع الممالك الإسلاميّة في الهند مثلما كان مُخطّطاً له، بالإضافة إلى الانتصارات الكبيرة التي حقّقتها ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم على الأحباش، والتي كادت أن تقضي نهائياً على دولتهم، وبالتالي فقدان البرتغال

¹ Vambery, A. *Travels of the Turkish Admiral sidi Ali Reis in India Afghan istan, central Asia and Persia during the years 1553- 1555*, London S.L.E, 1890, pp 9, 12

² Ib.bid, Pp 9, 12.

³ Dejanera Selva- couto, *Les négociations diplomatiques entre le Portugal et l'Empire ottoman au 16^e siècle*, méthodes en histoire du monde portugais. in: école pratique des hautes études, 2000/2001, p p 293, 297, p 294.

لأهمّ حليف له في المنطقة، عند ذلك أدرك البرتغاليون أنّه من الأفضل لهم حلّ خلافاتهم مع العثمانيين وإجراء مفاوضات معهم، ولمّ لا عقد صلح بينهما، لأنّه تبين لهم أنّه من الأحسن لهم مهادنة العثمانيين بدل مواجهتهم ولو مؤقتاً¹.

لهذا يمكن التّسليم بأنّ سنة 944هـ/1538م كانت البداية الرّسميّة للاتّصالات الغير مباشرة ثمّ المباشرة بين الطّرفين، وفي هذا الإطار أرسل الحاكم البرتغاليّ في غوا بالهند مبعوثاً اسمه ديوارت كاتنهو *Duarte Catanho*² إلى لشبونة للاتّفاق مع ملكه دوم جاو الثالث حول كفيّة عقد اتّفاقيّة سلام مع العثمانيين، وقد تزامن وصوله إلى هناك مع وصول حملة سلمان رايس عام 944هـ/1538م إلى الهند وحصاره لديو، هذا ما سهّل من مهمّته بحيث تمكّن من إقناع ملكه على تعيينه ضمن وفد رسميّ برتغاليّ للذهاب إلى إسطنبول قصد التّفاوض مع العثمانيين³.

وبتاريخ 13 شوال 947هـ/10 فيفري 1541م قدّم المبعوث البرتغاليّ بعرض ملكه على السّultan العثمانيّ سليمان القانونيّ للاطّلاع والمصادقة عليه، لكنّ هذا الأخير رفضه لما تضمّنّه من شروطٍ مهينة للعثمانيين⁴، والتي تمثّلت فيما يلي:

■ أن يتخلّى العثمانيّون عن كلّ حقوقهم في الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهنديّ، وأن يقوموا بنزع سلاح الأسطول العثماني في البحر الأحمر، وأن يتعهّدوا بعدم بناء سفن حربية جديدة.

■ قبول الدّولة العثمانيّة بعبور للسفن التجاريّة البرتغاليّة بكلّ حرّيّة في البحر الأحمر

¹ إدريس بستان، ص40

² ديوارت كاتنهو: هو من رعايا الدولة العثمانية جنوبي الأصل، وكان من ضمن جهاز الإستخبارات التي استعملها سليمان باشا الخادم قبل حملته على الهند عام 1538، لكنّه إتّصل بالبرتغاليّين في هرمز وفي غاو وأخبرهم أنّه جاسوس عثماني، لكن كونه مسيحياً يريد خدمة دولة البرتغال وأعرب على استعداده ليكون وسيطاً بين الطّرفين في المفاوضات. أنظر: casale, op. cit, p66

³ Dejanirah silva – couto, op. cit., p p 277, 286

⁴ حنظل، ص336

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

والتّرخيص للتّجّار البرتغاليّين بحريّة التجارة في عدن وجدة¹.

■ استعداد البرتغاليّين للتّخفيف من احتكارهم لتجارة الفلفل بمنح السّultan رخصة لشراء ما قيمته 3 آلاف قنطار من الفلفل الهنديّ سنويّاً، على أن يُنقل على سفن برتغاليّة إلى ميناء البصرة².

■ السّماح للتّجّار البرتغاليّين بالوصول إلى أسواق الحبوب العثمانيّة على البحر الأبيض المتوسّط³.

■ حقّ البرتغاليّين في مراقبة مضيق هرمز والبحر الأحمر لمراقبة تجارة الفلفل⁴.

■ تعهّد العثمانيّين بالعمل على المساعدة على القبض على التّجّار البرتغاليّين المستقلّين الذين يحاولون بيع التّوابل في الموانئ العثمانيّة دون ترخيص من البرتغال⁵.

وانتهت بذلك هذه المفاوضات بالفشل بسبب رفض السّultan العثمانيّ لهذه الشّروط المهيّنة، التي لا يقبلها إلّا خصم مغلوب على أمره على حدّ تعبير المؤرّخ البرتغالي المعاصر لها دينفرس، خاصّة ما تعلّق بمسألة حريّة التجارة والملاحة في البحر الأحمر⁶.

فبنود هذه المعاهدة لم تكن تختلف كثيراً عن تلك المعاهدات التي كان قد فرضها البرتغاليّون على الإمارات الإسلاميّة في سواحل شرق إفريقيا وفي المحيط الهنديّ، ويمكن القول إنّّه لأوّل مرّة تُقدّم دولة أوروبّيّة على تقديم معاهدة مُهيّنة بهذا الشّكل للسّultan العثمانيّ للتّصديق عليها، ورغم هذا اعتبر البرتغاليّون أنّهم قدّموا تنازلات كبيرة للعثمانيّين من خلال هذه المعاهدة، وهذا باعترافهم بسيادتهم على مصر واليمن، وباستعدادهم للتّنازل عن إحدى أهمّ أسس ركائز السّياسة لدولتهم في المحيط الهنديّ، ألا وهي العداوة لأية قوّة

¹ Danvers, op. cit., p450

² Danvers, ib.id., p450

³ كازالي، ص 136

⁴ نفسه، ص 135

⁵ نفسه، ص 136

⁶ Danvers, op.cit., p 451

الفصل الرابع: الصّراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

إسلاميّة في مصر أو في البحر الأحمر، وفشلت بذلك مساعي كانتيو في التّوصّل إلى عقد معاهدة سلام بين الطّرفين¹. بل وتوتّرت العلاقات بين الطّرفين من جديد، وبعد سنتين من هذا اللقاء عاد البرتغاليّون إلى عمليّات النّهب والسّلب الّتي قامت بها سفنهم على سواحل اليمن وعدن².

رغم هذا الاستخفاف اضطرّ العثمانيّون إلى مهادنة البرتغاليّين لحاجتهم الماسّة للحصول على الأخشاب من بلاد الهند وشرق إفريقيا لبناء أسطولهم البحريّ بالبصرة، نفس الأمر بالنّسبة للبرتغاليّين الّذين كانوا بحاجة ماسّة للقمح من جنوب العراق لتمويل حامياتهم العسكريّة وجنودهم بهرمز، فبعد عام 947هـ/1541م قاموا بتزويد العثمانيّين بكميّات كبيرة من الفلفل الميلباريّ عن طريق ميناء البصرة، مقابل تزويد الأتراك للبرتغاليّين في جزيرة هرمز بكميّات من القمح³.

وفي عام 951هـ/1544م أرسل البرتغاليّون بعثة دبلوماسية أخرى إلى إسطنبول للتّفاوض مع العثمانيّين لعقد معاهدة سلام بين الطّرفين مدّتها عشر سنوات، وتضمّنت الشّروط التّالية:

- تزويد البرتغاليّين للدّولة العثمانيّة بكميات من البهارات عبر البصرة مقابل تزويد الدّولة العثمانيّة للبرتغاليّين بكميات من القمح.
- حقّ الدّولة العثمانيّة في الإشراف على باب المنذب.
- نزع سلاح الأسطول العثماني في البحر الأحمر.
- الاعتراف بحريّة البرتغاليّين التّامّة في الملاحة على سواحل الجزيرة العربيّة.
- حصول السّفن العثمانيّة على إذن من البرتغاليّين بالإبحار في البحار الشّرقية.

¹ كازالي، ص ص 137 - 138 - 139

² إدريس البستان، ص 40

³ Salih Özbaran, *Ottoman empire and the spice routes in the 16th century*, in: international seminar for Unesco integral study of silk roads: roads of dialogue "the influence of the silk roads in Turkish culture and art, Izmir 30 octobre 1990, P4

- تعهّد العثمانيّين بعدم بناء سفن حربيّة جديدة في البحر الأحمر وخليج البصرة.
- أن يتمّ عقد صلح بين الطرفين لمدة خمس عشرة سنة على الأقلّ.

ومن الواضح أنّ هذه الشّروط لم يكن ليقبلها العثمانيّون، وبالفعل رفضها السّultan سليمان القانوني، ولم تتوقّف بذلك العمليّات العسكريّة بين الطرفين، وهذا رغم حاجة العثمانيّين الماسّة إلى البهارات وحاجة البرتغاليّين إلى الحبوب¹.

وفي عام 951هـ/1544م بعث السّultan العثماني سليمان القانوني برسالة إلى ملك البرتغال دوم جاو كردّ على الرّسالة التي بعثها بها البرتغاليّون مع سفيرهم ديرات كاتتهو، تتضمّن طلب عقد معاهدة سلام بين الطرفين بالشّروط التي حدّدها لأنّها تتنافى ومصالحهم. وأكّد على ضرورة تشجيع التّبادل التجاريّ بين الدّولتين عبر المحيط الهندي². كما طالب السّultan العثماني البرتغاليّين بعدم اقتراب سفنهم من سواحل عدن وزبيد وجدة وسواكن وسواحل الحبشة، كما أبرز أنّه من الممكن عقد اتّفاقيّات تجارية بين الطرفين في المستقبل³.

وبعد ضمّ العثمانيّين للبصرة عام 944هـ/1538م أنشؤوا بها أهمّ قاعدة لهم على خليج البصرة بعد قاعدتهم في السويس، ومنها حاولوا تهديد الوجود البرتغالي في قاعدة هرمز⁴. ومن جهة أخرى حاول حكامها ربط علاقات تجارية مع دولة الهند في غوا، وهذا لحاجة العثمانيّين الماسّة للتّعامل التجاري مع البرتغاليين، وفي هذا الإطار أرسل إليها بلال محمّد باشا في عام 953هـ/1547م رسالة إلى حاكم هرمز لويس فالكاو، تتضمّن

¹ إيفانوف، ص 201

² Salih Özbaran, op.cit., p5

³ انظر: الملحق رقم 11، ص 245

⁴ لمعرفة المزيد عن ظروف سيطرة العثمانيين على بغداد والبصرة. أنظر: إيفانوف، ص ص 111 - 112؛

Dejanera Selva- couto, *L'expédition portugaise au Bassora en 1551*. in: *comptes rendu 2002 pp 461 – 486.pp, des séances de l'académie des inscriptions des belles lettres, n° 2, 461, 481*

رغبة الدولة العثمانية في إقامة علاقات تجارية مع البرتغاليين، على اعتبار أنّها مفيدة للطرفين وتحقق لهما عدّة مكاسب، ورغم اقتناع البرتغاليين في غاو بالطرح العثماني وما سيحقّقه لهم من مكاسب إلا أنّهم رفضوا فكرة نظام التجارة الحرة تحت رعاية الدولة العثمانية، ورغم هذا التّعنت من جانب البرتغاليين إلا أنّ المبادلات التجارية بين البصرة وهرمز عرفت نشاطاً كبيراً حتّى أنّه أصبح لهرمز وكيل تجاريّ دائم في البصرة¹.

وبهذا اعتبر البرتغاليون وصول العثمانيين إلى البصرة وخليجها، إيذاناً بدخول صراعهم معهم مرحلة جديدة تتخلّلها علاقات متباينة في فترات مختلفة، ويعود هذا إلى حاجة الجانبين لتبادل السلع والبضائع بينهما، والتي انعدمت بسبب اشتداد الصّراع والتنافس بينهما، ومن مظاهر ذلك إرسال والي البصرة "محمّد باشا" في عام 953 هـ/ 1547م لتاجر عربيّ يدعى "الحاجّ فيّاض *Haci fayati*" إلى الحاكم البرتغاليّ في هرمز ويُدعى *Manuel de Lime*، من أجل إبرام اتّفاقيات تجارية مختلفة وإبراز النوايا الحقيقية للعثمانيين في جنوب العراق، وعلى الفور بعث دي ليما برسالة إلى مسؤوله المباشر في غوا يخبره بأنّ العثمانيين يسعون إلى جعل البصرة مركزاً تجاريّاً لهم على خليج البصرة².

وبعد وفاة الصّدر الأعظم رستم باشا *Rüstem paşa*³ عام 1561 خلفه في منصبه علي باشا سميز، وكانت لهذا الأخير سياسة مخالفة لسابقه، فقد كان يرى أنّ التّفاوض مع البرتغاليين والتّعامل تجاريّاً معهم أفضل من معاداتهم، وهذا بإغرائهم بالتّوقيع على اتّفاقيات تجارية، وحتّى يُبرز حسن نواياه لهم، أمر سفر رايس بإيقاف هجماته على البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وحتّى أنّه اقترح على البرتغاليين خفض الدّائم للأسطول العثمانيّ في البصرة، وكلف والي البصرة درويش علي باشا *Derviş Ali*

¹ كازالي، ص ص 154-155

² أحمد العناني، البرتغاليون في البحرين وحولها، مجلة الوثيقة، ع: 04، السنة 1984، ص 101

³ كان الصّدر الأعظم رستم باشا من معادي عصبة المحيط الهندي وبالتالي كانت سياسته في البحار الشرقية تقوم على عدم التعامل مع البرتغاليين وكان أصلاً ضدّ إهتمام الدولة العثمانية بالمنطقة. انظر: كازالي، ص 177

paşa بأن يتّصل بالبرتغاليين بهرمز للتنظيم لزيارة مبعوث برتغاليّ إلى إسطنبول قصد بدء مفاوضات جادة بين الطرفين¹. واستجابة لذلك بعث ممثل حكومة البرتغال في الهند في عام 971هـ/1563م ب: فرانسيسكو كانتهو *Fransisco catinho* إلى إسطنبول بالمفاوض أنطونيو تيكسير *Antonio texiera*، للتفاوض مع العثمانيين حيث عُرضت عليه اتفاقية تجارية شاملة²، أُعطي البرتغاليون بمقتضاها الحق في إقامة وكالات تجارية في كلّ من البصرة والقاهرة والإسكندرية، وحرية التجارة في كلّ الموانئ العثمانية على البحر الأحمر والخليج العربي، وبالمقابل مُنح التجّار العثمانيون نفس الامتيازات في الموانئ البرتغالية في المحيط الهندي، مع السماح لهم بإقامة وكالات تجارية هناك، ورغم هذا العرض الذي يبدو مغرياً بالنسبة للبرتغاليين، بالنظر إلى الأخطار والتّهديدات التي كانت تشكّلها تحرّكات سفر رّئيس آنذاك على التّجارة البرتغالية في المحيط الهندي³. أبدى البرتغاليون في البداية نوعاً من القبول لكن في النهاية رفضوه، لأنهم كانوا مبدئياً ضدّ أية معاهدة تسمح للعثمانيين بحرية التّجارة في المحيط الهندي، لأنّ ذلك في نظرهم يشكّل تهديداً لمصالحهم هناك⁴.

وبفشل هذه المفاوضات زاد عداء البرتغاليين للمسلمين في الهند في المحيط الهندي، ولم يجد هؤلاء من وسيلة سوى الاستنجد بالدولة العثمانية، لكنّ هذه التّداءات لم تجد آذاناً صاغية من قبل الصّدر الأعظم علي باشا سميز، الذي كان يسعى لمهادنة للبرتغاليين⁵. وبعد وصول أخبار إلى إسطنبول تفيد بالأضرار التي ألحقها الأسطول البرتغالي ببعض السفن التّجارية التابعة للدولة العثمانية، أرسل السلطان سليمان القانوني في عام

¹ Edward Alpers, op. cit., pp58, 64

² Dejanirah silva, op. cit., p296

³ صبري فالح الحمدي، "السياسة الاقتصادية البرتغالية في الخليج العربي وآثارها (1507-1566)"، مجلة الوثيقة،

مركز الوثائق التاريخية، مركز عيسى الثقافي، المنامة البحرين، ع: 38، 2000، 2000، ص132

⁴ كازالي، ص ص204 - 205، 208

⁵ كازالي، 205، 208

972هـ/ 1564م برسالة إلى ملك البرتغال دون سان سيبيستيان يحتجّ من خلالها على عدم التزام الطّرف البرتغاليّ ببنود الاتفاقية التي أبرمت بينهما¹.

كما بعث برسالة أخرى إلى ملك البرتغال دون سيبيستيان بتاريخ 28 محرم 972هـ/ 25 أوت 1565م، تضمّنت قبوله لطلب ملك البرتغال بعقد صلح بينهما لكن بشروط، وذكره من خلالها باعتداءات سفن بلاده على الحجاج والتّجار الذين قدّموا من الهند عن طريق البحر الأحمر، وأنّه إذا استمرّ الأمر على هذا النّحو فسوف لن تكون هناك أيّة اتّصالات بين الطّرفين مستقبلاً².

وبعد وفاة الصّدر الأعظم عليّ باشا سميز في عام 973هـ/ 1565م وتولّي محمّد سوكولو الصّدارة العظمى- الذي كان موقفه عدائياً من البرتغاليّين - سعى إلى ربط علاقات وطيدة مع مسلمي الهند وسومطرة وآتشي في أندونيسيا وتعهّد بمساعدتهم ضدّ الوجود البرتغاليّ، وكان لهذه المساعدات دور كبير في ثورة مسلمي المحيط الهنديّ ضدّ البرتغاليّين التي كانت قد اندلعت في عام 972هـ/ 1564م، وهذا ما أدّى الى تدهور العلاقات بين الطرفين من جديد³.

وانطلاقاً من هذا وممّا قد يجنيه الطّرفان -العثمانيّ والبرتغاليّ- من خلال تشجيع التّبادل التّجاريّ بينهما عبر خليج البصرة، قام والي البصرة عام 1566م بعرض الأمر على حاكم هرمز الذي وافق، وعلى هذا الأساس أرسل هذا الاخير وفداً عنه إلى الباب العالي ليعرض مقترحاته، إلّا أنّ الباب العالي رفض الموضوع شكلاً وليس مضموناً، إذ ودّ لو تكون الاتّصالات مباشرة الدّولة العثمانيّة وحكومة البرتغال⁴.

¹ إدريس بستان، ص 41

² كان السلطان العثماني يعتبر نفسه مسؤولاً عن حماية رعايا دولته حيث ما وجدوا، وأنّ هذا من أقدم مهامه. انظر: Hulüci yayuz, op. cit., p 73

³ كازالي، ص 217

⁴ حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص ص 395 - 396

وبصفة عامة يمكن القول إنّهُ بسبب عدم ثقة العثمانيين في البرتغاليين على غرار عدم ثقتهم في بقية الأوروبيّين، كانوا يفضّلون الحفاظ على ممتلكاتهم في البحر الأحمر وفي المناطق المجاورة له على المكاسب الماديّة التي يمكن أن تجنيها من تجارتها مع البرتغال، لهذا لم تتحسنّ العلاقات بين الطرفين رغم المحاولات العديدة لأجل ذلك، وبقيت العلاقات بينهما يغلب عليها التوتّر والحذر.

2. نهاية الصّراع العثمانيّ البرتغاليّ

شهدت البرتغال بعد وفاة الملك دوم جاو الثالث عام 984هـ/1557م عدّة أحداث أثّرت كثيراً على العلاقات البرتغاليّة العثمانيّة في شرق إفريقيا والبحار الشّرقية وفي غرب إفريقيا وبالضّبط في المغرب الأقصى، حيث اعتلى العرش حفيده الملك سيبستيان *Dom Sébastian* الذي تولّت جدّته الوصاية عليه لصغر سنّه، والذي عيّن دوم قسطنطين دي براغزا *Dom custantino de braganza* نائباً جديداً له في الهند، هذا الأخير عمل على تقوية علاقات دولته بالحبشة وهذا بمحاولته ربط الكنيسة الحبشيّة الأرثوذكسيّة بنظيرتها الكاثوليكيّة البرتغاليّة لكنّه فشل في مساعيه، بل على العكس من ذلك ساهمت هذه المحاولة في ظهور خلافات عميقة بين الطّرفين، وهذا ما أدّى إلى إضعاف الوجود البرتغاليّ هناك لصالح القوى الإسلاميّة هناك المتحالفة مع العثمانيين¹.

وفي معركة واد المخازن² بتاريخ 30 جمادى الأولى 986هـ/4 أوت 1578م تمكّن الجيش المغربيّ بقيادة السّلطان السّعديّ المنصور الدّهبيّ من أن يوقع هزيمة كبيرة بالجيش البرتغاليّ الذي كان بقيادة ملكه دوم سيبستيان، وكانت أهم نتيجة لهذه المعركة

¹ نفسه ، ص 393

² والمعروفة بمعركة الكزار الكبير *El Cazar el Kebir*، والمعروفة كذلك بمعركة الملوك الثلاثة سُميت بمعركة الملوك الثلاثة لأنّها عرفت مقتل ثلاثة ملوك، هم: عبد الله السعدي، والمتوكل السعدي، وملك البرتغال الدون سيبستيان. لمعرفة المزيد عن هذه المعركة. انظر: نفسه، ص ص 465-466-467

الفصل الرابع: الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر

أن تلقى الجيش البرتغالي هزيمة ساحقة، أدت إلى مقتل ملك البرتغال نفسه¹.

كان لهذه الهزيمة آثار وخيمة على البرتغال، ووصفها بعض المؤرخين البرتغاليين بأنها كارثة حلت بالبرتغال واعتبروها بداية لأفول نجمه بين الأمم العظيمة²، إذ تسببت في خسائر مادية كبيرة وأدت إلى إفقاره على حدّ تعبير المؤرخ المغربي حنظل، لما تطلّبت من أموال ضخمة لتجهيزها، ولكثرة عدد الأسرى الذين تمّ افتدائهم³.

وبوفاة ملك البرتغال الذي لم يترك وراءه وريثاً، دخلت البلاد في فوضى سياسية، وبحكم القرابة بين أسرة الهابسبورغ⁴ Habsburg الحاكمة في إسبانيا والأسرة الحاكمة في البرتغال من ناحية الأمّ، تمكنت إسبانيا إمن ضمّ دولة البرتغال في عام 987هـ/1580م⁵، وبقيت دولة البرتغال على هذا الحال إلى غاية 1074هـ/1646م، وبقيت أثناءها المستعمرات البرتغالية تحت سيطرة إسبانيا⁶.

¹ رغم الإهتمام الكبير الذي يوليه المؤرخون البرتغاليون لفترة حكم الملك دوم سيبستيان حتى سميت بالسيبستانية le sébastianisme، ورغم التأثير الكبير الذي تركته هذه المعركة على تاريخ البرتغال الحديث، إلا أنهم يعتبرونها حدثاً ثانوياً عابراً، في حين يولون اهتماماً كبيراً لاحتلال البرتغاليين لمدينة سبتة عام 1415م. أنظر: بوشرب، ص 11، 117

² جلول بن غومار، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا - البرتغال - إسبانيا - فرنسا - (986هـ - 1578م / 1012هـ - 1603م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، المركز الجامعي بغرداية، 2010 - 2011م، ص 79

³ بوشرب، ص 124

⁴ الهابسبورغ: هي أسرة جرمانية حكمت الامبراطورية النمساوية من 1278 الى 1918، ضمّ أباطرتها عدة دول عن طريق المصاهرة (هولندا، قشتالة وأراغون، بوهيميا والمجر)، وقد بلغت أوج قوتها على عهد شارل الخامس، وبعده انقسمت إلى عدّة أجزاء، كانت والدته دون سيبستيان الأميرة دونا جونا، أخت ملك إسبانيا فيليب ابن شارلكان. انظر:

جلول بن غومار ص 119، 129؛ Michel mourre, op. cit., pp2133-2134

⁵ فالح حنظل، "معارك البحرية العثمانية"، ص 40؛ شوقي أبو خليل، وادي المخازن، معركة الملوك الثلاثة، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1409هـ/1988م، ص 69 - 70

⁶ كازالي، ص 259

أمّا على سواحل شرق إفريقيا المُطلّ على المحيط الهندي فقد زحفت قبائل الزّيمبا¹ المتوحّشة التي زرعت الرّعب والخراب، واستولت على ماليندي ونهبت ممباسا عام 1589 هذا ما سهّل من مهمّة سيطرة البرتغاليين على المنطقة التي واجهت فيها مقاومة إسلاميّة، كما زحفت قبائل الجالا غرباً على منطقة القرن الإفريقيّ واكتسحت ممالك عدل والحبشة وهذا بسبب ضغط القبائل الصّوماليّة من الشرق².

وختاماً يمكن التّسليم بأنّ العثمانيين لم يتمكنوا من القضاء على النّفوذ البرتغالي في البحار الشرقيّة وشرق إفريقيا، وأنّهم عجزوا عن تحقيق نفس الانتصارات التي حققوها في البحر الأبيض المتوسط رغم أنّ الدّولة العثمانية كانت في أوج قوتها خلال القرن 16م أمام دولة البرتغال الضّيقة المساحة والقليلة السّكان والتي كانت تمتلك أحد أكثر أساطيل العالم تفوّقاً من حيث نوعيّة السّفن والمدافع المركّبة عليها. ويعود هذا لطبيعة نشاطهم الذي كان صعباً في المحيط الهندي، وإلى افتقار سواحل البحر الأحمر للغابات، وبالتالي كان عليهم نقل الأخشاب الموجّهة لصناعة من الأناضول إلى السّويس، وهذا ما يتطلّب الكثير من النفقات والجهود. كما أنّ جبهة المحيط الهندي كانت الوحيدة بالنسبة للبرتغاليين بينما كانت جبهات الدولة العثمانية متعددة بين القوقاز والبلقان وأوروبّا، لهذا يبدو لي أنّ تركيز الدّولة العثمانية كان على أوروبّا والبحر المتوسط أكثر من البحار الشرقية وسواحل شرق إفريقيا.

¹ قبائل الزيمبا *Zimba*: هي من قبائل بدائية آكلة للحوم البشر تنتشر جنوب نهر الزمبيزي، أفرادها بارعون في تقنيات الصيد ومطاردة الحيوانات المفترسة، وخلال النّصف الثاني من القرن 16م زحفت أمواجاً منهم شمالاً على طول الساحل الشرقي لإفريقيا فدمروا كل المدن التي مروا بها، ومنها كلوة في عام 1588. كانت نهايتهم على أيدي البرتغاليين وقبائل السجسجو المحلية. للمزيد انظر: Alpers, op. cit., pp58, 56

² كولن ماكلن، ص134

الخاتمة

بناءً على ما سبق عرضه في هذه الدراسة يُمكن تلخيص ما تم التوصل من نتائج،
على النحو التالي:

أولاً: كان الصراع العثماني البرتغالي في شرق إفريقيا وفي البحار الشرقية من أهم النتائج التي ترتبت على تدخل البابوية في تقسيم المستعمرات المكتشفة حديثاً بين إسبانيا والبرتغال بناءً على اتفاقية تورديسيلاس عام 1494.

ثانياً: تزامن هذا الصراع مع محاولة الإسبان اختراق العالم الإسلامي من جهة الغرب، وهذا ما يؤكد وجود خطة مُحكمة وشاملة بين الدول الأوروبية ترعاها البابوية لتطويق العالم الإسلامي مشرقاً ومغرباً.

ثالثاً: لعبت الخلافات التي نشبت بين القوى الإسلامية آنذاك خاصة بين العثمانيين الرّاعين للمذهب السني والصّفويين الراغبين في نشر المذهب الشيعي، دور كبير في إضعاف الجبهة الداخلية للعالم الإسلامي، هذا ما ساعد البرتغاليين ومن ورائهم الكنيسة البابوية في روما على بسط سيطرتهم على الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا والمناطق المجاورة لها حول سواحل شبه الجزيرة العربية وفي الهند.

رابعاً: ساهمت الخلافات والنزاعات السياسية بين الإمارات الإسلامية في شرق إفريقيا في تهيئة الأجواء لتدخل البرتغاليين في المنطقة واحتلالهم لأهم المناطق بها، والعمل على إضعافها حتى يتسنى لهم البقاء أطول مدة.

خامساً: لم تكن منطقة شرق إفريقيا هدفاً رئيسياً لأطماع البرتغاليين في المنطقة، وإنما كانت بالنسبة لهم بمثابة منطقة عبور إلى الهند فرضتها بعد المسافة، بحيث كانوا بحاجة إلى مراكز تجارية، لتأمين طرق الملاحة لسفنهم ولتسهيل مهمة إحكام سيطرتهم على البحار الشرقية.

سادساً: بعد الضعف الذي آلت إليه دولة المماليك وعجزها عن مواجهة البرتغاليين وحماية العالم الإسلامي من خطر البرتغاليين، قرّر العثمانيون خوض المواجهة مباشرة معهم ولم يكن ليتسنى لهم ذلك إلا بعد إزاحة دولة المماليك، وبذلك أصبحت المواجهة المباشرة بين الطرفين.

سابعاً: كان يطغى على الحملات البرتغالية التي استهدفت العالم الإسلامي وشرق إفريقيا الصبغة الدينية المتعصبة، حيث أهدد البرتغاليون بهدم الكعبة المشرفة ونبش قبر النبي صلى الله عليه وسلم، كما تعرّضوا مراراً لسفن الحجيج القادمين من الهند، هذا ما دفع بالعثمانيين لأخذ زمام المبادرة والتدخل لحماية لحماية الإسلام والمسلمين.

ثامناً: كان من أهم النتائج الاقتصادية التي يمكن استخلاصها من هذه الدراسة، هي تمكّن البرتغاليون في بداية القرن 16م من فرض سيطرتهم على طرق التجارة العالمية في البحار الشرقية والجنوبية، ومن ثمة تحويلها من البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الأطلسي، وتكوّنت بذلك تجارة الأطلسي، التي ساهمت في ازدهار الحركة الإقتصادية في أوروبا، ومن جهة أخرى ساهمت في إضعاف دولة المماليك. إلا أنّ تدخل العثمانيين هناك بعد استيلائهم على مصر والشام، سمح لهم باستحداث طرق تجارية أخرى ومن أهمها طريق الحرير الذي يعبر أواسط آسيا، ويربطها بالهند والصين.

تاسعاً: كان للنظرة الضيقة المحليّة لبعض زعماء المسلمين في شرق إفريقيا دور كبير في عرقلة نشاط العثمانيين هناك، بحيث أنّهم لم يكونوا مُدركين للبعد العالمي للصراع بين القوى الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية والقوى المسيحية المتمثلة في البرتغال، وهذا ما جعل الإمام أحمد بن إبراهيم يقوم بمناكفة العثمانيين وعرقلتهم في مهمة مساعدته للوقوف في وجه مملكة الحبشة المسيحية ومن ورائها دولة البرتغال، هذا ما أدّى بالعثمانيين الى تغيير سياستهم في المنطقة، فبدل الاعتماد على القوى المحلية وتدعيمها

أنشؤوا أيلة الحبشة لتكون لهم نقطة ارتكاز في شرق إفريقيا.

عاشراً: كان لسيطرة العثمانيين على السواحل الغربية للبحر الأحمر وتأسيسهم لأيلة الحبش، جزء من حلّ المشاكل الماليّة التي كانت تعانيها الدولة العثمانية آنذاك، وهذا بتوفير كمّيات كبيرة من الذهب الذي كان يصل إليها من داخل شرق إفريقيا.

حادي عشر: لم يتسنّ للبرتغاليين تأسيس إمبراطورية استعمارية حقيقية على سواحل البحار الشرقية، وإنّما كان وجودهم هناك عبارة عن إدارة استعمارية مركزها في غاو بالهند، تسيطر على المناطق الإستراتيجية والممرّات المائية الهامة التي أنشؤوا فيها قواعد عسكرية تحتفظ فيها ببعض السفن بصفة دائمة، ويعود هذا إلى النقص الديموغرافي الذي كانت تعانيه، وإلى بعد المسافة بينها وبين ممتلكاتها هناك.

ثاني عشر: نظراً لاحتكاك العثمانيين بالبرتغاليين في البحار الشرقية وشرق إفريقيا، اقتضت الظروف الأمنية والإستراتيجية على العثمانيين أن يؤسّسوا إيالتي اليمن والحبشة، لإغلاق باب المندب في وجه السفن المسيحية، وبهذا أصبح البحر الأحمر بحراً إسلامياً، كما حاولوا إغلاق مضيق هرمز، إلّا أنهم لم يتمكنوا من ذلك بسبب التحالف الصفوي البرتغالي، ولمنع التمدد الصفوي في خليج البصرة أنشؤوا أيلة البصرة، وتمكنوا بذلك من إقامة حزام الأمن العثماني حول الجزيرة العربية.

ثالث عشر: كان للتحالف الاستراتيجي بين مملكتي الحبشة والبرتغال خلال القرن 16م دور كبير في مواجهة القوى الإسلامية، لكنّ تدخل البرتغاليين في شؤون مملكة الحبشة الداخليّة، من خلال محاولتهم فرض المذهب الكاثوليكي على الأحباش على حساب المذهب اليعقوبي أجج الخلاف بينهما ووصلت الخلافات إلى حدّ مطالبة ملوك الحبشة بجلاء البرتغاليين عن بلادهم رغم المساعدات التي قدّموها لهم من قبل.

أربع عشر: رغم ما بذلته الدولة العثمانية من جهود للقضاء على الوجود البرتغالي في البحار الشرقية إلا أنها لم تتمكن من ذلك، ويعود ذلك إلى تعدد جبهات الصراع بالنسبة لها وتشنت قواها بين مواجهة الصفويين وفي أوروبا والقوقاز، وإلى تفوق تقنيات الملاحة البحرية البرتغالية، وإلى كثرة القواعد العسكرية البرتغالية في البحار الشرقية، والأهم من ذلك هو عدم تمكن الدولة العثمانية من تكوين حلف شامل يضم الدول الإسلامية على غرار الحلف الذي كان يضم الدول المسيحية وتشجعه البابوية.

خمس عشر: بعدما أسس العثمانيون إيالة الحبشة أدرك البرتغاليون عجزهم عن التصدي لهم عسكرياً، سعوا إلى تسوية سياسية معهم من أجل المحافظة على مكاسبهم الاقتصادية في المنطقة، إلا أن ذلك لم يتحقق واستمر الصراع إلى أن تغيرت الأوضاع الجيوسياسية في المنطقة وهذا بظهور العثمانيين ثم الهولنديين فالانجليز بالمنطقة، إذ اجتازت منذ عام 1591 أولى السفن البريطانية رأس الرجاء الصالح ورسست بزنجبار، هذا في الوقت الذي وجهت فيه الدولة العثمانية اهتماماتها بمسائل أخرى، وانشغلت بجبهات أخرى.

هذه الاستنتاجات المتواضعة لا تُعدُّ أحكاماً نهائية، بل يمكن أن تكون منطلقاً لدراسة مستقبلية، حول الصراع العثماني البرتغالي في شرق إفريقيا وما أعقبها من بدايات للتواجد العثماني في المنطقة ثم البريطاني والهولندي ومن بعده الألماني، وبالتالي يبقى هذا العمل المتواضع قابل للنقاش والإثراء من طرف باحثين آخرين، والله الموفق إلى الحق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الملاحق

- الملحق رقم "1": جدول كرونولوجي لأهم الأحداث التي تناولتها الدراسة.
- الملحق رقم "2": سواحل المحيط الهندي مع بدايات القرن 16م.
- الملحق رقم "3": الممالك الإسلامية في الحبشة خلال القرن 10هـ/16م.
- الملحق رقم "4": أهم الإنجازات العسكرية التي حققها الإمام أحمد بن إبراهيم.
- الملحق رقم "5": رسالة من حاكم هرمز راشد ركن إلى ملك البرتغال دون إمانويل.
- الملحق رقم "6": رسالة ألفنسو البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي عام 1510.
- الملحق رقم "7": رسالة بعث بها حاكم موزمبيق إلى ملك البرتغال دون إمانويل 1517.
- الملحق رقم "8": الخطاب أرسله سلمان ريس إلى حضرة السلطان العثماني سليم الأول.
- الملحق رقم "9": فرمان تعيين أوزدمير باشا والياً على إمارة الحبش.
- الملحق رقم "10": رسالة من السلطان العثماني سليمان القانوني إلى أمير اليمن.
- الملحق رقم "11": الرسالة التي بعث بها السلطان العثماني سليمان القانوني إلى ملك البرتغال دوم جوان في عام 1544.
- الملحق رقم "12": رسالة من السلطان العثماني إلى حاكم سواكن .
- الملحق رقم "13": رسالة من السلطان العثماني سليمان القانوني إلى أمير اليمن.

الملحق رقم "1": جدول كرونولوجي لأهم الأحداث التي تناولتها الدراسة

التاريخ	الحدث
897هـ/1492م	سقوط الأندلس
903هـ/1498م	اكتشاف البرتغاليين رأس الرجاء الصالح
913هـ/1507م	احتلال البرتغاليين لجزيرة سقطرة
915هـ/1509م	تأسيس البرتغاليين لدولة الهند البرتغالية
7 صفر 918هـ/24 أبريل 1512م	تولّي السلطان سليم الأول الحكم في الدولة العثمانية
2 رجب 920هـ/23 أوت 1514م	معركة تشالدران
15 رجب 922هـ/24 أوت 1516م	معركة مرج دابق
29 ذي الحجة 922هـ/23 جانفي 1517م	معركة الريدانية
3 محرم 923هـ/26 جانفي 1517م	دخول السلطان سليم الأول إلى القاهرة وسقوط دولة المماليك
29 ذي الحجة 923هـ/17 جوان 1517م	انضمام الحجاز للدولة العثمانية
9 رمضان 926هـ/22 سبتمبر 1520م	وفاة السلطان العثماني سليم الأول وتولّي السلطان سليمان القانوني السلطة
933هـ/1527م	إعلان الإمام أحمد بن إبراهيم ثورته ضد الحبشة
29 محرم 945هـ/13 جوان 1538م	حملة سليمان باشا على اليمن والهند
946هـ/1539م	إنشاء العثمانيين لإيالة اليمن
948هـ/1541م	الحملة البرتغالية على السويس

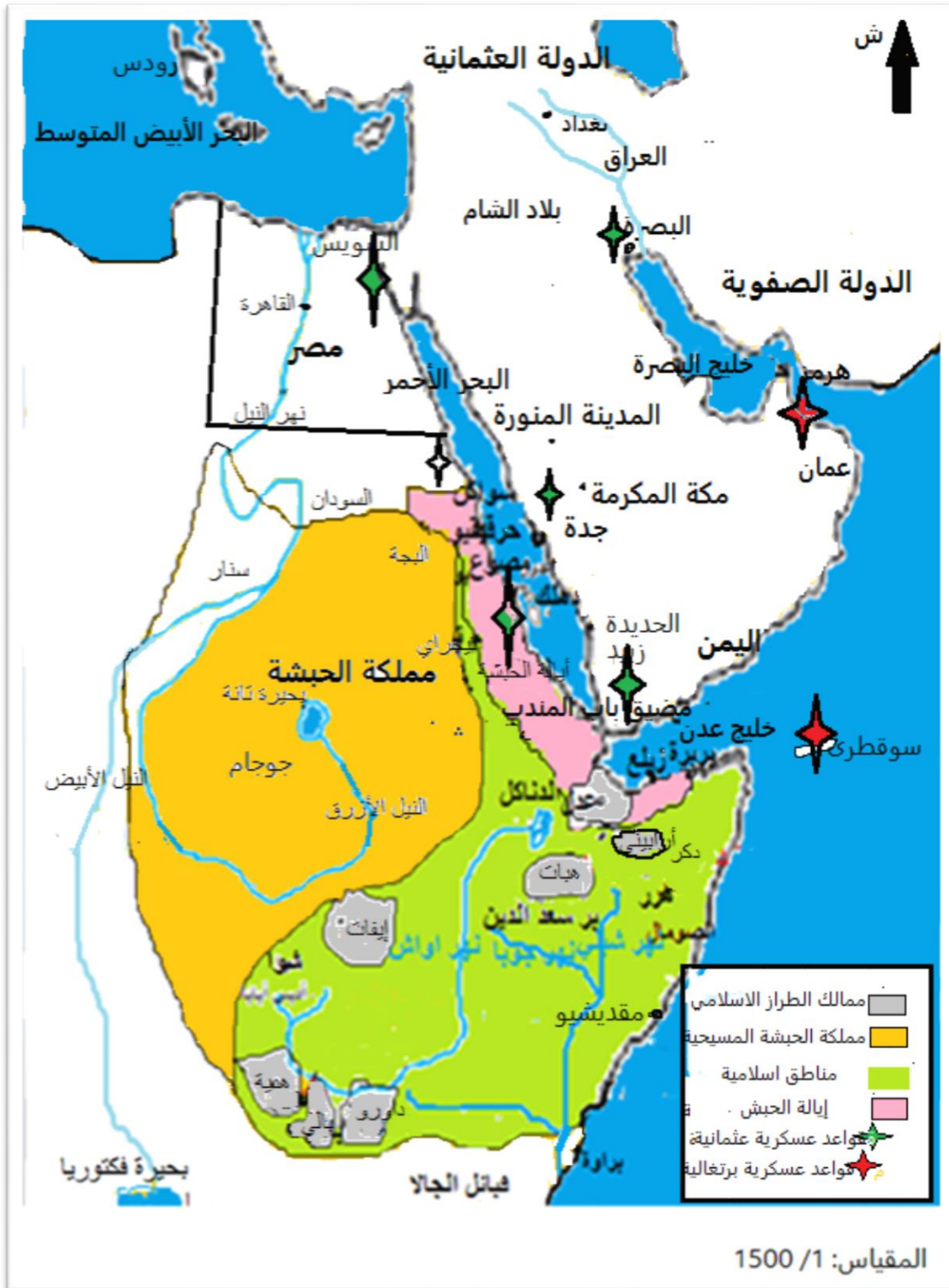
استشهاد الإمام أحمد بن إبراهيم	17 ذي القعدة 949هـ / 22 فيفري 1543م
إنشاء الدولة العثمانية لإيالة الحبشة	15 شعبان 926هـ / 3 أوت 1555م
طلب البرتغاليين عقد الصلح مع العثمانيين	13 شوال 947هـ / 10 فيفري 1541م
وفاة السلطان العثماني سليمان القانوني وتولي سليم الثاني للسلطة	24 جماد الثاني 974هـ / 7 ديسمبر 1566م
معركة وادي المخازن	3 جمادى الأولى 988هـ / 4 أوت 1578م

المُلحق رقم "2": سواحل المحيط الهندي في بدايات القرن 16م



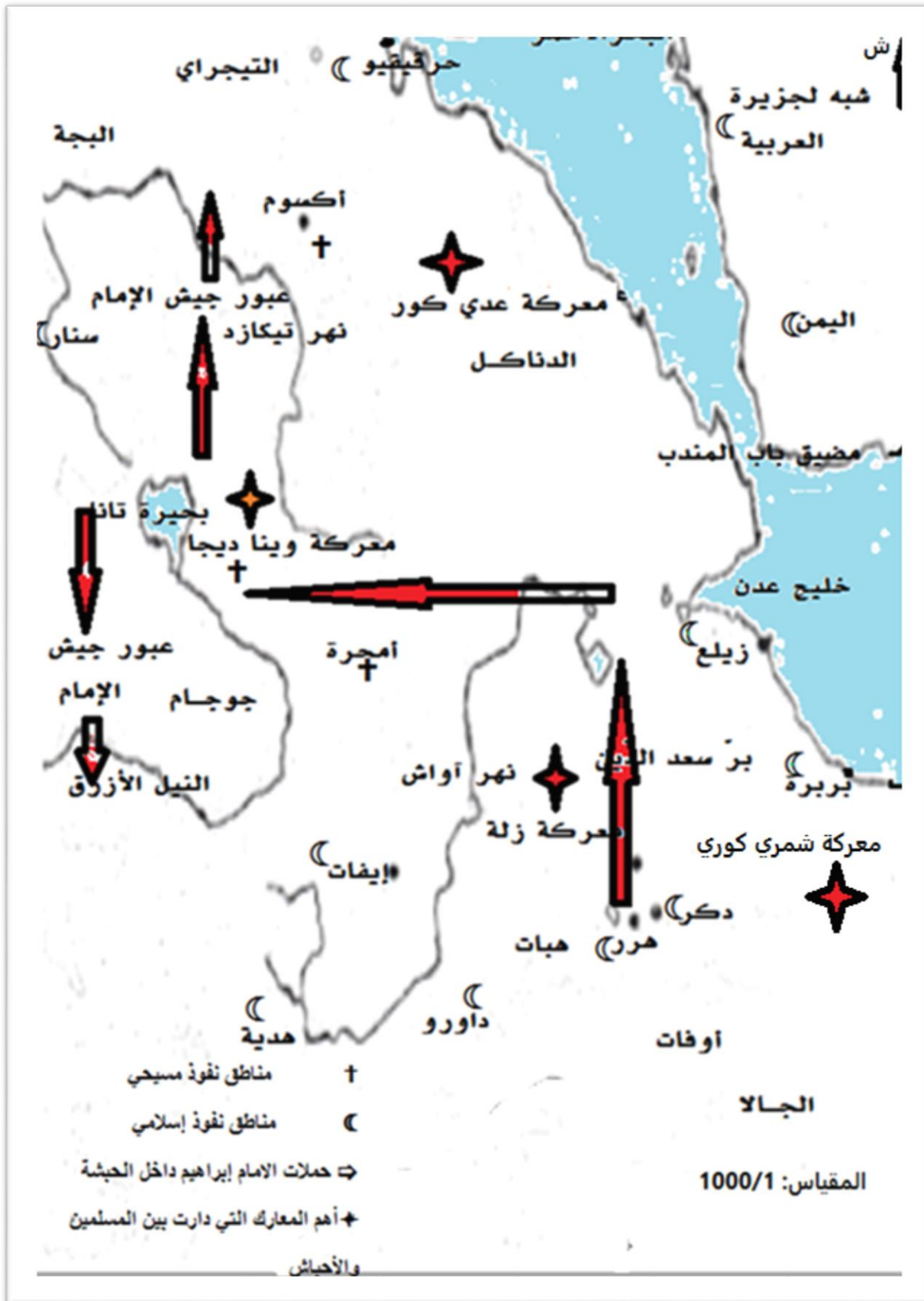
بتصرف

الملحق رقم "3": سواحل البحر الأحمر والحبشة خلال القرن 10هـ/16م



بتصرف

المُلحق رقم "4": أهم الانتصارات العسكرية التي حققها أحمد بن ابراهيم أثناء ثورته



بتصرف

الملحق رقم "5": رسالة من حاكم هرمز إلى ملك البرتغال دون إمانويل (المصدر:

Jao De Sousa : *Documentos Arabico para historia portugueza Lisboa*, Portugal, 1790, pp 48, 49, 50)

De Raxed Zarkam, Guazil de Ormuz, escrita a El-Rei D. Manoel.

AO Magnanimo Soberano D. Manoel, Rei de Portugal. Os aromas do melhor cheiro espalhem o seu grato cheiro, e este chegue ao nobre olfato envolvido nas ligaduras do sincero amor, acompanhado da mais perfeita saude, e se offereção áquelle Senhor, que Deos destinou para a completa felicidade: ao Rei mais poderoso, e Senhor da maior gloria; possuidor do mar, e da terra; tutelar dos Arabes, e Persas; o maior guerreiro dos Reis do universo; o mais esforçado dos Principes; Senhor dos paizes mais remotos; conquistador dos Climas mais dilatados, a quem Deos eternize na face da terra o seu dominio, e poder, e este sirva de abrigo a todas as creaturas.

Depois de beijar os vossos nobres pés, representa o servo a seu Senhor o que convem. Em primeiro lugar, as noticias da Palestina, as quaes me forão com-

السلطان الاعظم دون
منويل سلطان
يرتكال اعطر خدمات
تعطر من نساجها
مشام الروحاني
وتلتقب بلغايف الصدق
وتحفظ في حزب الخلاص
وتهدي الي من خصه الله
تعالى بالسعادة الكاملة
السلطان الاعظم
والخاتان الافخر مالك
البر والبحر حامي
العرب والعجم اعدا ملوك
الاسكناف واشجع ولات
الاطراف مسخر الاقاليم
الاطوال خلد الله
سبحانه في بسط الارض
ملكه وسلطانه وبه
يفلك كافت البرايا
وبعد تقبيل الاقدام
المشرفة الخادم يعرض
للولي ما هو لازم اولاً
عن اخبار الشام وهو
ان جاءنا رجال من

PARA A HISTORIA PORTUGUEZA. 49

فجاءنا من الشام ومن
يوم خروجهم الي تاريخ
هذا له ثلاثة اشهر وخبرنا
عن سلطان الروم انه
مضى لمحاربة الفرنج
بعسكره الي نواحي
سويس وكان عدده خمسة
وعشرين الف رجلا
وستين غراب وبعد ما
طلع لمحاربة الفرنج
حط عليه قصور في
المحاربة واخذوا الموضع
ورجع فبعد ذلك عين
سلطان باشا امير مصر
بكون باش علي العسكر
ويسير به الي نواحي الهند
بالقرايات وامير سليمان
قبل علي نفسه هذه
الخدمة وهذا خبر محقق
من هو معتمد عليه
وايقيا عام الاول سار
عسكر الشاه علي ديار
بكر وكسروا عسكر الروم
وهزموهم حتي انه
تركوا خيامهم
واسلحاتهم واموالهم
وركبوا الخيل بغير سروج
وكان ملك الروم غايب
في حرب الفرنج فبعد
ما وطئ قبض باشين
واحد حاكم حلب والاخر
حاكم حميد وقتلهم

municadas por gente nossa, que
ha tres mezes que veio de Da-
masco. Elles noticiarão que o Rei
dos Rumes quando foi para fa-
zer a guerra aos Francos, mar-
chou com seu exercito, que se
compunha de 250000 homens,
e 60. galeras, e se encaminhou
para as partes de Suez: mas sen-
do mal succedido, e perdendo o
campo voltou, e elegeo Soliman
Baxa, Governador do Cairo, por
General do exercito, para que
com elle partisse para as partes
da India.

Mir Soliman acceitou este
serviço, e executou a ordem do
Rei: esta noticia he verdadeira,
e dada por quem cuida neste ne-
gocio. O anno passado marchou
o exercito do Xáh da Persia con-
tra Diarbaquer, e forão os Ru-
mes vencidos, e obrigados a dei-
xar suas tendas, armas, baga-
gem, e montar os cavallos sem
sellas; e isto aconteceo estando o
Rei dos Rumes ausente, e occu-
pado na guerra dos Francos. De-
pois que este chegou, prendeo o
Baxá de Alepo, e o de Hamid,
e os matou. Determinou depois a
Ibrahim Baxá, que fosse tomar
Diarbaquer, e fizesse frente ao
Xáh da Persia.

Eu tenho mandado alguns ho-
mens para a parte do mar a in-

36 DOCUMENTOS ARABICOS

dagarem as noticias, e chegarem até Suez; porém elles por causa da innundação não poderão chegar fênão ao porto de Cacén, devendo hir até Gedda.

Tambem por outras partes mandei exploradores para observarem os movimentos do inimigo; e me não descuidarei de averiguar todas as noticias, que forem uteis ao serviço de meu Senhor. As noticias da armada do mar são as mesmas que erão dantes.

No que respeita ao Emir da Armenia, ha tres annos successivos, que manda hum corpo de tropa para as partes de Ormuz: este anno mandou hum exercito contra Listán, e destruiu o paiz maritimo, e queimou alguns lugares. No dia que escrevi esta recebi a noticia, de que o Emir de Raxid viera com dois mil espingardeiros contra a fortaleza de Tafrage, e quer tomar aquella provincia, cuja noticia não ignora meu Senhor. E se elle chega a tomar as vizinhanças de Ormuz, como he Mastagan, e seus limites, impedirá a entrada dos dactiles, que he o principal sustento do povo deste paiz, igualmente da carne, manteiga, fruta, e se porá o povo em grande consternação, e por consequencia

وعين ابراهيم باشا
يقبض ديار بكر ويقابل
الشاء وانما رسلت رجالا
من طريق البصرة ليعتصروا
عن الخبر ويصلوا الي
سويس والذين ارسلتهم
ما قدروا بصلوا ورددوا
الطوفان من بندر قسن
وكانوا طسالبين جدة
وايضا ارسلت الجواسيس
الي كل ناحية ليعتصروا امور
العدو وانما ليس متغافل
عن قصص الاخبار
المفيدة لخدمته سيدي
واما اخبار امور البصرة
فهي كما كانت ومن جهت
الامير الارمني من مدة
ثلاث سنين كل سنة يرسل
شردمة من عسكرة الي
نواحي هرموز وهذه السنة
ارسل عسكرة الي استان
وخربوا سواحلها وحرقوا
بعض امكن وبوم
تاريخ هذه جانا
خبر ان الامير راشد اي
بالقين قواس ومربهم
علي قلعة تزرج ويريد
باخذ البلاد وهذا غير
مخفي عن سيدي فلان
قبض حوالي هرموز
ومستعنان وبناقي
جوايلها بمتنع دحوب

PARA A HISTORIA PORTUGUEZA.

في ٢٤ من جادي سنة

٩١٧ للهجرة

من خديمكم

راشد ركن وزير هرموز

A paz seja com vosco.

Foi escrita a 24 do mez de Jumadi de 917 da Hegira; corresponde aos 27 de Março de 1511.

Do vosso servo

Raxed Zarkam,
Guazil de Ormuz.

الملحق رقم "6": رسالة ألفنسو البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي عام 1510م.
(نقلاً عن: عبد الرحمان عبد الله الشيخ، ثلاث وثائق برتغالية عن خطة للاستيلاء العالم
العربي في مطلع القرن 16م، ص 269) (الترجمة للانجليزية عن البرتغالية والتر دي
جراي برشن عضو اللجنة الملكية لأعالي البحار)

LETTER WHICH THE GREAT AFONSO DALBOQUERQUE WROTE,
AND SENT BY RUY GOMEZ TO THE XEQUE ISMAEL

"Very great and powerful Lord among the Moors, Xequo Ismael: Afonso Dalboquerque, Captain-General and Governor of India, in behalf of the very high and very powerful King D. Manuel, King of Portugal and of the Algarves on this side and on that side of the sea, in Africa Lord of Guinea, and of the conquest, navigation, and commerce of Ethiopia, Arabia, Persia, and India, and of the Kingdom and Lordship of Ormuz, and of the Kingdom and Lordship of Goa: I give you to know that when I captured the city and kingdom of Goa, I found therein your ambassador, to whom I shewed great honour, treating him as ambassador of so great a King and Lord, and I looked to all his affairs just as if he had been sent to those parts to the King of Portugal. And whereas I am informed that the King D. Manuel, my Lord, would be pleased to have an understanding and alliance and intercourse with you; therefore I send to you this present messenger to whom you are to give credit in respect of all things which he shall relate to you on my behalf, for he is a knight and servant of the King my Lord, a man well-versed

in military matters, bred up in arms according to our custom, and of all the affairs of the Kingdom of Portugal he will be competent to give you a very good account.

"You are well-informed how it was that I gained the city and kingdom of Ormuz in accordance with the command of the King, my Lord, and how from that time forward I strove to gain information concerning your estate, power, and command, and desired to send messengers to you, if the business of Ormuz had not miscarried, which I hope to God will soon be re-established, for I am in expectation of going thither in person, and thence I will endeavour to have an interview with you on the coast of the sea and harbours of your kingdom; for the powers which I carry from the King my Lord, of ships and mariners, are for destroying and casting out the ships of the Sultan that may enter India and destroy therein to establish themselves—which deed, with the help of God, we have brought to pass, for the Sultan's captain, Mirocem, and his fleet were routed at Dia,¹ and all his ships and artillery taken, and all his people killed, and

now I have put them to flight and gained the city of Gon and all its fleet and cast all the enemy out of it, as your ambassador will relate to you.

"And whereas I have been informed that he is your enemy and makes war upon you, I send you this news, offering to you for employment against him my person and fleet, and the men of the King my Lord, to help to destroy him, and I will be against him whenever you shall require this of me. And if you desire to destroy the Sultan by land, you can reckon upon great assistance from the Armada of the King my Lord by sea, and I believe that with small trouble you must gain the lordship of the city of Cairo, and all his kingdom and dependencies, and thus the King my Lord can give you great help by sea against the Turk, and thus his fleets by sea and you with your great forces and cavalry by land can combine to inflict troublesome injuries upon them.

"And in India he has great fleets wherewith he can help you. And thus you will gather that you ought to desire to obtain alliance and co-operation with so great a king as is the King my Lord by sea and by land, and you ought to send him your ambassadors, for he will be very glad to see any one who is competent to give an account of your kingdoms and your dependencies. And if God grant that this intercourse and alliance be ratified, come you with all your power against the city of Cairo and the lands of the Grand Sultan which are on the borders of your own, and the King my Lord shall pass over to Jerusalem and gain from him all the land on that side. And for the sake of correct information with respect to your intentions in this matter, it is befitting that you should send your messengers, and through them get a reply from the King my Lord, and meanwhile let me be advised of what you wish me to do, or in what quarter the fleet of the King my Lord can proceed and inflict most injury upon the Sultan for your service."

ترجمة الرسالة الى العربية

السيد العظيم جدا ذو القوة والسلطة بين المسلمين الشيخ *xeque* الشاه، إسماعيل:
أفونسو دي البوكيرك القائد العام وحاكم الهند باسم الملك دون امانويل ذي المقام السامي
جداً والقوي جدا ومالك أنجاء مختلفة: ففي إفريقيا هو سيد غينيا، وهو سيد الفتوح
والملاحة والتجارة في اثيوبيا وفي شبه الجزيرة العربية *Arabia* وفارس والهند، وهو سيد
مملكة هرمز ومملكة غوا. أريد أن تعرف أنني لما استوليت على غوا المدينة والمملكة
وجدت فيها سفيرك فأظهرت له من مظاهر التكريم الشيء الكثير وعاملته كسفير ملك
عظيم وسيد كبير ونظرت في كل الأمور التي عرضها عليّ توّاً كما لو كان قد أرسل
لهذه الأنحاء لملك البرتغال.

وحيث أنني أخبرتك أن سيدي ملك البرتغال سيكون مسروراً بالتّفاهم والتّشاور معكم والدخول معكم في أمور مشتركة لذا فقد أرسلت لك هذا المبعوث الحالي الذي ستزليه اهتماماً لكل ما سيقوله لك نيابة عني، فهو فارس سيدي الملك وخادمك وهو رجل متمرس في الأمور العسكرية، نشأ في أحضان السّلاح وفقاً للنسق البرتغالي وهو رجل كفء لأن يحكي عن كل أمور البرتغال.

وستُحاط علمًا بشكل جيد كيف حصلت على هرمز: المدينة والمملكة بناءً على أمر سيدي الملك، وكيف أنه منذ ذلك الوقت فصاعداً عملت على الحصول على معلومات عن ملككم وقوتكم وقيادتكم، ولرغبت في ارسال مبعوثين Messengers لك، إذا كانت أمور هرمز قد سارت بغير مشكلات وإني أتضرع إلى الله أن تستقر مرة أخرى بسرعة لأنني أتوقع الذهاب إليها بشخصي وهناك سأعمل على الالتقاء بك على سواحل بحر مملكتك وفي موانئها لأنّ الصلاحيات التي خولني بها سيدي الملك على السفن والبحارة إنّما هي لتدمير سفن السلطان وإخراجها إن كانت نيته (أي السلطان) معقودة على دخول الهند والتمركز فيها- وتلك هي المهمة التي نفذناها بعون الله، فقد هزمنا قائد السلطان - الأمير حسن Mir ocem- ودمرنا أسطوله في ديو Diu واستولينا على سفنه ومدافعه،

وقتلنا كل رجاله، والآن فإنني أجبرتهم على الفرار واستوليت على مدينة غوا وكل أسطوله وطردت منها الأعداء، وهو الأمر الذي سيسرده عليك سفيرك.

وحيث أنني أخبرت أن السلطان عدوك ويشنّ الحرب ضدّك، فقد أرسلت إليك الأخبار عارضاً عليك ان أكون أنا وأسطولي ورجالي سيدي الملك ضدّه لندمره وسأشنّ الحرب ضدّه عندما تطلب مني، وإن رغبت في تدمير السلطان في معركة برية فيمكنك الاعتماد على المساعدات العسكرية الكبرى التي تأتيك من أرمادا *Armada* سيدي الملك بحراً.

وإني أعتقد أنّه - بمتاعب قليلة- يمكن لسموكم ان تستولوا على القاهرة وكل المملكة (السلطنة) والمناطق التابعة لها، ولتحقيق هذا الهدف يمكن لسيدي ملك البرتغال أن يزودك بمساعدات ضد الترك *Turks* بحراً وبذلك - أي الأسطول البرتغالي بحراً وبقواتك العظيم وفرسانك برّاً- يمكن أن نوحّد جهودنا لتسديد ضربات موجعة لهم وإلحاق الضرر بهم. وفي الهند يمتلك (أي ملك البرتغال) أسطولاً عظيماً يمكنه مساعدتك، وهذا يجعلك تدرك أن يجب أن تكون راغباً في التحالف والتعاون مع ملك عظيم جداً كسيدي الملك البرتغالي تحالفاً وتعاوناً في البر والبحر. ويجب أن ترسل له سفراء من عندك لأنّه سيكون سعيداً لرؤية واحد منهم، يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بتعريفه بمملكته وتوابعها. وإن أراد الله لهذا التعاون والتحالف أن يتمّ فلنتنقّض بكل قواتك على القاهرة وبلاد السلطان الكبير التي لها حدود مشتركة معك، وسيأتي سيدي الملك البرتغالي إلى القدس ويستولي منه على كل الأراضي في هذه الأنحاء، ولكي تتوافر المعلومات الصحيحة عن مقاصدك في هذا الأمر فإنّه من المناسب أن ترسل مبعوثين وعن طريقهم سيجيبك سيدي الملك. وفي هذه الأثناء دعني أعرف مل ترغب مني عمله أو أية جهة يمكن لأسطول الملك البرتغالي أن يتجه لإلحاق أكبر ضرر بالسلطان، وذلك خدمة لك.

الملحق رقم "7": رسالة بعث بها حاكم موزمبيق إلى ملك البرتغال دون إمانويل 1517

Jao De Sousa, *Documentos Arabico para historia portugueza*

Lisboa, Portugal, 1790, pp 85, 86)

*Do Xarife Mabomed Elalui de Moçambique, escrita
a ElRey D. Manoel.*

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا الكتاب صادر من
الشریف محمد ساكن
مسبج الي سبدي وملجاي
معتمدي واماني سلطان
البرتغال خير اهل
الارض كلها من المشرق
الي المغرب ومالكها عامر
اهل برتغال وجامع
الخلف والاموال مالك
عصرنا كل من ادني اليه
نال وكسب ومن
اجتنب عنه شقي وخسر
احسانه واصلت الي
كل مكان هو ركن
احباء وهادم اعداء
من اطاعه شكر وحمد
ومن خالفه ندم وتلف
اعزه الله تعالى امين
فالمطلوب من فضلك
باسبدي بان لا تنسي
ان ترسل لي كتابا
وبه تاءمني من سطوة

EM nome de Deos Clemente, e Misericordioso. Esta Carta he do Xarife Mahomed Elalui morador em Moçambique,

A meu Senhor, meu arrimo, meu refugio, e minha fegurança; Rei de Portugal, bondade do mundo. Senhor do Universo desde o Oriente até o Occidente; povoador do Reino de Portugal, e congregador das gentes, e riquezas. Soberano do nosso tempo; quem a elle se chega terá proveito, e quem delle se afasta terá perda. Seus beneficios chegam a toda a parte; elle he o arrimo de seus amigos, e destruidor de seus inimigos. Seus obediētes agradecem, e louvāo; seus desobedientes exesperāo, e perdem: ao qual Deos enche de gloria.

Meu Senhor, o que peço a vossa beneficencia he, que vos não esqueçaes de me mandar a Carta que já vos pedi, pela qual me

segureis da invasão , e hostilidade da vossa gente no Estado da India , e que possa livremente navegar em hum navio meu com toda a segurança, sem que ninguém me violente nem faça damno algum. Esta he a graça que vos peço , e por ella serei exaltado entre os Muslemanos , e vos ficarei agradecido todos os dias , e noutes da minha vida.

وعداوة ناسك الذبىن في
ارض الهند لا قدر اسافر في
مركبي بلا خوف وبكل
امان من غير ما
ينازعني احد ولا يغضبني
بشي ولا ياءدني البتة
وهذه النعمة المطلوبة منك
تكون لي رفعة بين جميع
المسلمين وابقي حامدا لك
وبلا ونهـ اارا في كل
حياتي *

Foi escrita a 25 de Rabie de 923;
corresponde aos 27 de Maio 1517.

في ٢٥ من رجب سنة ٩٢٣
الهجرة ٥

A El Rei D. Manoel.

إلى السلطان دون منوبل *

[illegible]

ترجمة خطاب سلمان رايس

بعد الدعاء أرجو منكم ألا تجعلوا ما طلبناه منكم في طي النسيان وألا تنسونا وبعد أن عرضنا على حضراتكم هذا، فلتأتي إلى ذاتكم القوية على وجه السرعة، وهذه هي غاية عبدكم الذليل، وأعظم أمنية يحظى بها خادمكم الداعي لكم باستمرار، وأني أقبل تراب قدمكم الطاهر، ومن أجل تطبيق الأمر، فلقد أرسلنا إلى عتبة الدولة الشخص المسمى سلمان رئيس، مخبراً بأحوالنا على هذا الوجه، وقد خرج مسافراً في اليوم الحادي والعشرين من ربيع الأول المبارك جاء من أرض الحرب إلى الميناء في جده وأورد أخباراً على هذا النحو: حضرت أمس ووقت العصر 32 سفينة، وأرادوا الدخول إلى الميناء، وعندما حل المساء كادوا يقتربون من الساحل على وجه السرعة، ودخلوا إلى أماكن فسيحة جداً يستطلعون الأخبار. وقبل هذا وصلت سفن أسطول الشخص المسمى تركي يوسف والمكون من خمس وعشرين قطعة، وفي اليوم الثاني أرسلوا إلى الشريف أبو البركات أولاً مكتوب على الورق، وعندما رأى سفنهم لاذ الشريف أبو البركات بالهرب من جده وفر إلى الخارج، ووصل إلى رؤوس الجبل العالي، وأن ما فعله هذا ليس جيداً، وأسلمكم جده إلى أخيه وإلى أفراد آخرين أو أشخاص آخرين كانوا هناك بمقتضى مرسوم شريف من السلطان.

وعندما وصل المرسوم الشريف السلطاني إلى الشريف نصب الأمير حسين أميراً على جده، وأخذ كل أمواله وأغرقه في البحر.

وأخذ من أمير المدينة ألفين أشرفي، ونصب أشخاصاً آخرين مرة أخرى وأخذ من أحدهم ألف أشرفي ومن الآخر خمسمائة أشرفي أخرى.

والحاصل أننا نتمنى أن ينعم أفراد الشعب بالأمن والطمأنينة في ظل الدولة. لقد استغاث بنا المسلمون، وأرادوا المساعدة من سلطاننا المعظم الذي لا يقر هذا الظلم، وإن القانون العثماني أيضاً لا يقبل هذا، رغم أن هذا الكلام قد جاء متأخراً ولكن فاضت به القريحة.

والآن يوجد في معيتنا ستمائة من المغاربة والبحارة العثمانيين وهذا عدد قليل جداً، ومما هو معلوم أن هذا البلد في حالة يرثى لها. فقبل أن يأتي هذا الكافر الملعون كانوا يبيعون قرية القمح بعشرين أشوفياً، وعندما علم بهذا الخبر، ارتفع إلى ثلاثين وأربعين وأخذ يرتفع يوماً بعد يوم. حتى أنتشر على ألسنة الشعب أنه وصل إلى مائة أشرفي. وأن هذا قد حدث بحكمة الله، إذ هبت ريح عاصفة على الميناء وجاءت إلى باب المنذب سفن الكفار بخمس وأربعين سفينة

السطور المسجلة على جانب الوثيقة فهي تقول:

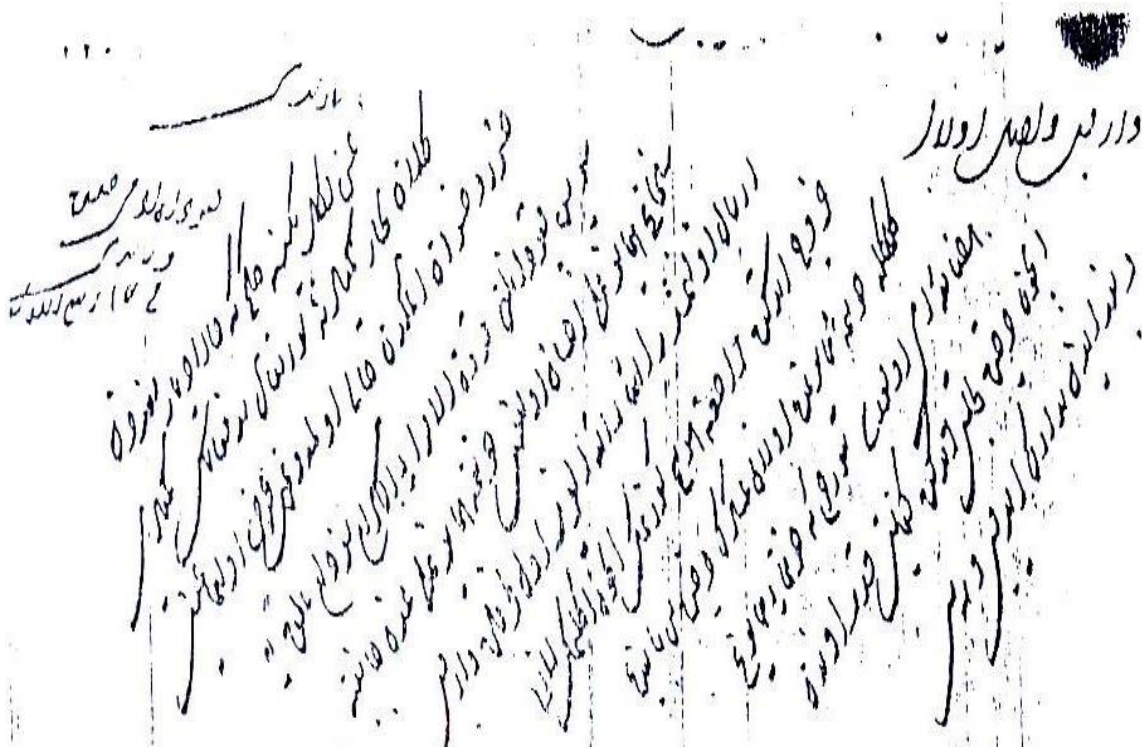
لقد كتبنا هذا الخطاب عندما أتى الكفرة هذا اليوم وغداً، بتاريخ السادس والعشرين من ربيع الأول وقد جاءوا بثلاثين سفينة ورسّت في ميناء جده، وأحرقت فيا ليوم الذي جاءت فيه أربعة سفن والقطع الأخرى المتخلفة وقواربهما و سفنهم الحربية الستة، وأحدهما كان لشاهي و أحدهم اليوسف التركي والآخر لحسين بك، وظلوا في عدن أربعة أيام كما أخذت خمسون سفينة أخرى من أمام ميناء عدن، وكما يعرف سلطان الدولة المعظم أننا تحمّسنا و دافعنا عن الميناء، ولكن أطلقوا علينا المدافع وأجبرونا على الخروج إلى الميناء، ولم نعرف أين نذهب أو نجئ،حتى جاء إلينا شخص كان محبوسا عندهم، وقال أن الكافر قد أتى من الهند إلى حاكم عدن فأكرمه وقال له اذهب إلى جده،واستولى عليها فإنها فارغة الآن، وأرسل معه أربعة مرشدين وجاءوا إلى الميناء.

الملحق رقم "9": أمر من السلطان العثماني إلى أمير اليمن بتعيين أوزدمير باشا والياً على إمارة الحبش وسواكن (نقلًا عن الأرشيف العثماني مهمة دفترتي، نقلًا عن محمد محمود خليل، وثائق بحرية عن قابودان السويس، ص ص 141-142-143)

و رتب عن ماله طهون زكركم، زارو دهلكم ففقت رالهم لعلهم
سما من اولهم موثر الله طهون زكركم، زارو دهلكم ففقت رالهم لعلهم
و رتب عن ماله طهون زكركم، زارو دهلكم ففقت رالهم لعلهم

بناءً على تكليف أوزدمير باشا بولاية الحبش براتب سنوي قدره مليون وأربعمائة ألف أقجة، عليك أن توجه المشار إليه إلى سواكن وأن تكلفه بإدارتها، يبلغ إيراد سواكن خمسة عشر كيساً، يومياً.

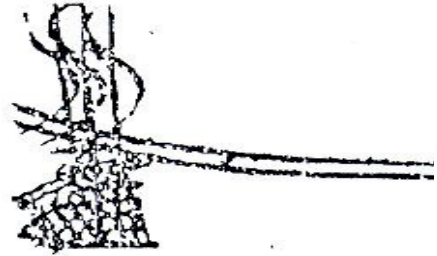
الملحق رقم "10": رسالة من السلطان العثماني سليمان القانوني إلى أمير اليمن وترجمتها.
(نقلًا عن الأرشيف العثماني مهمة دفتري، نقلًا عن محمد محمود خليل، وثائق بحرية
عن قابودان السويس، ص 84)



الترجمة

بناء على العرض المرفوع والذي جاء فيه: أن سفن البرتغاليين الدناة الأفعال
لم تتوقف عن إلحاق لضرر والخسائر بسفن التجار المسلمين الآتية من بحر الهند،
كلف قدوة الأمراء الكرام "سفر" دام علوه- الذي أحسن عليه بوظيفة قبودان السويس
الحالي بالتوجه لجانب عدن، وإن الله سوف يصل إلى تلك النواحي، وأثناء الإبحار
سوف يكون المكث لازماً من أجل انتظار هبوب الرياح. فلو واجه عسكر الأسطول
الهمايوني أزمة بخصوص المؤن والذخائر، أمرت بالآتي: عندما يصلك حكمي، عليك
تجهيز مقدار كاف من القمح والمؤن لعسكر الأسطول، وتعطيها لهم وقتما يطلبون،
ولا تجعلهم يعانون أزمة الذخائر

الملحق رقم "11": الرسالة التي بعث بها السلطان العثماني سليمان القانوني إلى ملك البرتغال دوم جوان وترجمتها (نقلاً عن الأرشيف العثماني مهمة دفتري، نقلاً عن محمد محمود خليل، وثائق بحرية عن قابودان السويس، ص 243)



مردمان اولاد اسلامیه بودند که از آنجا که در آن زمان در آنجا سکونت داشتند و در آنجا دفن شدند.

[illegible]

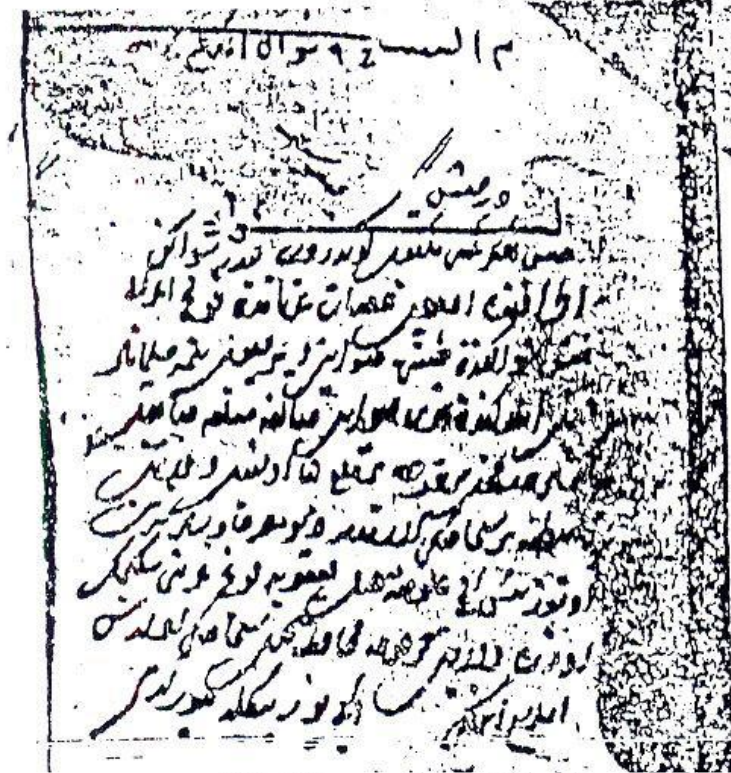
ترجمة الرسالة الى العربية

" قدوة الأمراء العظام العيسوية أسوة كبراء الفهام في ملة المسيحية مصلح المصالح جماهير الطائفة النصرانية صاحب أذبال الحشمة والوقار صاحب دلائل المجد والإفتخار ملك البرتغال دوم جاو الثالث (D.Joao) ختمت عواقبه بالخير -التوقيع الرفيع الهمايون. أن ما أرسلتموه إلينا والذي تطلبون صداقتنا محبة فخامتنا بيد سفيركم الأقدم داوارد قتانو (Duarte Catanho) وعلى أي وجه كان بالنسبة لي فقد كنت جاوبت ما تطلبونه مفصلا وقد أرسلته إليكم بواسطة سفيركم ديكو مشنك (Diogode Mesquit) يعلمنا قبول أحكام وبعد ذلك جاءنا أيضا سفيركم والشروط التي كانت قد أرسلت مع سفير (داوارد قتانو) وأن بعض الشروط التي كنتم ترضون بها فقد قبل والقسم الذي لم تكن ترضونها فإنها لمتقبل عندما أعدنا النظر إليها . وكل شيء قبلناه قد كتبناه وأرسلناه لكم مع سفيركم وإذا أقيمت بيننا الصداقة بهذه الشروط التي وافقنا عليها تبعثون سفيركم المعتمد لديكم وقد بعثتم سفيركما (داوارد قتانو) الموجود حاليا لدينا قد أعلن شروطكم التي رددتموها مرارا. ولكن هذه الشروط قد أدلى بها سفيركم السابق أيضا. ولكن لم تقبل في حين هو الآن لمتقبل أيضا إذا كنتم قد أرسلتم سابقاً بمقتضى الأحكام الشريفة بقصد الصداقة فأعلمونا بها وفي حالة عدم قصد الصداقة فأعلمونا بها أيضا حتى نتدارك الوضع فيما يدعو ذلك في الجانب الهندي. ولا تطلبوا ذهاب سفيركم وقد تبلغنا بذلك راجين علمكم."

تحرر في أول من شهر شعبان المعزز في الشهور سنة إحدى وخمسين وتسعمائة.

مقام القسطنطينية المحروسة

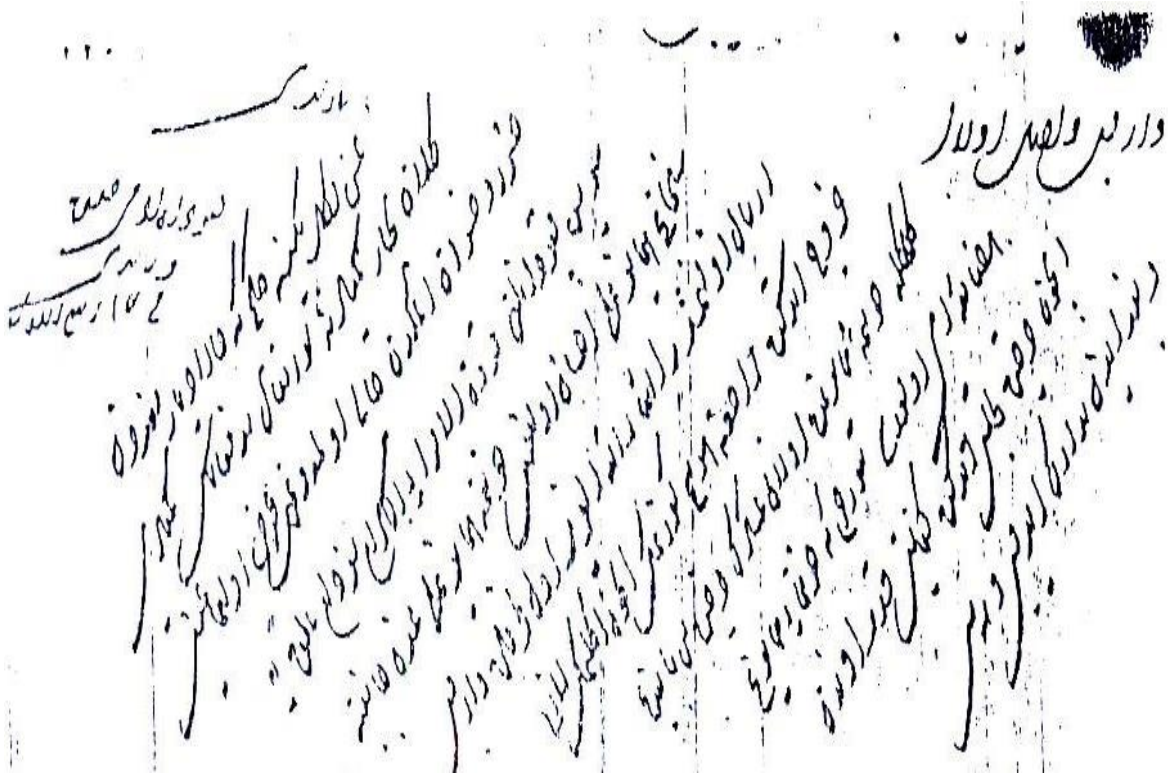
الملحق رقم 12¹: رسالة من السلطان العثماني إلى حاكم 21 اليمن ماي 1564م وترجمتها (نقلًا عن الأرشيف العثماني مهمة دفترى، نقلًا عن محمد محمود خليل، وثائق بحرية عن قابودان السويس، ص 136)



الترجمة

" أرسل رئيس بكوات الأحباش رسالة بأن عربان الفونج المتمردين الموجودين في نواحي ميناء سواكن قد قطعوا المياه من خارج سواكن نفسها علاوة على أنهم قاموا بقتل عدد كبير من المسلمين فقد كانوا يبيعون الماء نظير مبلغ باهظ مبالغ فيه، ولقد رحل هؤلاء عن البلاد، ولقد تم بناء قلعة في الأماكن المذكورة ولأن تهدة العربان الفونج موكولة إلى يعقوب متصرف مصر، فالآن يجب تعيين رئيساً للسنجق للحفاظ على الولاية المذكورة، لقد أمر تبصر فمبلغ 200000 أجنبية".

الملحق رقم "13": رسالة من السلطان العثماني سليمان القانوني إلى أمير اليمن وترجمتها (نقلًا عن الأرشفة العثمانية مهمة دفترية، نقلًا عن محمد محمود خليل، وثائق بحرية عن قابودان السويس، ص 86)



الترجمة

"بناء على العرض المرفوع والذي جاء فيه: أن سفن البرتغاليين الدناة الأفعال لم تتوقف عن إلحاق ضرر والخسائر بسفن التجار المسلمين الآتية من بحر الهند، كلف قدوة الأمراء الكرام "سفر" دام علوه- الذي أحسن عليه بوظيفة قبودان السويس الحالي بالتوجه لجانب عدن، وإن الله سوف يصل إلى تلك النواحي، وأثناء الإبحار سوف يكون المكث لازماً من أجل انتظار هبوب الرياح. فلو واجه عسكر الأسطول الهمايوني أزمة بخصوص المؤن والذخائر، أمرت بالآتي: عندما يصلك حكمي، عليك تجهيز مقدار كاف من القمح والمؤن لعسكر الأسطول، وتعطيها لهم وقتما يطلبون، ولا تجعلهم يعانون أزمة الذخائر"

البیبلیو غرافیا

1- القرآن الكريم

- سورة البقرة، الآية 256

2 - الوثائق الأرشيفية

أ. الوثائق بالعربية

1. خليل محمد محمود، وثائق بحرية عن قابودان السويس والدور العثماني في مواجهة البرتغاليين (الخليج العربي - الجزيرة العربية - ولاية الحبش - المحيط الهندي - المغرب العربي)، د. م. ن، د. ت، ج1.

ب. الوثائق باللغات الأجنبية

1. Jao De Sousa : *Documentos Arabico pa a historia portugueza copiados dos originale*, interprete de Sua Magastade para a lingua arabica, Na officina da academia real das sciencias Lisboa, Portugal, 1790.

2. عبد الله الشيخ (عبد الرحمان)، ثلاث وثائق برتغالية عن خطة للاستيلاء العالم العربي في مطلع القرن 16م، "الخطاب الذي أرسله ألفونسو دي البوكيرك Ruy Gomez إلى الشاه إسماعيل الصفوي عام 1510م"، عالم المخطوطات والنوادر، العدد الأول، مج: 5، محرم - جمادى الثانية 1421هـ / أبريل - سبتمبر 2000م، ص 258-274.

3- المصادر العربية والمعرّبة

أ. المصادر العربية

1. الإشبيلي (علي بن محمد اللّخمي)، الدر المصان في سيرة المظفر سليم خان، تحقيق هانس آرنست، دار إحياء الكتب العربية، جمهورية مصر العربية 1962م.

2. ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفي)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق مصطفى محمد، الهيئة المصرية للكتاب، ط 3، القاهرة 1404هـ / 1984م، ج 3.
3. بافقيه (محمد بن عمر)، تاريخ الشجر وأخبار القرن العاشر، تح: محمد عبد الله الحبشي، مكتبة الإرشاد صنعاء، د ت ن.
4. بامخزما الهجراني الحضرموتي الشافعي (أبي الطيب محمد بن عبد الله بن أحمد بن علي)، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، دار المنهاج للنشر والتوزيع، جدة 1428هـ / 2008م، مج 6.
5. ابن بديع (عبد الرحمان بن علي)، قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق وتعليق محمد بن علي الأكوع، سلسلة من تراثنا، ع10، المكتبة الحوالية، صنعاء اليمن 1988.
6. البكري الصديقي (محمد بن أبي السرور)، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 1426هـ / 2005م.
7. المنح الرحمانية في الدولة العثمانية وذيله الطائف الربانية على المنح الرحمانية، تح: ليلي الصباغ، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق 1995م.
8. ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، تقديم محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 1992، ج 7.
9. التونسي (محمد بن عمر)، تشحيز الأذهان ببلاد العرب والسودان، تح: خليل محمود عساكر ومصطفى محمد مسعد، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1965.
10. حاجي خليفة، تاريخ ملوك آل عثمان، تح وتقديم سيد محمد السيد، جامعة جنوب الوادي، سوهاج، جمهورية مصر العربية، د ت ش.

11. الحلبي (محمد بن محمود)، **العراك بين المماليك والعثمانيين**، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق 1406هـ / 1986م.
12. الحميري (محمد بن عبد المنعم)، **تح: إحسان عباس، الروض المعطار في خبر الأقطار**، ط2، مطبعة لبنان، بيروت 1984.
13. الحنفي أحمد، **الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان**، المطبعة الأميرية، بولاق جمهورية مصر العربية 1321هـ.
14. ابن حوقل النصيبي (أبي القاسم)، **صورة الأرض**، دار صادر، بيروت 1979، ج1.
15. ابن زنبيل الرمال، **آخرة المماليك**، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية للكتاب 1998.
16. السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمان)، **التبر المسبوك في ذيل الملوك**، **تح: نجوى مصطفى كامل، لبيبة إبراهيم مصطفى**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 1423هـ/2002م، مج1.
17. الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)، **الملل والنحل**، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت 1413هـ/1992م.
18. الشيباني الزبيدي (أبي الضياء عبد الرحمان بن علي الربيع)، **قرة العيون بأخبار اليمن الميمون**، تحقيق محمد الأكوع الحوالي، ط2، مكتبة أبي ذر الغفاري، صنعاء، اليمن 1409هـ/1988م.
19. الصوفي (عبد الله بن مصبح)، **السلوة في أخبار كلوة**، تحقيق الصليبي محمد علي، سلطنة عمان 1405هـ/1985م.
20. ابن طولون (شمس الدين بن محمد بن علي بن أحمد)، **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، دار الكتب العلمية، لبنان 1418هـ/1998م.

21. العبدلي (أحمد بن فضل بن علي بن محسن)، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، المطبعة السلفية ومكتبتها، اليمن 1351هـ.
22. عرب فقيه (شهاب الدين احمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان)، فتوح الحبشة، د ن ش، 1894.
23. ابن عماد شهاب الدين (أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمد الأرناؤوط، دار ابن الكثير، بيروت 1414هـ / 1993م.
24. العمري (شهاب الدين احمد بن يحيى ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة احمد عباس، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي 1423هـ / 2002م، ج 4.
25. العيدروسي (عبد القادر بن الشيخ عبد الله الحسيني الخضرمي اليمني الهندي)، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تح: أحمد حالو، محمود الارناؤوط، أكرم البوشي، دار صادر، بيروت 2001م.
26. أبي الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تعليق محمد فهمي محمد، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ / 1992م.
27. أبي الفدا (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت 1830.
28. القلقشندي (أبو العباس أحمد، صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة 1333هـ / 1915م، ج 5، ج 6، ج 8.
29. ابن لطف الله (شرف الدين عيسى)، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من فتح الفتوح، تح: إبراهيم بن احمد المقحفي، مركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، اليمن 2003.

30. محمد اليمني الشيلي، السّناء الباهر بتكميل النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تح: إبراهيم بن أحمد المقحفي، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الجمهورية اليمنية 1424هـ / 2005م.
31. المغيري (سعيد بن علي)، جبهة الأخبار في تاريخ زنجبار، المطابع العالمية، روى، سلطنة عمان 1415هـ / 1995م، ج2.
32. المقرئزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر العبيدي)، الإمام لأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، تح وت: عبد النعيم ضيفي عثمان عبد النعيم، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة 2006
33.، السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1418هـ / 1997م.
34.، رسائل المقرئزي، تحقيق رمضان بدري وأحمد مصطفى قاسم، دار الحديث، القاهرة 1419هـ / 1998م.
35. الموزعي اليمني (شمس الدين عبد الصمد بن إسماعيل)، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت عدالة آل عثمان، تح: عبد الله محمد الحبشي، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت 1407هـ / 1986م.
36. الميلباري المعبري (أحمد زين الدين)، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تح: محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء بيروت 1405هـ / 1985م.
37. النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد المكي)، البرق اليمني في الفتح العثماني (917 - 990هـ)، تح: محمد الجاسر، منشورات دار الإمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض 1387هـ / 1967م.
38. ابن هشام (أبي محمد بن مالك)، سيرة الإمام بن هشام، تعليق محمد سيد طهطاوي، المطبعة الخيرية 1329هـ، ج1.

39. يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي، غاية الأمانى في أخبار القطر اليماني، تح: سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1388هـ / 1968م.

ب - المصادر المُعرّبة

1. أوليا جلبي، الرحلة إلى مصر والسودان الحبشة، تر: حسين مجيب المصري وآخرون، دار الآفاق العربية، القاهرة 2000م، مج2.
2. حاجي خليفة، تحفة الكبار في أسفار البحار، تحقيق وترجمة محمد حرب، تنسيق حرب، دار البشير للثقافة والعلوم، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة 1438هـ / 2017م.
3. دوارتي بربروسا، تاريخ البرتغاليين في الخليج (مذكرات دوارتي بربروسا 1515م - جون هيو فان لينخوتن 1578م - تشارلز بوكسر في المنافسة الانجلو برتغالية في الخليج 1615 - 1635)، تر: عيسى أمين، مؤسسة الأيام الصحافة والطباعة ولتشر والتوزيع، المنامة البحرين 1997.
4. ابن ماجد أحمد، ثلاثة أزهار في معرفة البحار، تح: توموفسكي، تر: محمد منير مرسي، عالم الكتب، القاهرة 1969.
5. مارمول كاربخال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1984، ج3.
6. الميسيو جيان، وثائق تاريخية وجغرافية عن شرق إفريقيا، تر: وتلخيص يوسف كمال، مطبعة القاهرة 1345هـ / 1927م.

-4 المصادر الأجنبية

1. De Gama Vasco, ***A journal of The First voyage of Vasco Dagama (1497 – 1499)***, traduit par E.G Ravenstein, The East African Coast (Select Documents), Edited by Freeman & Grenville, London1962.
2. Duarte barbosa, ***A discription of the coasts of east Africa and malabar***, translated into english by the hon. henry E.J. Stanlay, printed for the hakluyte societe, London.
3., ***The book of duaret barbosa*** ,vol 1, secoond serie, printed for the Hakluyt society, London, 1918
4. Edward Alpers, ***Ivory and slaves in East Africa***, Champing patterns of International Trade to the later nineteen the Century, Heinemann, London 1975.
5. Father fransisco Alvares, ***Narrative of the portuguese embassy to abbyssinia during the years (1520 – 1527)***, translated from the portuguese Lord stanley of alderley, printed for the hakluyte society, London1881.
6. Frederick charlse Danvers, ***The Poruguese in India, wiman and sons printed***, vol2, London1894.
7. Hammer Joseph Von, ***Histoire de l'empire ottoman depuis son origine jusqu'à nos jours***, traduit de l'Allemand par J.JHelert, T4, de imprimerie Renri dupuy, Paris.S.D.
8. Inonime, ***The voyage of piedro Alvares Cabrale to India***, trenslated with introduction by wiliam brooks greentlee, printed for the hakluyte society, London,1937.
9. J.SpencerTrimingham ,***Islam in ethiopia***, oxford université press Amen house, London1952.

5- الرسائل الجامعية

أ- الرسائل الجامعية العربية

1. الأرقط عبد الحميد، أوضاع الدولة الصفوية وعلاقاتها الخارجية في عهد الشاه عباس الأول (996- 1038هـ/1588-1625م)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة حمة لخضر، الوادي، الجزائر (2014-2015م).
2. الأسطل رياض محمد، الصراع الإسلامي البرتغالي وأثره في حركة التجارة الدولية 1500-1730م / 906 - 1143هـ، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، قسم الحضارة الإسلامية ومقارنة الأديان، جامعة السند، باكستان 1412هـ / 1991م.
3. بابكور عمر سالم، حزام الأمن العثماني حول الحرمين الشريفين، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الحديث، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية 1407هـ / 1987م.
4. بن خيرة أحمد، الصراع الإسلامي الزييلي والمسيحي الحبشي من قيام الأسرة السلিমانيّة إلى التدخل البرتغالي، خلفياته، تجلياته، وأبعاده (669-966هـ/ 1270- 1559م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة الجزائر 2، أبو القاسم سعد الله، الجزائر 2018.
5. بن قומר جلول، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا - البرتغال - إسبانيا - فرنسا - (986هـ - 1578م / 1012هـ - 1603م)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، المركز الجامعي بغرداية، 2010-2011م.
6. بوحسون عبد القادر، الأندلس في عهد بني الأحمر، دراسة تاريخية وثائقية، (635هـ - 897هـ / 1238م - 1492م)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة أي بكر بلقايد (تلمسان) 2012/2013.

7. بوسليمان عبد الرحمان، الإستعمار الألماني في شرق إفريقيا (1885-1914م)، مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة الجزائر "2"، 2017 / 2018.
8. دحدح عبد الحفيظ، العلاقات العثمانية الصفوية خلال القرن 16م، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة الجزائر2، أبو القاسم سعد الله 2015.
9. دلة لمياء توفيق، الأندلس الإسلامية بين ملوك الطوائف ودولة المرابطين (478هـ-1085/541هـ-1147م) رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة بيروت 2015
10. رضوان نبيل عبد الحي، جهود العثمانيين للحد من التهديد البرتغالي للنشاط التجاري في الخليج العربي من خلال الوثائق العثمانية (945 / 967 هـ - 1538 هـ / 2559م)، رسالة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، د. ت. ش.
11. زامل أيمن بن حسن بن عبد الله، موقف العثمانيين من الأطماع البرتغالية في المشرق الإفريقي خلال القرن 10هـ/16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، 1427هـ / 1428م.
12. سعدية سعيد علي البيشي، الجهاد البحري العثماني من خلال معركة ليبانتو، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، أم القرى 1418هـ / 1998م.
13. الصيرفي نوال حمزة، الجهاد الإسلامي في شرق إفريقيا في القرن 10هـ / 16م، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث (غير منشورة)، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الدراسات العليا التاريخية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1407هـ / 1987م.

4. عبد الصمد فاطمة عبد الوهاب عبد الله، الأثر الحضاري للإمارات الإسلامية في كينيا ودورها في حركة الجهاد الإسلامي ضد البرتغاليين (911- 1143هـ/ 1505 - 1730م)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم 2019.

15. فوزي توفيق حسن، رؤية الوثائق والمصادر التركية للصراع العثماني الصفوي في عهد بايزيد الثاني وسليم الأول، رسالة ماجستير (غير منشورة)، جامعة عين شمس، القاهرة 1986.

16. محمود أنيس عبد الخالق، النشاط البحري العثماني في البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر، أطروحة دكتوراه في فلسفة التاريخ الحديث، (غير منشورة)، جامعة بغداد 1429هـ / 2008م.

ب. الرسائل الجامعية الأجنبية

1. *De jésus Stéphanie, L'image de l'orient dans les récits des voyages portugais au seizième siècle : vers une nouvelle image mythique de l'orient*, thèse doctorat en études ibérique et ibéro-américaine, université bordeaux, Montaigne, France 2014.

2. *Kuru Mehmet, Relations between ottoman corsairs and the imperiale navy in the 16th century*, Master thes is graduate school if arts and social siences, sabanci university, june 2009.

6-المقالات

أ- المقالات العربية

1. أبو منقة محمد الأمين، التراث العربي الإسلامي في شرق إفريقيا وفي غربها دراسة مقارنة، دراسات إفريقية، العدد 34، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم السودان، ذو القعدة 426هـ / ديسمبر 2005م، من ص 43 إلى ص 75.

2. بستان إدريس، "أهمية ترسانة جدة والسويس ومخا في الصراع العثماني البرتغالي بالبحر الأحمر"، بحوث الندوة الدولية حول اليمن في العهد العثماني، من 16 إلى 17 ديسمبر 2009، صنعاء، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية IRCICA اسطنبول 2011، من ص 37 إلى 43.
3. بن حادة عبد الرحيم، "التواجد البرتغالي في المغرب والبحرين"، مجلة الوثيقة، العدد 64، مركز الوثائق التاريخية، مركز عيسى الثقافي، المنامة البحرين، شعبان 1434هـ/ جويلية 2013.
4. بصيلي عبد الجليل الشاطر، الصراع بين الدولة العثمانية وحكومة البرتغال في المحيط الهندي وشرق إفريقيا والبحر الأحمر، المجلة التاريخية المصرية، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة 1964/ 1965 من ص 129 إلى ص 139.
5. بلطجي جاهد، صراع الدولتين العثمانية والبرتغالية في الخليج العربي البصرة والحجاز، مجلة الوثيقة، العدد 15، مركز الوثائق التاريخية، المنامة، البحرين، ذو الحجة 1409/ جويلية، من ص 57 إلى ص 63، 1989.
6. بوشرب أحمد، "مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي"، مجلة الوثيقة، ع: 10، السنة الخامسة، البحرين 1987م، من ص 112 إلى ص 144.
7. حسن أحمد محمود، "التهديد البرتغالي لسواحل جزيرة العرب"، مجلة المؤرخ العربي، العدد 12، مطبعة الرشاد، بغداد 1980م، ص 216 - 230.
8. حنظل فالح، "معارك البحرية العثمانية ضد البحرية البرتغالية في الخليج العربي"، مجلة الوثيقة، ع: 17، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين، ذو الحجة 1410/ يوليو 1990، من ص 27 إلى ص 42.

9. الحلي محمد عبد الحسين عبود، "عدن والمطامع البرتغالية في القرن 16م"، مجلة الوثيقة، ع:15، السنة الثامنة، ذو الحجة 1409هـ/ يوليو 1989م مركز الوثائق التاريخية، مركز عيسى الثقافي، المنامة البحرين، من 150 إلى 158.
10. الحمدي صبري فالح، السياسة الاقتصادية البرتغالية في الخليج العربي وآثارها (1507-1566)، مجلة الوثيقة، مركز الوثائق التاريخية، مركز عيسى الثقافي، المنامة البحرين، ع: 38، 2000.
11. خضير رابعة محمد، من أعلام الجغرافيا البحرية العثمانية (محي الدين بيبي راييس)، مجلة التربية والعلم، العدد4، قسم التاريخ، جامعة الموصل، العراق، مج:16، 2009م، من ص61 إلى ص74.
12. خوري إبراهيم، توسع الدولة العثمانية في الخليج العربي ونتائجه الاقتصادية، ندوة رأس الخيمة التاريخية (الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية من 19 إلى 21 نوفمبر 1988)، مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة، 1422هـ/2001م، من ص189 إلى ص223.
13. دحدح عبد الحفيظ، الصدام العثماني الصفوي في تشالدران (دوافع وآثار)، عن دورية كان التاريخية ع: 25، الكويت سبتمبر 2014م، من ص114 إلى ص120.
14. دغيم محمود السيد، تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية الخليفة العثماني سليم الثاني ابن سليمان القانوني بن سليم الأول سنة 1574، بحوث الندوة الدولية حول الحضارة العربية الإسلامية وعالم البحار، القاهرة 22- 14 جمادى الأولى 1414هـ/ 6- 8 نوفمبر 1993م، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة 1994، من ص379 إلى ص416.
15. سعداني أبو وردة عطية، الصراع العثماني الصفوي ونتائجه السياسية والعسكرية، عن مجلة كلية اللغة العربية بأسبوط 1993، ع: 13، من ص250 إلى 298.

16. شهاب حسن صالح، البحرية العثمانية ومهمة التصدي للمخطط البرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي، ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية (10-12 ربيع الثاني 1409هـ / 19-21 نوفمبر 1988)، رأس الخيمة الإمارات العربية المتحدة 2002، من ص 81 الى ص 123.
17. شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية (41- 904 هـ / 661 - 1498م)، مجلة عالم المعرفة، ع: 151.
18. طرخان إبراهيم علي، الإسلام والممالك الإسلامية في الحبشة في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة 1959، مج: 8، من ص 3 الى ص 38.
19. عبد المعطي حسام، الكارمية في مصر خلال العهد العثماني (913- 1040هـ / 1517-1630م)، مجلة أسطور، ع: 2، جويلية 2011، من ص 88 إلى 118.
20. عبد العال أحمد محمد، "أضواء جديدة على ملاح فاسكو دي غاما"، مجلة الدراسات الإفريقية، ع: 5، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة 1976، من ص 135 إلى ص 165.
21. عبد العزيز نسيبة، الموقف العثماني من التحالف الحبشي البرتغالي (1507م- 1555م)، كلية الآداب قسم التاريخ، جامعة الموصل، Routes Educationale, Volume 6(2), january, 2019, university of mosule, p-p 602- 628.
22. علاوي نسيبة عبد العزيز حاج، "البحار العثماني بيدي راييس حياته وجهاده البحري (1465- 1554)", مجلة التربية والعلم، مج: 16، ع: 4، جامعة الموصل، 1909، من ص 75 إلى ص 91.
23. عرابي عبد الرحمان بن سعد، "الإستراتيجية العثمانية في مواجهة التهديد البرتغالي للحرمين الشريفين وللبحر الأحمر في النصف الأول من القرن 10هـ/ 16م، مجلة

الباحث، ع:2، مج: 6، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر 31/12/2014، من ص 426 إلى ص451.

24. عوض محمد عبد العزيز العربي، "الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية"، مجلة المؤرخ، ع:29، بغداد، العراق 1406هـ/1986م، من ص 17 إلى ص27.

25. فيصل عبد الله أحمد، تقرير سلمان ريس، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، مج:12، ع:48، جامعة الكويت، الكويت1994، من ص116 إلى ص 145.

26. كريم إبراهيم محمد، الحملة العثمانية على عدن(954هـ/1538م)، أسبابها ونتائجها، مجلة مركز بابل للدراسات التاريخية، مج:4، ع:2، من ص390 إلى ص409.

27. المشهداني ياسر عبد الجواد، النفوذ البرتغالي وأثره على الهند الإسلامية (904-929هـ/1498-1514م)، مجلة التربية والعلم، ع:2، جامعة الموصل، العراق، 2007، مج: 14، من ص 25 إلى ص38.

28. هوس أندرو، "الفتح العثماني لمصر عام 1517 وبداية الحرب العالمية للقرن السادس عشر"، تر وتغ: أحمد سالم سالم علي، دورية كان التاريخية، ع:21، سبتمبر 2013، من ص 127 إلى 147.

ب- المقالات الأجنبية

1. Dejanera Selva- couto, *L'expédition portugaise au Bassora en 1551*. in: *comptes rendu des séances de l'académie des inscriptions des belles lettres*, n° 2, 2002 pp 461 – 486

2., *Les négociations diplomatiques entre le Portugal et l'Empire ottoman au 16 siècle*, méthodes en histoire du monde portugais. in: *école pratique des hautes études*, 2000/2001 p p 293- 297.

3., **Document sur les relations diplomatiques entre le Portugal et l'empire ottoman (1541- 1568)**, in : annuaire de l'école pratique des hautes études, 0section des sciences historiques et philologiques méthodes en histoire du monde portugais, Paris (2015-2016) p p 277 – 286– 286.
4. Ferry Robert, **Quelques hypothèses sur les origines des conquêtes musulmanes en Abyssinie au 16^e siècle**, in: cahier d'études Africaines, vol2, n°25,1961, pp24-36.
5. Gsell stéphane, **la découverte de l'Afrique au moyen âge**, in: journal des savants 1926, p 22 – 32.
6. Hirsch bertrand, Francoie-xavier, Fauvelle- aymar, **Aksum après Aksum. Royaute, archéologie et herméneutique chrétienne de Ménélík 2 (1865- 1913) à Zar'a y'qobe (1434-1468)**, in : Annales d'Éthiopie, vol 17, éthiopie, volume17, 2001, pp 59- 109.
7. Önlap Etuğrul, **Hadım süleyman Paşa'nın 1538 yılındaki hindistan seferi**, Otam Ankara üniversitesi osmanlı tarihi Araştırma ve uygulama Merkezi Dergisi, Yıl2008, cilt23, sayı 23, 10/06/2008, ss 195-235.
8. Özbaran Salih, **Ottoman empire and the spice routes in the 16th century**, in: international seminar for Unesco integral study of silk roads: roads of dialogue "the influence of the silk roads in Turkish culture and art, Izmir 30 octobre 1990.
9. Pascuale jean- paul. Baque Grammont (jean louis) et kroell (anne), **Mamlouks, ottoman et portugais en mer rouge, l'affair de Djedda en 1517**. in: R.o.m.m, 1990, n° 55-56 .
10. Rouxpetel Camille, **La figure du prêtre jean : Les mutations d'une prophétie**, in questes, université de, Sorbonne, Paris 4-15 juin 2014, pp 99- 120.
11. Şahin allahvardi Reyhan, **Kızıldeniz'de osmanlı hâkimiyeti Özdemiroğlu osman paşa'nın Habeşistan beylarbeyliği (1561 – 1567)** www the studies of ottoman domain .com, cilt: 3, sayı: 5, ağustos 2013, SS 66-79.

12. vernet Thomas, *slave trade and slavery on the swahili*(1500 – 1750), in *Africa World press*, 2009, pp36-76.

13. Vô vân David, *A-propos du gihâd dans le futuh al- habacha. De la lecture, d'Alfred morabia a la lecture d'arabe- faqih*, in *annales d'ethiopie*, vol 17, année 2001, pp 127 – 139.

7- قائمة المراجع العربية والمُعَرَّبَة

أ. قائمة المراجع العربية

1. أباضة عثمان فارروق، أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط خلال القرن السادس عشر، ط2، دار المعارف، القاهرة 1994.

2. الحكم العثماني لليمن (1872 – 1918)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1986.

3. إبراهيم محمد آمال، الصراع الدولي حول البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، دار الفكر المعاصر، بيروت 1993م.

4. أبو جابر فايز صالح، الإستعمار في جنوب شرق آسيا، دار النشر للنشر والتوزيع، عمان، الأردن 1411هـ/1991م.

5. أبو خليل شوقي، وادي المخازن-معركة الملوك الثلاثة- دار الفكر المعاصر، بيروت، 1409هـ/1988م

6. أبو علي عبد الفتاح حسن، الدولة العثمانية والوطن العربي الكبير، دار المريخ للنشر، الرياض 1429هـ/2008م.

7. أدنيس محمد، الدولة العثمانية والمشرق العربي (1514 – 1914)، دار الجيل للطباعة، الفجالة، مصر، دخ ش.

8. أرسلان شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر، بيروت 1403هـ/1983م.

9. الاسكندري عمر وأ.ج. سفدج، تاريخ مصر إلى الفتح العثماني، ط 2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1416هـ / 1996م.
10. الاسكندري عمر وحسن سليم، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1416هـ / 1996م.
11. البحراوي محمد عبد اللطيف، فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر، مكتبة دار التراث، القاهرة 1979.
12. بديع جمعة والخولي أحمد، تاريخ الصفويين وحضارتهم، دار الرائد العربي، القاهرة 1976.
13. بوشرب أحمد، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، مطبعة النجاح الجديدة، الدرا البيضاء المملكة المغربية 1997م.
14. بيات فاضل مهدي، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني، دار المدار الإسلامي، بيروت 2003.
- 15.....، الدولة العثمانية في المجال العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2007.
16. التّازي عبد الهادي، ابن ماجد والبرتغال، ط3، المطبعة الشرقية، مسقط، سلطنة عمان 1426هـ / 2005م. حبيب شوقي عبد القوي عثمان، التجارة بين مصر وإفريقيا في عهد المماليك، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 2000م.
17. الترماني عبد السلام، الرق ماضيه وحاضره، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت نوفمبر 1979.
18. جرجي زيدان، مصر العثمانية، تحقيق محمد حرب، دار الهلال، الإسكندرية، 1994.
19. جلال يحيى، تاريخ أوروبا في العصور الحديثة، المطبعة العصرية، الإسكندرية 1981م.

20. الجمل شوقي وآخرون، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ط2، دار الزهراء، الرياض 1422هـ/2002م.
21. حبيب شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عهد السيادة الإسلامية المجلس الوطني للثقافة والفنون الآداب، الكويت 1978.
22. الحجاجي إسماعيل مصلح أبو سويد، الحملة البرتغالية على السواحل والجزر اليمنية والصراع الدولي في عهد الدولة الطاهرية، مطابع جامعة صنعاء للطباعة والنشر، صنعاء 1443هـ/2022م.
23. حرب محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة، المركز المصري للدراسات العثمانية والعالم التركي، القاهرة 1414هـ/ 1994م.
24. حسن محمود عبد الرحمان، الإسلام والمسيحية في شرق إفريقيا من القرن 18 إلى القرن 20، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2011.
25. حسين مؤنس، الشجر الأعلى الأندلسي في عهد المرابطين وسقوط سرقوسة في يد النصارى سنة 512هـ/1118، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، 1413هـ/ 1992م.
26. الحلواني سعيد بدير، التاريخ الإفريقي الحديث، دار الكتب المصرية، القاهرة 1999.
27. حمدي سالم، الصومال قديماً وحديثاً، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965.
28. حنظل فالح، العرب والبرتغال في التاريخ (93- 1134هـ / 711-1720م)، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي 1997م.
29. دراج محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512م- 1543م)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر 1433هـ/ 2012م.
30. درورة علي بن إبراهيم، الاحتلال البرتغالي للقنيط (927-978هـ / 1521- 1572)، المجمع الثقافي، أبو ظبي 1422هـ / 2001م.

31. دكتور عرب حسين، تاريخ الفاطميين والزنكيين والأيوبيين والمماليك وحضارتهم، د. ن، ش، بيروت 2010.
32. ريراش أحمد عبد الله، كشف السدول عن تاريخ الصومال والممالك الإسلامية السبعة، د. م. ط، مقديشو الصومال 1972.
33. زاهر رياض، إستعمار إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1384هـ/ 1965 م.
34. الزوبعي بشرى محمود، محاكم التفتيش الإسبانية (1480-1516م)، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د ت ش.
35. الزيدي مفيد، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة 1500-1789م)، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2009، ج2.
36. سالم سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن (1538م-1635)، ط ، دار الأمين للطباعة والنشر، القاهرة، نوفمبر 1999.
37. سبي عثمان، الصراع في حوض البحر الأحمر عبر التاريخ، دار الفجر الجديدة للطباعة والنشر، اريتريا 1974.
38. السداتي أحمد محمود، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب، القاهرة 1377هـ/ 1957م.
39. سرهنك الميلاري إسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1312هـ، ج1.
40. السلطان محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي في الفترة الممتدة بين 1507 و1535م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة 1420هـ / 2000م.
41. سيار جميل، تكوين العرب الحديث، دار الشروق، عمان الأردن 1997.

42. شامي أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن 16م، ط2 مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، الإمارات العربية المتحدة، 2013.
43. شطشاط علي حسن، نهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 2001.
44. شقير نعوم، تاريخ السودان، تحقيق وتقديم، محمد إبراهيم أبو سليم، دار الجيل بيروت 1981.
45. الشناوي عبد العزيز محمد، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مطبعة جامع القاهرة 1980، ج2.
46.، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرق الجزيرة العربية، الدوحة، قطر 1976، ج15.
47. صباغ عباس إسماعيل، تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية، ط2، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1432هـ / 2011م .
48. ضرار محمد صلاح، تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الدار السودانية للكتب، الخرطوم 1401هـ / 1981م.
49. عبد الدايم عبد العزيز محمود، مصر في عصري المماليك والعثمانيين، مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة 1996م.
50. عبد العزيز سليمان نوار وآخرون، التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، مدينة نصر، مصر 1419هـ/ 1999م.
51. عبد العليم أنور، الملاحة وعلوم البحر عند العرب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1979.
52. العبدلي أحمد فضل بن علي محسن، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، المطبعة السلفية ومكنتتها، عدن 1351هـ.

53. العبودي محمد بن ناصر، **جولة في جزائر البحر الزنجي**، المطابع الأهلية للأؤفست، الرياض، المملكة العربية السعودية 1402هـ / 1982م.
54. عصمت راشد زينب، **تاريخ أوروبا الحديث**، دار الفكر العربي، القاهرة. 1986.
55. عطا الله الجمل شوقي وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، **تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة 1996.
56. عميداح محمد فريد السيد حجاج، **صفحات من تاريخ الصومال**، دار المعارف، القاهرة 1983.
57. العيدروس محمد حسن، **سقوط الحكم العثماني في الخليج العربي**، دار المتنبى للطباعة والنشر، الإمارات العربية المتحدة 1997.
58. غالي عودة، **إريتيريا بلاد المسلمين وصراع النفوذ**، دار البشير، عمان الأردن 1409هـ / 1989م.
59. غيث مهندس فتحي، **الإسلام والحبشة عبر التاريخ**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 2001.
60. الفيتوري عطية مخزوم، **دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الإسلام)**، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، الجماهيرية العربية الليبية 1998.
61. رائسي إدريس الناصر، **العلاقات العثمانية الأوروبية في القرن 16م**، دار الهادي، بيروت 2007.
62. الكتاني علي المنتصر، **إنبعاث الإسلام في الأندلس**، دار الكتب العلمية، لبنان 2005.
63. محمد سعد مصطفى، **الإسلام والنوبة في العصور الوسطى**، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 2011.

64. محمود جمال كمال، البحر الأحمر في الاستراتيجية العثمانية (1517-1801)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت 2019م
65. محمود مصطفى نادية وآخرون، العلاقات الدولية في التاريخ الإسلامي، العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة 1417هـ/1996م.
66. مؤلف مجهول، الرهبة الحبشية، نشأتها، تطورها، تأثيرها، قديسوها، مركز الدلتا للطباعة، جمهورية مصر العربية 1998م.
67. النقيرة محمد عبد الله، الكشوف الجغرافية، دوافعها الحقيقية، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ/ 1988 م.
68.، إنتشار الإسلام في شرق إفريقيا ومناهضة الغرب له، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـ / 1982م.
69. النيرب محمود محمد، تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة 1997، ج1.
70. هاو صونيا، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مراجعة محمود النحاس، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة 1957.
71. هريدي محمد عبد اللطيف، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها في انحسار المد الإسلامي عن أوروبا، دار الصحوة للنشر والتوزيع 1408هـ/ 1987م.
72. يوسف أحمد، الإسلام في الحبشة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة 2012.
73. يوسف نصر، الكشوف البرتغالية والأسبانية حول العالم بين الإستعمار والاستغلال، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية 2007.

ب. قائمة المراجع المعربة

1. أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، تر: جمال فاروق - أحمد كمال، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة 1437 هـ / 2014 م.
2. أوزتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح محمد الأنصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، تركيا 1988، ج1.
3.، موسوعة تاريخ الإمبراطورية العثمانية، تر: محمود سلمان، الدار العربية للموسوعات، بيروت 1413 هـ / 2010 م، ج1.
4. إيفانوف نيكولاي، الفتح العثماني للأقطار العربية (1516م-1574م)، تر: يوسف عطا الله، ط2، دار الفرابي، بيروت 2004.
5. إينالجيك خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، تر: محمد الأرنبوط، دار المدار الإسلامي 2002 م.
6. باينيك. ك. م ، آسيا والسيطرة الغربية، تر: عبد العزيز جاويد، دار المعارف، مصر 1962.
7. بوثيل أغوث، كتاب تاريخ إفريقيا العام ، اليونيسكو، الملكس، لبنان 1992، مج: 5.
8. داجنت روجي جوانت، تاريخ البحر الأحمر من موسى حتى بونابارت، تر: حسن نصر الدين، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 2013.
9. زكي محمد أمين، مشاهير الكرد وكردستان في العهد الإسلامي، تر وتح: كريمته، ومراجعة محمد علي عوني، مطبعة السعادة، مصر 1366 هـ / 1947 م، ج1.
10.، مشاهير الكرد وكردستان في العهد الإسلامي، تر: كريمته، مطبعة التقيض الأهلية، بغداد 1364 هـ / 1945 م، ج2.

11. ساماركو انجلو، قناة السويس تاريخها ومشكلاتها وفقاً للوثائق المصرية والأوروبية الغير منشورة، تر: ولاء عفيفي عبد الصمد وآخرون، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة 2015.
12. عزتلو أضاف يوسف، تاريخ سلاطين بني عثمان منذ نشأتهم حتى الآن، تر وتح: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة 1995م
13. كازالي جانكارلو، رياس البحر الهندي - عصر الاستكشاف العثماني، تر: مصطفى. قاسم، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أوت 2018
14. ماكيفيدي كولن، إفريقيا، تر: محمد حجي - محمد زنيبر - عمد الأخضر - أحمد التوفيق - أحمد بن جلون، مكتبة المعارف الرباط، المغرب 1984، ج1.
15.، أطلس التاريخ الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987.
16. مونتران روبيرت، تاريخ الدولة العثمانية، تر: بشير السباعي، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة 1993م، ج1.
17. فلسفي نصر الله، إيران وعلاقاتها الخارجية في العهد الصفوي (606-1148هـ/ 1500-1736 م)، تر: محمد فتحي يوسف الرئيس، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1989م.

8- قائمة المراجع الأجنبية

1. A. filon, *Histoire de l'Europe au 16^e siècle*, vol1, imprimerie de E. Duverger, Paris 1838.
2. Bouchaut Auguste, *Histoire du Portugal et de ses colonies*, librairie de L. hachette et cie., Paris 1854.
3. Hénault Charles jean François, *Abrégé chronologique de l'histoire d'Espagne et de Portugale*, T2, l'imprimerie de Jean thomas hérissant libraire, Paris, 1765.
4. Rudel Christiane, *Le Portugale*, edition karthala, paris 1998.

5. D.maria, da gama, le comte- Amirale, Edition A. roger et F. chernoviz, Paris 1902.
6. De la harpe, *Abrégé de l'histoire générale des voyages*, T1, Hôtel de Thou, Paris, 1779.
7. Diffie Bailey and Wlnius george, *The formation of the portuguese colonial empire*, London 1920.
8. Dument-wilden, *la Belgique illustreé*, Librairie Larousse, Paris 1915.
9. Eward de Septenville, *Découvert et conquête du Portugale*, éditeure, E. dentu, Paris 1863
10. Danvers Fredirique charlse, *the portugaise in india*, V1, wiman and sons printed, London 1894.
11. Delvaux George, *Vasco Degama et les découvertes maritimes des Portugais*, société générale d'imprimerie, Bruxeles 1897.
12. waltaire George, *The formtion of the Portuguese coloniale empire*, published by H.M stotionery office London 1920.
13. Casale Giancarlo, *the ottoman age of exploration*, Oxford university express 2010
14. H.Dujarday, *Voyage, découverte et conquête des portugais en Afrique et en Asie*, T1, imprimeries de cosnier, et lachese, Paris 1839.
15. Mérard Henrie, Marie lour dérat, Thomas vernet et Marie pierre ballarim, *Traites et esclavages en Afrique orientale et dans l'océan indien*, édition kathala et cirex, paris 2013.
16. Shaefer Henrie, *Histoire du Portugal depuis sa séparation de castille jusqu'a nos jours*, traduit de l Allemand par Henri soullance Bodin, édition, Adolphe delahays, PARIS 1958.
17. José carlos de faria e castro, *Lépopéé maritime des portugais*, Bruxelles, Belgique 1898.
18. Lafitau Joseph François, *Histoire des découvertes et conquêtes des portugais dans le nouveau monde*, T1, la

chambre royale des libraire imprimeur de paris, Paris 1732, T1, T2, T3.

19. Panikkar k.m, *Asia and western dominance*, forth edition, great britan, London 1959.

20. Leopold Méry, *Emmanuel, ou la domination portuguese dans les indes orientales au 16^e siècle*, 4^e edition, tours, ad mameyet, c^{ie} imprimeurs- libraires, paris1854.

21. Morié Louis.j, *Histoire de l’Ethiopie) Nubie et Abyssinie : depuis les temps les plus reculées jusqu’à nos jours*), T2 l’Abyssinie, libraire maritime et coloniale, Paris 1904.

22. M.David et B warden, *Histoire de l’empire du brésil depuis la découverte jusqu’a nos jours*, T1, imprimerie De. A Moreau, paris 1832.

23. De la harpe .M, *Abrégé de l’histoire générale des voyages*, hôtel de thou, rue des poitevins, Paris, T1, 1779.

24. Demarlès M, *Histoire de Portugal d’apres la grande histoire de schaffer*, éditeur parent- débarrasse, saint germain Paris1840.

25. M.Em. Le franc, *Histoire d’Espagne et de Portugal*, T2, Jaques lecoffre et c^{ie}, libraires, Paris1846.

26. Guillain M, *Documents sur l’histoire, la géographie et le commerce*, t1, Imprime de M^{me} V^e Bouchard- iluzard, Paris sd.

27. Olévera martins, *Les explorations des portugais a la découverte de l’Amérique*, traduit de l’espagnol par Alexandre boutroue, éditeur, Ernest Leroux, Paris 1893.

28. Gaffaral Paul, *La conquête de l’Afrique*, Librairie hachet, paris1892.

29. Cornevin Robert, *Histoire de l’Afrique*, T2) l’Afrique précoloniale 1500 - 1900), Payot, Paris 1966.

30. Roland Oliver, *History of east Africa*, Clarendon presse, Oxford 1963.

31. Shaw Stand ford, *History of the Ottoman empire and modern Turkey*, volume1 (1280-1808) Cambridge University,

reprinted and band bound by Vaile- Ballou, Press Inc, Binghamton, New York, press 1976.

32. *Standers Justus, The Portugaise in East Africa, EALB, Nairobi 1968.*

33. Sylvain Vignéras et G. angoulvant, *Djibouti, mer rouge, Abyssinie*, librairie africaine et coloniale, Paris 1902.

34. Toussenel Theodore, *Histoire de l'Europe et particulièrement de la France, de 1270 à 1610*, librairie c h. delagarde, Paris 1881.

35. Lavallée Théophile, *Histoire de l'empire ottoman*, Garnier frères libraires éditeurs, Paris 1855.

9. قائمة الموسوعات

أ. قائمة الموسوعات العربية

1. ابن منظور الإفريقي المصري أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم إيران، 1405هـ.
2. الأمين حسن، دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، ط 6، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1422هـ/2001م.
3. الخطاب مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة، بيروت 1996م.
4. نصار حسين محمد ومجموعة من العلماء العرب والمختصين في مختلف المجالات، الموسوعة العربية الميسرة، ط3، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1413هـ/2010م.

5. الزركلي خير الدين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط 15، دار العلم للملايين، بيروت 2002م.
6. زكي أمين، مشاهير الكرد وكردستان، ترجمة كريمته، مطبعة النقيض الأهلية، بغداد 1364هـ / 1945م.
7. العفيفي عبد الحكيم، موسوعة 1000 مدينة إسلامية، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1421هـ / 2000م.
8. الكالي عبد الوهاب وآخرون، الموسوعة السياسية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1985م.
9. ياقوت الحموي (الرومي البغدادي شهاب الدين أبي عبد الله)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت 1397هـ / 1977م.

ب. الموسوعات الأجنبية

1. Dubois Claude et autres, **Le Grand dictionnaire Encyclopedique**, imprimeie de jean didier, lizy,- sur-ourcq-, Paris 1982.
2. **Encyclopedia britanica**, www.britanica.com biographie, تاريخ الإطلاع: 8 نوفمبر 2021.
3. **Encyclopedica britannica**, volume3, printed for john donaldson, London 1824.
4. Francois Albert-Bouison et autres (790auteurs), **Le grand Larousse encyclopédique**, librairie Larousse, T3, paris, 1970.
5. Gàbor Āgoston and Bruce master, **Encyclopedia of the ottoman empire**, NewYork, united states of America, library of congress, 2009.
6. Gregoire Louis, **Dictionnaire encyclopédique d'histoire de biographie et de geographie**, éditeurs Garnier frères, paris, 1874.

7. H.A.R.Gibb Kramers et autres, *Encyclopedie de l'Islame*, T1, edition maisonneuve –laroses s. a. Paris 1975.
8. Açık, Kerim Hamza özaslan, Standart sözlük, **Arapca Türkce**, Fono özel eğitim kurumları ve yayın dağıtım, Istanbul 2011.
9. Kevine shelington, *Encyclopedia of African history*, vol1, an amprint of the taylor Francis groupe, new york 2005.
10. Maureri Louis, *Le grand dictionnaire historique*, T 5, T 6, T 9, imprimeure et libraire ordinaire du roy de l'accademie francaise, Paris1732.
11. Michel mourre et autre, *Dictionnaire Encyclopedique d'histoire*, imprimerie mame a tours et GEA, Paris 1978 .

فهرس الأعلام والأماكن

فهرس الأعلام والأماكن

1- فهرس الأعلام

" أ "

إبراهيم باشا, 34, 185, 189, 190	البابا نيقولا الخامس, 82
أبي البركات, 41	البابا يوليوس الثاني, 83
أبي بكر بن محمد, 134	البرتغاليين, 5, 6, 8, 12, 13, 16, 17,
أجاي, 151	19, 21, 23, 25, 27, 28, 29, 30,
أحمد بن ماجد, 97	31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 41,
إدريس ألوما, 170	46, 47, 56, 57, 58, 59, 63, 65,
أزدمير باشا, 161, 162, 163, 164,	67, 68, 69, 70, 71, 73, 79, 80,
165, 169	82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 90,
أسرة أفيش, 77	91, 92, 93, 95, 96, 99, 103,
إسماعيل الصفوي, 33, 47, 49, 50,	105, 107, 108, 109, 110, 112,
116	118, 121, 122, 123, 125, 128,
أفونسو دي البوكيرك, 24, 34, 55, 50,	130, 139, 144, 145, 146, 147,
34, 37, 47, 50, 51, 58, 70,	148, 149, 150, 154, 155, 157,
105, 106, 110, 112, 113, 115,	158, 160, 161, 162, 163, 169,
116, 117, 175, 226, 235, 250,	172, 173, 176, 177, 179, 180,
288, 289	181, 183, 187, 189, 190, 191,
الأسرة السلليمانيّة, 16, 55, 58, 130	192, 193, 194, 198, 199, 201,
الإمام أحمد بن إبراهيم, 10, 14, 15, 18,	202, 203, 204, 205, 207, 209,
61, 133, 134, 136, 137, 139,	211, 212, 213, 214, 215, 216,
142, 143, 144, 149, 150, 151,	218, 219, 221, 224, 289, 304,
153, 160, 167, 184, 201, 209,	الجراد أبو بن آدشي, 133, 134, 135,
223, 226, 227, 289, 290	137, 289
الإمام محفوظ, 130, 132, 137, 289	الزّيديين, 50, 136, 176, 179, 190,
الأمير جم, 37	195, 199
الأمير مصطفى, 162	السامري, 27, 30, 80, 98
البابا بيوس الثاني, 28	السلطان محمود, 30, 19
البابا مارتن الثاني, 82	الصفويين, 5, 6, 20, 32, 33, 34, 37,
	38, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 68,
	71, 116, 172, 183, 192, 195,
	الطاهريين, 30, 34, 67, 176

المماليك, 4, 5, 6, 13, 17, 18, 19,	العثمانيين, 6, 10, 12, 13, 14, 18,
20, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30,	19, 25, 27, 29, 30, 33, 34, 37,
31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38,	38, 39, 40, 41, 42, 45, 48, 49,
39, 40, 43, 44, 46, 48, 51, 52,	50, 51, 61, 68, 71, 82, 85,
55, 56, 57, 58, 65, 68, 69, 71,	118, 122, 139, 144, 147, 148,
79, 85, 107, 109, 115, 116,	149, 150, 153, 160, 161, 165,
118, 131, 155, 172, 173, 174,	166, 167, 168, 169, 170, 173,
175, 176, 177, 178, 179, 180,	174, 177, 178, 180, 182, 184,
182, 184, 187, 188, 189, 190,	187, 189, 190, 191, 192, 195,
195, 222, 227, 251, 252, 266,	196, 199, 202, 203, 205, 206,
269, 287, 304,	207, 209, 210, 211, 212, 213,
النبهانيين, 70,	214, 215, 217, 221, 290, 291,
الهولنديين, 119, 124,	304,
الوزير عباس, 151, 152, 153, 154,	العُمانيين, 21,
اليمنيين, 53, 68, 138, 177, 198,	ألفنسو هيركز, 76,
إمانويل, 36, 58, 100, 107, 115,	القديس يوحنا, 29, 35, 55, 56, 57,
155, 226, 232,	82, 90, 92, 115, 183, 18,
أندرو دي أفيدو, 159,	المتوكل على الله, 39,
ألفنسو دو بايفا, 92,	المسلمين, 6, 23, 27, 28, 34, 35,
أنطونيو دي سالدانا, 106,	38, 45, 46, 47, 55, 56, 59, 60,
أوزدمير باشا, 161, 162, 163, 164,	64, 65, 74, 75, 76, 79, 82, 83,
165, 166, 184, 226, 243, 290,	84, 85, 88, 90, 96, 97, 101,
أوغلو عثمان باشا, 164,	103, 106, 108, 111, 113, 114,
"ب"	115, 117, 122, 127, 128, 130,
باريساي, 179,	132, 134, 136, 137, 139, 141,
بارثمان دياز, 56, 92, 101,	144, 145, 147, 148, 151, 152,
بارموديز, 158,	153, 154, 155, 156, 157, 165,
بايزيد الثاني, 32, 38, 37, 174, 25,	172, 183, 191, 192, 208, 222,
بحر النجش, 159, 169,	236, 268, 270,
بدر دي كوفيلهام, 92, 56,	146, 150, 152, 156, 157, 168,
بطريق, 55, 142,	170, 180, 181, 183, 185, 189,
	195, 224, 287,
	المسيحيين, 28, 35, 61, 82, 84, 85,
	130, 137, 141, 143, 148, 151,
	152, 165, 199,

180, 182, 186, 188, 191, 210,

241

سليم الثاني, 14

سليمان القانوني, 8, 12, 14, 40, 46,

51, 149, 160, 162, 163, 164,

183, 185, 189, 192, 198, 199,

207, 210

سليمان باشا, 69, 161, 162, 186,

191, 192, 193, 194, 195, 196,

197, 198, 199, 200, 203, 205,

207, 209, 210, 227

سنان باشا, 179, 204

سيد علي ريس, 160

"ط"

طومان باي, 38

"ع"

عامر بن داود الطاهري, 174, 176,

179, 193

"ف"

فاسكو دي غاما, 28, 63, 80, 82,

94, 95, 97, 100, 104, 262

فرانسيسكو ألفريس, 130

فرانسييسكو دي ألميدا, 108, 289

"ق"

قانسوه الغوري, 25, 30, 38, 174

قونزالو رودريجز, 158

"ك"

كابراي, 57, 100, 101, 102

"ج"

جواو الثالث, 159

"ح"

حسن الكردي, 30, 34, 117, 175,

176, 177, 178, 179, 187

حسين الرومي, 39, 119, 190

"خ"

خاير بك, 39

خليفة المسلمين, 39, 41

"د"

دوم جواو الثاني, 56, 92

دوم هنريك, 87

دون إيمانويل, 12, 78, 121

دون سيبيستيان, 78, 216, 218

ديوغو لوبيز دي سيكيرا, 119

"ر"

رستم باشا, 162, 204, 214

"ز"

زامورين, 98, 102

"س"

سرسا دنجل, 159

سفر ريس, 188, 205, 206

سلمان ريس, 34, 178, 190, 262

سليم الأول, 30, 33, 37, 38, 39, 42,

45, 46, 47, 48, 49, 166, 172,

175, 178, 179, 180, 183, 189,

207, 24, 39, 175, 177, 178, 179

كريستوف كولمبس, 93

كريستوفر ديغاما, 145, 201,

كلاديوس, 146, 151, 152, 153, 154,

158, 167

"ل"

لبنا دنجل, 36, 58, 117, 130, 131,

139, 142, 144, 145, 147, 155

, 156, 157, 186, 290

لوبو سواريز, 116, 177, 186, 178

"م"

ماتيو, 58, 115, 118, 155

محمد بن آزر بن أبي بكر, 129, 132

مرجان الظافري, 31, 117, 186, 188

مصطفى النشار, 161, 201

مظفر شاه, 174

"ن"

نور بن الوزير, 153, 167

"ه"

هنري البورجوني, 75

هنري الملاح, 90

هيلينا, 36, 58, 60, 131, 155

"ي"

يوحنا الأول, 85

يوحنا الثاني, 5, 56,

ب. فهرس الأماكن

”j”

- أبريم, 164, 167
أثيوبيا, 7, 11, 35, 57, 61, 144, 144
236, 169
أجاي, 151
أذربجان, 49, 50
آرغون, 23, 55, 93
أريتريا, 29, 153, 165, 167
إسبانيا, 4, 59, 74, 78, 90, 93, 123
288, 257, 221, 218, 183
اسطنبول, 39, 41, 162, 164, 173
174, 183, 193, 196, 210, 212
272, 216, 215
إفريقيا, 5, 6, 7, 8, 9, 10, 11, 12
16, 18, 23, 24, 27, 36, 54, 55
57, 63, 64, 66, 71, 73, 76, 77
78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85
86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93
94, 97, 98, 104, 108, 109
111, 113, 114, 117, 120, 121
122, 124, 125, 130, 136, 161
163, 164, 170, 172, 181, 203
212, 217, 219, 222, 223, 236
255, 258, 259, 266, 267, 270
272, 273, 288
إقليم التيغري, 145, 169
الإسكندرية, 32, 35, 54, 55, 182
- الإمارات الإسلامية, 6, 103, 108, 121
124, 131, 139, 140, 141, 155
157, 168, 202, 211
الأماكن المقدسة, 36, 37, 38, 42, 43
46, 50, 172, 199, 200, 223
الأيبيرية, 19
البحر, 166
البحر الشرقية, 4, 7, 8, 9, 10, 16
17, 19, 28, 30, 34, 81, 37, 46
68, 71, 100, 110, 107, 111, 117
119, 120, 124, 186, 125, 155
172, 173, 181, 186, 189, 199
196, 200, 205, 207, 209, 213
214, 221, 222, 223, 224
البحر الأبيض المتوسط, 27, 29, 46
77, 81, 123, 127, 183, 184
205, 208, 211
البحر الأحمر, 5, 6, 7, 10, 13, 17
24, 27, 28, 29, 32, 36, 38, 39
40, 41, 42, 43, 53, 54, 58, 59
60, 61, 62, 85, 100, 103, 104
111, 113, 114, 115, 118, 119
120, 123, 124, 127, 128, 129
131, 140, 145, 149, 152, 153
155, 156, 159, 161, 163, 164
165, 166, 167, 168, 172, 173
175, 176, 177, 178, 179, 180
181, 182, 184, 185, 186, 187
189, 190, 191, 192, 193, 196
198, 200, 202, 204, 205, 207
210, 211, 212, 213, 215, 216

,166 ,165 ,164 ,163 ,162 ,161	,265 ,261 ,223 ,222 ,219 ,217
,184 ,181 ,170 ,169 ,168 ,167	304 ,291 ,290 ,272 ,271 ,268
,204 ,202 ,195 ,189 ,188 ,186	البحر الأسود, 45, 208
,228 ,227 ,226 ,224 ,223 ,213	البرتغال, 4, 5, 10, 12, 13, 16, 19
,271 ,261 ,255 ,254 ,253 ,230	,57 ,56 ,50 ,47 ,36 ,34 ,32 ,31
304 ,290 ,289 ,287	,78 ,77 ,76 ,75 ,74 ,73 ,59 ,58
الحجاز, 39, 41, 43, 50, 51, 68	,88 ,87 ,86 ,85 ,83 ,82 ,81 ,80
,223 ,180 ,178 ,172 ,141 ,85	,100 ,99 ,98 ,95 ,93 ,92 ,90
304 ,227	,109 ,108 ,107 ,104 ,102 ,101
الحرمين الشريفين, 6, 29, 37, 39, 41	,117 ,116 ,115 ,113 ,111 ,110
222 ,59 ,42	,130 ,124 ,122 ,121 ,120 ,119
الدولة الصفوية, 4, 33, 43, 46, 47	,158 ,157 ,156 ,155 ,150 ,145
256 ,172 ,122 ,107 ,49	,200 ,198 ,196 ,195 ,181 ,159
الدولة العثمانية, 4, 6, 7, 8, 15, 17	,216 ,215 ,213 ,211 ,210 ,206
,33 ,32 ,29 ,24 ,23 ,20 ,19 ,18	,226 ,224 ,223 ,219 ,218 ,217
,48 ,46 ,45 ,43 ,42 ,41 ,40 ,37	,246 ,245 ,238 ,237 ,236 ,232
,150 ,149 ,148 ,53 ,50 ,49	304 ,290 ,288 ,259 ,257
,173 ,168 ,163 ,162 ,161 ,160	البصرة, 7, 32, 43, 51, 69, 70, 103
,193 ,189 ,185 ,183 ,181 ,180	,211 ,203 ,189 ,172 ,161 ,122
,212 ,211 ,208 ,207 ,199 ,195	,223 ,216 ,215 ,214 ,213 ,212
304 ,287 ,224 ,223 ,217 ,214	260
الروملي, 45	البلقان, 45
الزليح, 10, 16, 54, 55, 59, 127	البندقية, 29, 32, 48, 81, 289
,138 ,137 ,134 ,133 ,131 ,128	التيجراي, 144
290 ,287 ,181 ,155 ,140 ,139	النغر الأعلى, 75, 76
السند, 16	الحبشة, 5, 6, 10, 12, 13, 14, 15
السواحل الإسلامية, 6, 23, 32	,41 ,36 ,35 ,32 ,30 ,21 ,18 ,16
السواحل الشرقية للبحر الأحمر, 31, 170	,60 ,59 ,58 ,57 ,56 ,55 ,54 ,53
السواحل الغربية لإفريقيا, 27, 91, 95	,99 ,92 ,85 ,82 ,66 ,63 ,62 ,61
السودان, 39, 127, 160, 163, 164	,127 ,119 ,118 ,117 ,115 ,107
166	,133 ,132 ,131 ,130 ,129 ,128
السويس, 12, 18, 34, 40, 43, 120	,142 ,141 ,140 ,139 ,138 ,136
,181 ,179 ,175 ,163,173 ,160	,148 ,147 ,146 ,145 ,144 ,143
	,154 ,153 ,152 ,151 ,150 ,149
	,160 ,159 ,158 ,157 ,156 ,155

القوقاز, 219	182, 185, 189, 191, 192, 193
الكعبة المُشرّفة, 85	200, 201, 203, 204, 206, 207
المحيط الأطلسي, 59, 88, 123, 222	208, 213, 227, 239, 243
المحيط الأطلسي, 56, 73, 78, 80, 81	244, 245, 247, 250, 273
الشام, 30, 32, 38, 39, 48	252, 195, 68
الشحر, 68, 195, 252	80, 78, 4
المحيط الهندي, 4, 7, 13, 20, 23, 25	الصّومال, 63, 134, 135, 140, 156
27, 28, 29, 30, 32, 34, 40, 42	الطّرق التّجاريّة العالميّة, 28, 50, 59
43, 46, 51, 63, 66, 67, 68, 69	العالم الإسلامي, 4, 6, 7, 16, 21, 23
80, 84, 87, 91, 97, 99, 103	33, 37, 40, 43, 44, 45, 46, 47
104, 106, 107, 110, 111, 112	51, 52, 55, 71, 79, 82, 84, 85
113, 114, 116, 117, 120, 122	90, 122, 123, 127, 150, 172
161, 174, 175, 180, 181, 183	173, 174, 207, 208, 221, 291
189, 191, 192, 193, 194	304
196, 200, 202, 204, 205	العبدلاب, 166
206, 208, 211, 213, 215, 214	العراق, 41, 43, 49, 51, 69, 112
216, 219, 226, 229, 250, 259	160, 196, 212, 214, 260, 262
287, 261, 266	263
المدينة المنوّرة, 115	الغرب الأوروبي, 23
المشرق الإسلامي, 9, 10, 24, 47, 56	القاهرة, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 33
73, 92, 287	35, 36, 37, 38, 39, 40, 49, 53
المشرق العربي, 4, 46, 172	54, 56, 58, 60, 63, 68, 92, 93
المغرب العربي, 4, 23, 71, 80, 94	94, 97, 111, 118, 123, 127
183	131, 135, 136, 140, 156, 168
الميلبار, 26, 98, 100, 104, 108	176, 179, 181, 184, 187, 188
النّجف, 48	190, 192, 196, 208, 227, 237
النّوبة, 54, 166, 167	251, 252, 253, 254, 255, 258
النيل الأزرق, 54, 142, 144, 149	259, 261, 262, 265, 267, 268
أمّحرة, 141, 142, 145	269, 270, 271, 272, 273
أنفّرس, 123	القرن الإفريقي, 5, 21, 161, 219
أواسط آسيا, 50, 208, 222	القسطنطينيّة, 23, 35, 81, 85, 189
أواش, 54, 142, 152	القطيّف, 69, 70

أوروبا, 4, 23, 28, 33, 35, 36, 38,	تيجراي, 144, 164, 165
40, 45, 46, 69, 73, 74, 76, 77,	"ج"
78, 79, 81, 82, 84, 85, 88, 91,	جبرت, 60
123, 155, 183, 218, 219, 222,	جدة, 30, 31, 34, 38, 39, 42, 85,
224, 257, 266, 268, 270, 271,	117, 118, 119, 175, 177, 178,
290	186, 187, 188, 190, 193, 196,
أوفات, 60, 131, 140, 146	197
إيالة الحبشة, 10, 149, 165, 170,	جزر الهند الشرقية, 202
184, 223	جنوة, 49, 93
باب المنذب, 33, 61, 67, 85, 104,	جوجام, 142, 144
116, 118, 139, 165, 178, 187,	جيبوتي, 7
190, 212, 223	جيرجي, 142
البحار الشرقية, 4, 206	
"ب"	
بالي, 143	"ح"
بحيرة تانا, 54, 59, 144, 145, 147,	حبشستان, 162
148, 149	حرققو, 163
برّ سعد الدين, 128, 129, 143	حضر موت, 68
براوة, 104, 109	حلب, 25, 40, 48
بربرة, 61	
بريطانيا, 8, 73, 74, 77, 124	"خ"
بغداد, 30, 43, 112, 183, 192, 196,	خليج البصرة, 5, 32, 34, 43, 50, 69,
213, 258, 260, 262, 272, 276	70, 85, 111, 114, 117, 172,
بلاد فارس, 4, 32, 33, 49, 54	186, 192, 213, 214, 216, 223
بورصة, 40, 50, 123	خليج عدن, 24, 33, 109, 164, 167
"ت"	"د"
بيت المقدس, 56, 130, 165, 181	دارا, 105, 110
تبريز, 33, 38, 40, 49, 50, 116	داورو, 141, 142, 152
تريم, 68	دكر, 60, 61, 134
تشالدران, 38, 50, 116, 261	دهلك, 62, 118, 119, 163, 187,
	201

"ش"

شبه الجزيرة العربية, 5, 7, 27, 42, 50,
53, 64, 67, 70, 85, 125, 141,
174, 193, 199, 287
شبه جزيرة القرم, 45
شرق إفريقيا, 4, 5, 6, 7, 8, 9, 10, 11,
13, 16, 17, 19, 20, 21, 23, 24,
35, 36, 44, 53, 54, 55, 57, 60,
63, 64, 65, 66, 67, 79, 81, 83,
84, 88, 90, 94, 96, 97, 98,
100, 102, 103, 104, 106, 107,
108, 109, 110, 111, 113, 120,
121, 122, 124, 125, 127, 128,
130, 141, 148, 160, 161, 162,
167, 170, 176, 184, 190, 211,
217, 219, 221, 222, 223, 224,
255, 257, 258, 259, 267, 270,
271, 287, 288, 289, 290, 304
شنترمية, 75
شوا, 142, 146

"ص"

صنعاء, 31, 67, 91, 114, 173, 250,
251, 252, 253, 254, 259, 26

"ط"

طريق الحرير, 40, 50, 222

"ع"

عدل, 57, 60, 61, 118, 128, 129,
131, 132, 133, 134, 135, 137,
139, 143, 155, 170, 219, 289
عدن, 10, 29, 31, 43, 56, 67, 68,
111, 113, 114, 115, 117, 118,
159, 161, 175, 176, 177, 178,

دولة البرتغال, 19, 218, 223

"ر"

رأس الرجاء الصالح, 23, 26, 28, 32,
42, 56, 57, 90, 92, 95, 101,
102, 123
رودس, 29, 92, 174, 183
روسيا, 7, 49
روما, 4, 28, 73, 76, 77, 81, 82,
83, 85, 99, 156, 157, 158,
183, 206, 221

"ز"

زبيد, 34, 67, 140, 148, 176, 179,
195
زنجبار, 64, 96, 106, 254
زوبول, 146
زيلع, 61, 115, 118, 132, 136,
149, 152, 163, 179, 184, 204

"س"

سبته, 73, 77, 82, 87, 90, 218
سفالة, 53, 65, 80, 95, 100, 107,
108, 111
سمرقند, 208
سنار, 166
سواكن, 31, 53, 58, 61, 62, 115,
118, 163, 164, 179, 187, 196,
201, 202, 204, 226, 247, 269
سوقطرى, 33, 42, 109, 111, 114,
176, 190, 227

كريت, 14	,193 ,191 ,188 ,187 ,186 ,179
كلوة, 66 ,95 ,96 ,101 ,103 ,107	,203 ,201 ,199 ,197 ,196 ,194
253 ,219 ,111 ,109	,260 ,242 ,223 ,213 ,211 ,206
كنيسة القيامة, 28 ,115	265 ,262
كوجرات, 30 ,192	عقم, 134
كينيا, 16 ,66 ,258	عُمان, 8 ,70 ,288
"غ"	
ل"ل	غرناطة, 23 ,29 ,74 ,86 ,93 ,96
لامو, 109	101
لشبونة, 12 ,34 ,56 ,57 ,76 ,91 ,92	غوا, 98 ,110 ,112 ,115 ,116 ,121
,106 ,103 ,102 ,101 ,99 ,95	,213 ,210 ,201 ,200 ,187 ,156
,116 ,115 ,112 ,111 ,110 ,109	304 ,237 ,236
210 ,209 ,159 ,156 ,120 ,117	
"ف"	
"م"	فرنسا, 59 ,74 ,78 ,218 ,257
ماليندي, 57 ,64 ,65 ,66 ,96 ,97	فطجار, 141 ,142 ,154
,103 ,102 ,101 ,100 ,99 ,98	فِطْجار, 139
219 ,121	فلسطين, 33 ,38
مخا, 67 ,206	
مسقط, 70 ,71 ,79 ,98 ,136 ,266	"ق"
مصر, 5 ,7 ,12 ,13 ,15 ,24 ,25	قبائل الجالا, 152 ,153 ,154 ,158
,35 ,34 ,33 ,30 ,29 ,28 ,27 ,26	219 ,159
,44 ,42 ,41 ,40 ,39 ,38 ,37 ,36	قشتالة, 73 ,75 ,76 ,77 ,93 ,94 ,218
,66 ,59 ,58 ,56 ,55 ,54 ,53 ,48	قناة الفولغا, 208 ,291
,109 ,104 ,83 ,74 ,70 ,69 ,68	
,147 ,143 ,141 ,139 ,131 ,114	
,165 ,164 ,163 ,162 ,161 ,155	"ك"
,176 ,174 ,173 ,172 ,167 ,166	كاليكوت, 26 ,30 ,80 ,102 ,106
,186 ,185 ,182 ,181 ,180 ,177	كامران, 62 ,115 ,118 ,175 ,176
,198 ,194 ,191 ,190 ,189 ,187	193 ,187 ,178
,247 ,222 ,212 ,208 ,207 ,202	كجرات, 30 ,193
,265 ,262 ,255 ,253 ,252 ,251	كداد, 134
,287 ,272 ,271 ,269 ,268 ,266	
304	

مصوع, 61, 119, 153, 163, 164,	نهر الكونغو, 91
168, 169, 181, 184, 188, 196,	نهر النيل, 7, 36, 54, 56, 58, 134,
200, 201, 204	142, 149, 162, 166
مضيق هرمز, 109, 211, 223	نهر تيكازي, 144, 145
معركة آفلا, 148	نهر غامبيا, 91
معركة الريدانية, 38	
معركة تشالدران, 38, 48, 49, 50, 51,	"ه"
227	هدية, 36, 60, 88, 101, 152, 186,
معركة تشاول, 31	253, 269 الهند, 4, 6, 7, 13, 15,
معركة ديور, 36, 43, 58, 131, 155,	17, 18, 20, 26, 27, 29, 30, 31,
174	34, 35, 40, 41, 42, 46, 50, 57,
معركة زلة, 143	59, 64, 65, 67, 69, 79, 82, 85,
معركة سامبرا كور, 138	86, 87, 90, 92, 93, 94, 97, 98,
معهد العوالم الإفريقية بباريس, 20	99, 100, 102, 103, 106, 107,
مقديشيو, 63, 65, 105	109, 110, 111, 112, 114, 115,
مكة المكرمة, 34	116, 117, 120, 121, 122, 123,
ممالك الزيلع, 10, 128, 289	124, 125, 145, 161, 174, 175,
ممالك الطراز الإسلامي, 59, 66, 127,	177, 178, 186, 187, 189, 190,
287, 178	191, 192, 193, 194, 196, 197,
ممباسا, 64, 66, 96, 97, 102, 104,	198, 200, 202, 203, 205, 206,
219, 109, 106	207, 209, 210, 212, 213, 215,
مملكة بورنو, 170	216, 217, 221, 222, 227, 236,
موزمبيق, 64, 65, 89, 95, 96, 101,	237, 242, 263, 288, 304
103, 106, 110, 114, 120, 121,	هرر, 60, 61, 128, 129, 131, 134,
206, 226, 238	135, 136, 138, 139, 140, 141,
الميلبار, 26, 98, 100, 104, 108	143, 152, 153, 154, 167, 170,
	289
"ن"	هرمز, 7, 33, 34, 43, 50, 69, 70,
نهر الزمبيزي, 108	111, 113, 114, 119, 175, 188,
نهر السنغال, 91	202, 206, 210, 212, 213, 214,
	217, 226, 232, 236, 288
	هضبة الحبشة, 54, 61
	هوبت, 134, 136
	هولندا, 124, 218

"و"

واج, 152

وادي الدّناكل, 146

وادي المخازن, 8, 10, 78, 218, 228

واصل, 23, 64, 117, 132, 140,

142, 144, 165

"ي"

اليمن, 5, 12, 30, 31, 34, 50, 59,

60, 62, 64, 67, 68, 69, 114, 136,

141, 148, 161, 162, 173, 174, 175,

176, 177, 178, 180, 185, 189, 190,

191, 192, 193, 194, 195, 196, 198,

199, 201, 203, 204, 208, 209, 212,

226, 227, 230, 243, 244, 247, 250,

251, 253, 254, 259, 288, 304

فهرس المحتويات

المقدمة..... 21-4

الفصل الأول: نظرة عامة عن أوضاع المشرق الإسلامي في بدايات القرن 10هـ/16م.. 22-70

تمهيد 23

المبحث الأول: أوضاع دولة المماليك في مصر مع مطلع القرن 10هـ/16م..... 24

1. الأوضاع الداخليّة 24

2. العلاقات الخارجيّة للدولة المملوكيّة 26

أ . العلاقات المملوكيّة البرتغاليّة..... 26

ب. علاقات المماليك مع مملكة الحبشة 34

ج .علاقات المماليك مع الدولة العثمانيّة..... 36

المبحث الثاني: الأوضاع في الدولة العثمانيّة..... 45

1. سياسة الدولة العثمانيّة تجاه القوى الإسلاميّة المحليّة..... 45

2. الصدام العثمانيّ الصّفويّ..... 47

المبحث الثالث: نظرة عامّة على الأوضاع في شرق إفريقيا عند وصول البرتغاليين..... 53

1. أوضاع الحبشة في مطلع القرن 16م..... 54

أ. مملكة الحبشة المسيحيّة: 55

ب. ممالك الطراز الإسلاميّ في بلاد الزيلع 59

2. الممالك الإسلاميّة في شرق إفريقيا المطلّة على المحيط الهنديّ..... 63

المبحث الرابع: أهمّ القوى الإسلاميّة المحليّة في جنوب شبه الجزيرة العربيّة..... 67

1. اليمن 67

2. مشيخة هرمز 69

3. سلطنة عُمان 70

124-72	الفصل الثاني: الحملات البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا
73	تمهيد
74	المبحث الأول: ظهور دولة البرتغال
79	المبحث الثاني: دوافع الغزو البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا
79	1. الدوافع الاقتصادية
81	2. الدوافع الدينية
84	3. الدوافع السياسية
86	4. تطوّر وسائل الملاحة البحرية
88	5. الحصول على الرقيق
90	المبحث الثالث: الحملات البرتغالية للسيطرة على شرق إفريقيا
90	1. الحملات البرتغالية لاكتشاف وغزو غرب إفريقيا
93	2. معاهدة تورديسيلاس واقتسام العالم بين اسبانيا والبرتغال
94	3. الحملات البرتغالية للسيطرة على سواحل شرق إفريقيا
94	أ. حملة فاسكو ديغاما الأولى (1498-1499)
100	ب. حملة بيدرو ألفاريز كابرال 1500م
102	ج. حملة فاسكو ديغاما الثانية على الهند 1502م
105	د. حملة أفنسو البوكيرك الأولى 1503م
107	هـ. حملة بيدرو أنيا 1505م
108	و. حملة فرانسيسكو دي ألميدا 1505م
112	هـ. حملة أفنسو البوكيرك الثانية 1509م
116	ز. حملة لوبو سواريز 1516م
118	ي. حملة ديوغو لوبيز دي سيكيرا 1520م

المبحث الرابع: نتائج الغزو البرتغالي لسواحل شرق إفريقيا.....	120
1. النتائج السياسية.....	120
2. النتائج الاقتصادية.....	122
3. التأثيرات الحضارية.....	124
الفصل الثالث: الصراع بين ممالك الزيلع والحبشة والتدخل البرتغالي-العثماني.....	125-170
تمهيد.....	126
المبحث الأول: الصراع الإسلامي المسيحي في الحبشة قبل وصول البرتغاليين.....	127
1. أوضاع سلطنة عدل عند وصول البرتغاليين.....	127
2. طبيعة العلاقات الحبشية الهررية عند وصول البرتغاليين إلى شرق إفريقيا.....	129
3. حركة الجهاد الإسلامي بقيادة أمراء هرر.....	130
أ. مواجهة سلطة عدل للحبشة بقيادة الأمير محفوظ.....	131
ب. مواجهة سلطنة عدل للحبشة بقيادة الجراد أبون بن آدشي.....	132
المبحث الثاني: جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم للحبشة.....	135
1. نبذة عن شخصية الإمام أحمد بن إبراهيم.....	135
2. جهاد الإمام أحمد بن إبراهيم ضد الحبشة.....	137
أ. بدايات المواجهات بين الإمام إبراهيم والملك لبنا دنجل.....	138
ب. توغل الإمام أحمد بن إبراهيم في الحبشة.....	141
ج. فتح الإمام أحمد للأقاليم الجنوبية من هضبة الحبشة.....	142
د. تراجع ونهاية حركة الإمام أحمد.....	144
3. أوضاع الحبشة بعد وفاة الإمام أحمد بن إبراهيم.....	150
أ. تجدد حركة الجهاد بقيادة الوزير عباس.....	150
ب. مساندة العثمانيين للإمام بن الوزير في جهاده ضد الحبشة.....	152
المبحث الثالث: طبيعة العلاقات بين مملكتي البرتغال والحبشة.....	154
1. التحالف الحبشي البرتغالي ضد القوى الإسلامية في بلاد الزيلع.....	154

2.	عودة الخلافات بين الكنيستين الكاثوليكية واليعقوبية في الحبشة.....	156
	المبحث الرابع: السياسة العثمانية في شرق إفريقيا	159
1.	تأسيس العثمانيين لإيالة الحبش وتوغلهم في المناطق الداخلية.....	159
أ.	ظروف تأسيس إيالة الحبش	159
ب.	حملة أوزدمير الأولى على الحبشة.....	161
ج.	حملة أوزدمير الثانية وتأسيس إيالة الحبش	162
د.	الأوضاع في إيالة الحبشة بعد وفاة أوزدمير باشا	164
2.	توسّع العثمانيين على حساب مملكة الفونج.....	165
3.	السياسة العثمانية في شرق إفريقيا.....	166
	الفصل الرابع: الصراع العثماني البرتغالي في البحر الأحمر.....	170-221
	تمهيد	171
	المبحث الأول: بدايات المواجهات بين البرتغاليين والعثمانيين في البحر الأحمر	172
1.	مؤازرة العثمانيين للمماليك في مواجهتهم البرتغاليين	172
2.	الإستراتيجية العثمانية في البحر الأحمر	179
	المبحث الثاني: المواجهات بين العثمانيين والبرتغاليين في البحر الأحمر	184
1.	مراحل المواجهات بين العثمانيين البرتغاليين في البحر الأحمر	185
أ.	المرحلة الأولى.....	185
أ. 1.	التصدي لحملة لوبو سواريز 1515م.....	185
أ. 2.	التصدي لحملة البرتغالية لاحتلال جدة عام 1520م.....	186
أ. 3.	الحملة العثمانية على البحر الأحمر بقيادة سلمان ريس 1526.....	189
أ. 4.	التصدي لحملة البرتغالية على عدن 1530م.....	189
ب.	المرحلة الثانية.....	190
ب. 1.	حملة سليمان باشا على اليمن والهند وتداعياتها 1538م.....	190
ب. 2.	تصدي العثمانيين لحملة البرتغالية على السويس 1541م.....	198

ب.3. حملة بييري ريس الأولى على ميناء عدن 1549م.....	202
ب.4. حملة سنان باشا 1554م.....	203
ب.5. حملة سفر ريس 1564م.....	203
3. المشاريع العثمانية لربط أجزاء العالم الإسلامي الشرقية بمركز الخلافة.....	206
أ. مشروع ربط البحرين الأحمر بالأبيض المتوسط	206
ب. مشروع قناة الفولغا:.....	207
المبحث الثالث: محاولات الصلح بين العثمانيين والبرتغاليين ونهاية الصراع العثماني البرتغالي... 208	208
1. محاولات الصلح بين العثمانيين والبرتغاليين.....	208
2. نهاية الصراع العثماني البرتغالي.....	216
الخاتمة.....	219
الملاحق.....	224
البيبلوغرافيا.....	249
فهرس الأعلام والأماكن.....	279
فهرس المحتويات.....	292

المُلخَص

تتناول هذه الدراسة الصّراع العثماني البرتغالي في شرق إفريقيا فيما بين (922-973هـ/1517-1564م)، حيث كانت هذه المنطقة بمثابة جبهة من جبهات المواجهة بين العالم المسيحي الأوروبي مُمثلاً في دولة البرتغال التي تحالفت مع مملكة الحبشة المسيحية والدولة الصفوية، ومن جهة أخرى العالم الإسلامي ممثلاً في الدّولة العثمانية، التي تدخلت لنصرة الممالك الإسلامية هناك وحماية الأماكن المقدسة في الحجاز.

وبعد وصول أولى الحملات البرتغالية إلى المنطقة، اتّجه البرتغاليون إلى الهند حيث اتّخذوا من غوا مقراً لهم ، ثم توالت حملاتهم على المنطقة. وحتى يتمكّن العثمانيّون من صدّ هذه التّحرّشات أقدموا على ضمّ مصر، ثم أنشؤوا إيالتي اليمن والحبش، واتّخذوا من هذه الأخيرة كقاعدة لتدعيم القوى الإسلاميّة المحليّة في حربها ضدّ الحبشة. ومن جهة أخرى لكبح جماح البرتغاليين ومنعهم من دخوله.

وبعد صراع طويل بين الدولتين لم يتمكن أحد الطرفين من تحقيق نصر حاسم على الآخر، لهذا حاولا عقد معاهدة سلام بينهما لكنهما فشلا في ذلك.

الكلمات المفتاحية: البرتغال - العثمانيون - اليمن - الحبشة - مصر.

Abstract:

This study examines the Ottoman-Portuguese conflict in East Africa between (922-973AH/ 1517-1566) when this was a region of confrontation between the European Christian world by Portugal allied with the Christian Kingdom of Abyssinia and the Safavid state, and the Islamic world by the Ottoman Empire, to support Islamic kingdoms in the area and protect holy sites in the Hijaz.

After the first Portuguese expeditions there, the Portuguese turned their attention to India, where they established their headquarters in Goa, and continued their campaigns there. To counter incursions, the Ottomans annexed Egypt and created the states of Yemen and Abyssinia, using the latter a base to strengthen Islamic forces in their war against Abyssinia and prevent the Portuguese from entering.

After a protracted struggle, neither side was victorious, so they tried a peace treaty but failed in their efforts.

Keywords : *Portugal, Ottomans, Yemen, Abyssinia , Egypt.*